دكتورة زبيدة عطا

بلاد الترك في العصور الوسطى

بيزنطة وسلاجقة الروم والعثمانيون



ملتزم الطبع والنشر
دار الفكر العربي

دكتورة زبيدة عطا

الترك في العصور الوسطى

بيزنطة وسلاجقة الروم والعثمانيون

ملتزم الطبع والنشر

دار الفكر العربي

مقدمة

الترك أحد الشعوب الرعوية التى عاشت فى أواسط آسيا وقدر لها أن تلعب دوراً هاماً فى تاريخ العالم ، ورغم أن أول ظهور لإسم الترك يعود إلى القرن السادس الميلادى حيث كونوا أول إمبراطورية لهم والتى ورد ذكرها فى وثائق بيزنطة فى القرن السادس ، فإن بيزنطة عرفت فى فترة سابقة عددا من القبائل تندرج تحت الجنس التركى كالبلغار والخزر والقفجاق والبورداس والماجيار .

ولقد بدأ إنتشار الترك وتوسعهم فى جميع الاتجاهات بعد إنهيار إمبراطوريتهم فى منتصف القرن السابع فاتجهت قبائلهم إلى وجهات عدة بعضها اتجـــه إلى أراضى بيزنطة والبعض إلى الأراضى الخاضعة للدولة الإسلامية .

ولقد تناول عددا من المؤلفات الإسلامية فى العصور الوسطى بعض تلك الشعوب التركية التى دخلت إلى الحدود الإسلامية وأقامت دولا تركية إسلامية كالسلاجقة والغزنويين والسامانيين فكتب عنهم البيهقى والنرشخى والبندارى والراوندى ولكن الفترة التى لم تستوف حقها من الدراسة هى الفترة السابقة لدخول تلك الشعوب نطاق العالم الإسلامى ، فلم تتناولها إلا مؤلفات قليلة ككتاب قسطنطين بورفجينتوس عن إدارة الدولة .

فذكر القبائل التى أحاطت بالإمبراطورية وأجناسها ومعلومات عن حياتها الأولى . وهناك عدد من مؤلفات الرحالة والجغرافيين المسلمين ولكنها ترجع أيضاً كما يرجع كتاب قسطنطين إلى فترة القرن العاشر الميلادى أو قبله بقليل كالبلخى وابن حوقل والأصطخرى وإن كان يؤخذ عليها أنها لاتحدد تحديداً دقيقا أماكنهم أوقبائلهم. اما أقدم النقوش التركية

فكان نقش آرخون الذى أورد بعض المعلومات عن إمبراطورية الترك الأولى.

ولما كان من الصعب القيام بدراسة شاملة لكل الشعوب والقبائل التركية فانى جعلت دراستى قاصرة على دولتين تركيتين تنتميان إلى قبيلة الغز وهما سلاجقة الروم ودولة العثمانيين إلى سقوط القسطنطينية ، وكلا الدولتين قامتا على أراضى بيزنطة فى آسيا الصغرى حيث توجد أهم ولايات الدولة، ويستمد منها المدد البشرى من خيرة جند الإمبراطورية ومن مدنها خرج عدد من أباطرة بيزنطة، وفى مدينة نيقية التى اتخذها السلاجقة عاصمة لهم فترة ، عقدت أول المجامع الدينية المسيحية.

ولقد استطاع سليمان بن قتلمش فى القرن الحادى عشر الميلادى اقتطاع آسيا الصغرى من جسم الإمبراطورية وأقام عليها مملكة كانت أطول ممالك السلاجقة عمراً فقد استمرت للقرن الثالث عشر ولم يقض عليها إلا المغول بعد معركة ابلستين ، ولكن على أنقاضها قامت عدد من أمارات الغزاة قدر لأحدها وهى أمارة عثمان أن تكون دولة تركية جديدة لم تكتف بالسيطرة على القطاع الآسيوى فى الإمبراطورية بل سيطرت على البلقان وامتد نفوذها إلى الجانب الأوربى ولم يبق لأباطرة بيزنطة إلا عاصمتهم القسطنطينية التى ما لبثت أن سقطت تحت سيطرة العثمانيين ١٤٥٣ م ودخلتها جيوش محمد الثانى أو الفاتح كما اشتهر فى التاريخ ليحول مدينة قسطنطين إلى مدينة إسلامية.

ولقد قسمت الدراسة إلى تسع أبواب فأفردت الباب الأول للحديث عن العلاقات البيزنطية التركية إلى القرن الحادى عشر ، فذكرت ما أحاط ببيزنطة من أخطار على حدودها وخاصة فى منطقة البلقان والبحر الأسود وإن أغلب القبائل التى هددتها آنذاك كانت ترجع إلى أصل تركى كالبلغار والقفجاق والغز والماجيار ، وحددت الأماكن الجغرافية لتلك القبائل

ثم عرضت لقيام الإمبراطورية التركية والقصص المختلفة التي وردت حول أصل الترك وقبائلهم ، وما ترتب على إنهيار تلك الدولة من هجرة القبائل التركية وإنتشارها وإتجاه جزء إلى أراضي بيزنطة حيث دخل في صراع أو تحالف معها، وإتجاه جزء آخر إلى أراضي الدولة الإسلامية .

أما الفصل الثاني فكان عن ذلك الفرع من القبائل الغزية الذي إتجه إلى الأراضي الإسلامية ، وعن إنتشار الإسلام بين القبائل التركية في بلاد ما وراء النهر والذي تم عن طريقين طريق الغزو الحربي وطريق التغلغل السلمي ،متخذاً عدة مظاهر كالتبشير والمدارس الإسلامية ، ولقد كان للسامانيين دورا كبيرا في إعتناق عدد من قبائل الترك الإسلام ومن أهم تلك القبائل السلاجقة الذين اعتنقوا الإسلام على المذهب السني واستطاعوا خلال فترة بسيطة الانتصار على الغزنويين ثم دخول أراضي الخلافة بل السيطرة على الخلافة نفسها بعد قضائهم على البويهين ، وبوصفهم سنيين متحمسين كان عليهم إعلان الجهاد المقدس ضد أعداء الدولة وأولهم دولة بيزنطة المسيحية ، وفي معركة مانزكرت إنهزمت بيزنطة وأسر إمبراطورها وترتب على تلك المعركة انثيال الترك في آسيا الصغرى . ولقد تعددت مصادر هذا الفصل بين إسلامية وبيزنطية فمن السلاجقة كتب الراوندي الرشخي البيهق البنداري وعن مانزكرت كتب ميخائيل بسليوس وآنا كومنين .

أما الفصل الثالث فقد عرضت فيه لقيام مملكة سلاجقة الروم على أيدي أحد الأمراء الثائرين على ألب أرسلان وهو سليمان بن قتلمش حيث استطاع إقامة مملكة في آسيا الصغرى إعتماداً على إنهيار قوة بيزنطة بعد مانزكرت ولقد استغل سليمان الصراع بين الأباطرة والقادة البيزنطيين لكسب أراضي جديدة على حساب بيزنطة ولقد استمرت الدولة بعد سليمان في

توسعها وخاصة فى عهد خليفته قلج أرسلان مما إضطر الإمبراطور الكسيوس للإستنجاد بالغرب وخير مصادر تلك الفترة أنا كومنين .

والفصل الرابع عرضت فيه لموقف السلاجقة وبيزنطة تجاه الحملات الصليبية ورغم نجاح الحملة الصليبية الأولى فى إقتطاع غالبية آسيا الصغرى فإنها لم تقض على الوجود التركى هناك بل نمت بذور الخلاف بين الصليبيين والبيزنطيين . وهذه الفترة نجد أن مصادرها تشمل مؤلفات يونانية وإسلامية ولاتينية ففى مجموعة مؤرخى الحروب الصليبية نجد وصفاً دقيقاً للعلاقات بين الأطراف البيزنطية والسلجوقية واللاتينية الغربية أثناء الحملات الصليبية .

أما الفصل الخامس فهو عن عصر القمة فى التاريخ السلجوقى حيث استطاع الأتراك جمع شتاتهم وإلحاق الهزيمة ببيزنطة فى ميروكيفالون وهذه الهزيمة لاتقل عن مازكرت وإن كانت أبعد أثراً فقد إنحصر نفوذ بيزنطة فى آسيا الصغرى . ولقد اكتملت للدولة السلجوقية فى تلك الفترة مقوماتها السياسية والحضارية ، وهذه الفترة تعاصر عهدى كل من عز الدين كيكاوس وقلج أرسلان ، ولقد ساعد سلاطينها على الاهتمام بأمورهم الداخلية إنهيار بيزنطة وتمزقها عقب الحملة الصليبية الرابعة وإنقسامها لممالك عدة ولقد هربت البقايا اليونانية إلى آسيا الصغرى حيث أقاموا عدداً من الممالك اليونانية هناك كمملكة نيقية وأمارة طرابزون. وأهم مؤرخى تلك الفترة روبرت كلارى وفيلهاردوين من اللاتين . ونيكتاس خونيتس من اليونان .

والفصل السادس يتعرض لإنهيار الدولة السلجوقية على يد المغول وتحولهم إلى أمارة صغيرة تابعة لأمبراطورية المغول عقب معركة أبلستين ويعد رشيد الدين الهمذانى وبيبرس الدوادار من أفضل مصادر تلك الفترة

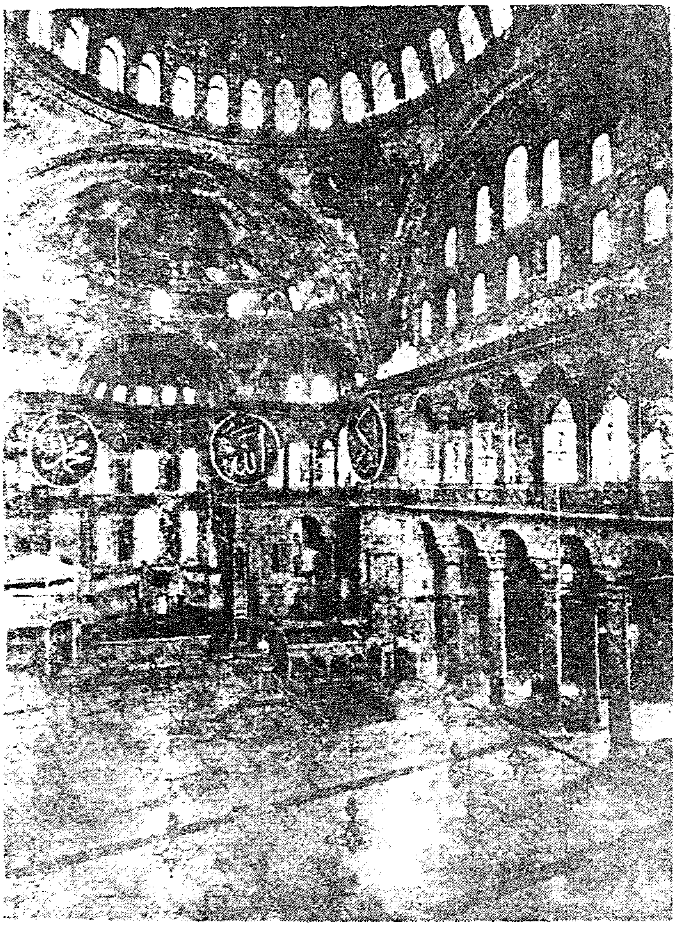
أما الفصول من السابع إلى التاسع فتتناول تاريخ العثمانيين، فقد عرضت لإمارات الغزاة التى قامت على أنقاض الدولة السلجوقية وأهمها أمارة عثمان، ثم ناقشت القصص التى وردت عن أصل العثمانيين ، ثم سيطرتهم على القبائل الغزية وتوسعهم على حساب بيزنطة فى آسيا الصغرى ، ثم الجانب الأوربى إعتماداً على إنهيار أوضاع الدولة البيزنطية منذ عهد أندرونيكوس الثانى حتى أصبح السؤال المثار هل ستسقط بيزنطة فى أيدى العثمانيين أم على يد قوة غربية . ولقد حاول حكامها محاولات يائسة للاستنجاد بالغرب ولكن لم يلق نداؤهم اذناً صاغية رغم محاولتهم لكسب البابوية وإعلان الاتحاد بين الكنيستين الشرقية والغربية .

وفى الفصل التاسع والأخير عرضت لأحوال الدولة العثمانية والإمبراطورية البيزنطية عندتولية محمد الثانى وكيف أصبحت القسطنطينية الفاصل بين أملاك السلطان فى آسيا وأوربا. ولقد تعرضت المدينة للحصار عدة مرات كان آخرها فى عهد محمد الفاتح وانتهى بسقوطها فى أيدى السلطان وتحولها لمدينة إسلامية. وكتب عدد من مؤرخى بيزنطة عن مراحل ذلك الصراع منهم حنا كنتاكوزنيوس وفرانتيز وكريتفولوس الذى أوردت ملحقاً بمقتطفات من مؤلفه عن سقوط القسطنطينية التى كان معاصرا لأحداثها .

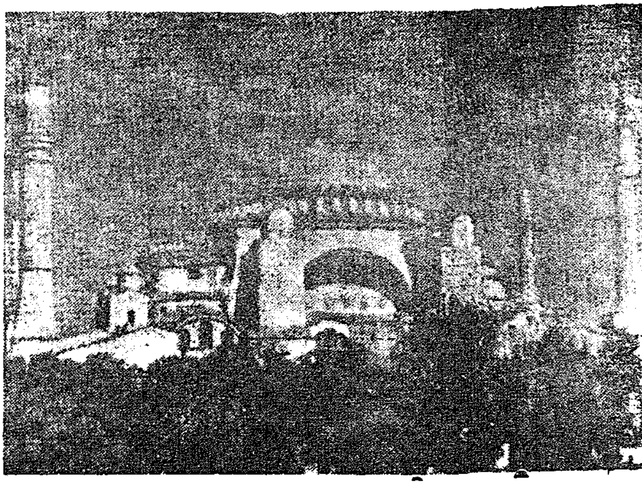
وفى النهاية أرجو أن أكون أوفيت الموضوع حقه فى الدراسة .

د . زبيده عطا

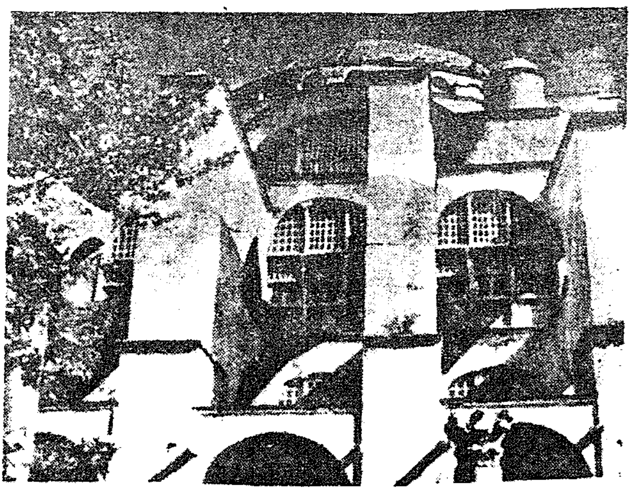
فهرس الموضوعات



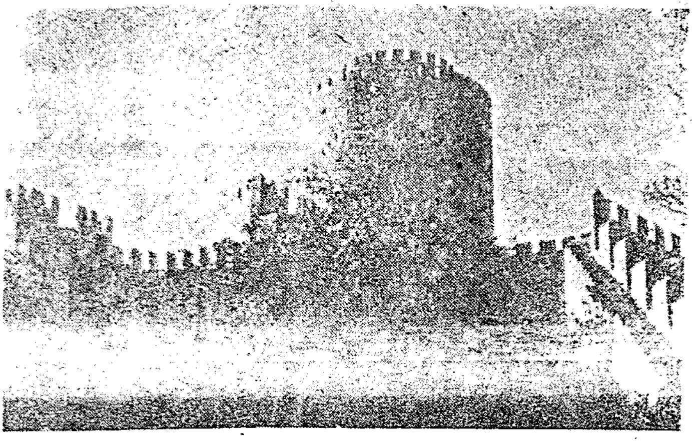
كنيسة أيا صوفيا بعد تحولها لمسجد على يد محمد الفاتح



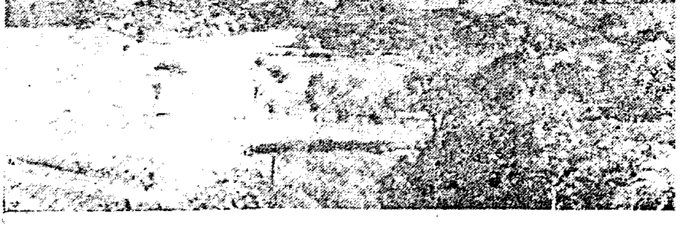
كنيسة أيا صوفيا كما تبدو سنة ٥٣٢ م



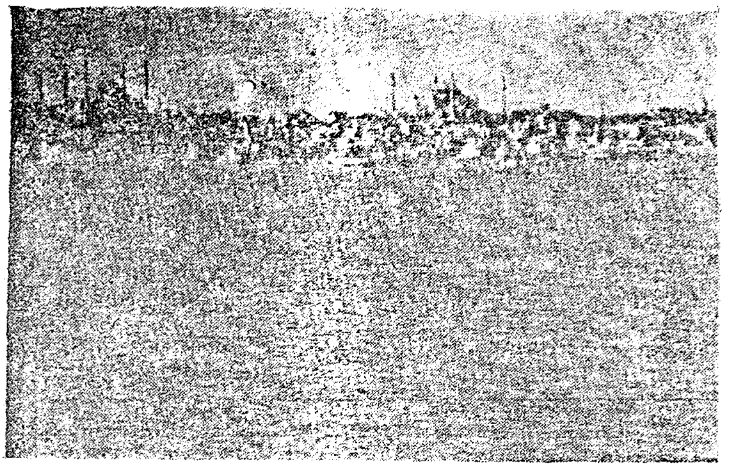
الكنيسة أثناء الحكم العثماني بعد إضافات معمارية تركية



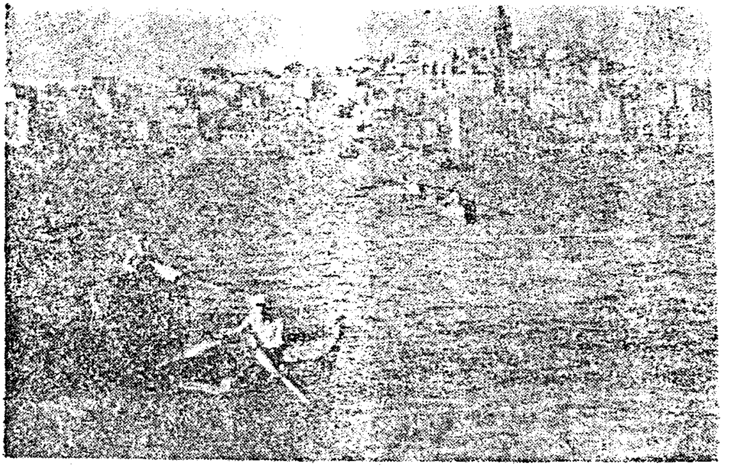
قلعة روملى هيسار التى بناها محمد الثانى ١٤٥٢



منظر لموقع القسطنطينية من البحر



القصر الإمبراطوري كما يبدو من بحر مرمرة



القرن الذهبي وقلعة غلطة ١٣٤٩ م

الفصل الأول

بيزنطة والترك إلى القرن الحادى عشر الميلادى

فى عام ٣١٣ م اعترف الامبراطور قنسطنطين فى مرسوم ميلان بالمسيحية كديانة مصرح بها وفى ٣٢٤ ، بعد انتصاره على خصمه ليسنيوس بدأ فى إنشاء عاصمته الجديدة على ضفاف البسفور والتى وصفت بسيدة الشرق وظلت تحمل اسم منشئها لأحد عشر قرنا . واتجاه الامبراطور إلى الشرق له دوافعه، فروما تمثل حضارة وتراث الوثنية القديمة وبها كثير من مؤيدى خصمه . فى حين أن الشرق به أعداد وافرة من المسيحيين إلى جانب كثافة سكانية ، وتوافر مصادر اقتصادية ، فلم يتعرض الشرق لما تعرض له الغرب من غزوات الشعوب المتبربرة .

كما أن موقع القسطنطينية الفريد أكسبها مناعة وحصانة طبيعية فلم تستطع أى قوى أو جيوش معادية طوال تاريخها اقتحام المدينة التى تحرسها الآلهة إلا مرتين الأولى على يد الحملة الصليبية الرابعة ١٢٠٤ م والثانية والأخيرة كانت جيوش محمد الثانى العثمانى فى ١٤٥٣ م تحولت بعدها إلى مدينة إسلامية. والمدينة على شكل مثلث غير متساوى الأضلاع يحيطها الماء من ثلاث جهات القرن الذهبى فى الشمال وبحر مرمرة فى الجنوب والبسفور فى الشرق يحيط بحر مرمرة بشواطىء أوربا وآسيا ، ويعتبر البسفور والدردنيل بوابتى القسطنطينية ومن يستطع السيطرة عليهما يغلقهما فى وجه أى أسطول معاد ويفتحهما فى وجه السفن التجارية، ولقد مكن موقع المدينة قسطنطين من الاحتفاظ بالولايات الشرقية حيث أن موقعها حال بين قبائل المتبربرين فى البحر الأسود وبين اقتحام هذا الحاجز المنيع ، إلى جانب أنه العاصمة تشغل مركزاً ممتازاً عند التقاء قارتين وتربط المواصلات بين آسية

وأوربا وكذلك بين البحرين الإيجى والأسود مما جعلها مركزاً تجارياً عالمياً ولقد أصبحت بيزنطة لمدة ألف عام مركزاً لحياة عقلية وحضارية وأسهمت بنصيب وافر فى التطور الحضارى والسياسى العالمى(١).

وبانشاء القسطنطينية ظهر إلى العالم ما يعرف بالدولة البيزنطية ورغم أن تعبير بيزنطة حديث يرجع إلى القرن الثامن عشر، فلقد ظلت بيزنطة فى نظر مواطنيها دولة رومانية فليس هناك حد فاصل واضح بين الامبراطورية الرومانية القديمة وبين الامبراطورية الرومانية التى اتخذت عاصمة لها القسطنطينية فى الشرق، فلقد ظلت خلال القرون الثلاث الأولى رومانية الطابع لاتينية الحضارة لها نفس الحدود السياسية للإمبراطورية الرومانية القديمة ونفس اللغة والتقاليد . ولكن ابتداء من القرن السادس بدأت تكتسب الطابع اليونانى لغة وحضارة واهتماما .

ولقد ورثت الامبراطورية الجديدة نفس الأخطار والمشاكل التى كانت تواجه الإمبراطورية الرومانية فأحاطت بها الشعوب المتبربرة من جميع الجهات فأحاط بها البربر فى غرب إفريقيا ، والجنوب الشرقى كان العرب وفى الشرق الفرس وفى الشمال الشرقى من جبال أورال شعوب أسيوية كالهون والمغول والترك وداخل الحدود الأوربية وجد السلاف والكلت .

وابتداء من القرن الرابع بدأت علاقة الإمبراطورية بتلك العناصر البربرية تدخل طوراً جديداً حيث دخلت معها فى صراع مباشر واتخذ الهجوم شكل غزوات منظمة هدفها الاستقرار فى أراضى الامبراطورية . وتعرض شطرا الإمبراطورية الشرقى والغربى للهجوم ولكن تفاوتت درجته ، فإذا كان الغرب قد خضع لغزاته فإن الشرق قاوم واستطاع الصمود أمامهم .

---

(١) Ostrogorsky History of the Byzantine state p41
John Hearsey, City of Constantine. p 2
Millingen Van · Byzantine Constantinople
Liddel. Byzantium and Istanbul p5

ولقد واجه الغرب أخطر تلك الغزوات متمثلة فى الغزو الجرمانى .
وعلاقة الإمبراطورية الرومانية بهم تعود إلى القرن الثانى الميلادى حيث
سالمهم الأباطرة الرومان ومنح أورليان القوط ٢٧٠ — ٢٧٢ أقليم
داشيا ، واستخدمتهم الامبراطورية كجنود وضباط فى الجيش الرومانى .

ولكن ابتداء من عام ٣٧٥م بدأ هجومهم يتخذ طابعاً جديداً وهو غزوة
عامة مكثفة بعد أن كان مجرد هجوم تقوم به جماعات وقبائل صغيرة متفرقة ،
وستستمر هذه الغزوات لمدة قرنين من الزمان استطاع خلالها الجرمان
الاستقرار وتكوين ممالك لهم فى الجزء الغربى من الإمبراطورية .

وفى عام ٤٧٦م سقطت روما فى يد أحد القادة الجرمان وهو أودواكر
ورغم اعترافه بالسلطان الأسمى للامبراطور زينون فإن الغرب منذ ذلك
الوقت بدأ يأخذ خطاً تاريخياً منفصلا عن الشرق ، ورغم محاولات
الامبراطور جستنيان فى القرن السادس استعادت الامبراطورية الرومانية
حدودها القديمة فإن نجاحه كان جزئياً[1]. وانهارت أغلب فتوحاته على يد
اللمبارد ثم الفرنجة . وبذلك أخذ الشطر الغربى ينسلخ تدريجياً عن جسم
الامبراطورية حتى استطاع ملك الفرنجة شارلمان الانفصال بالقسم الغربى
وإعلان نفسه إمبراطورا على الغرب فى ٢٥ ديسمبر سنة ٨٠٠ م واضطرت
بيزنطة فى عهد ميخائيل الأول رانجابيه فى سنة ٨١٢ م إلى الاعتراف
بالأمر الواقع[2] .

أما الجزء الشرقى من الامبراطورية فكان الوضع يختلف عنه فى الغرب
تماماً ، فالشرق لديه القدرة على المقاومة والصمود بما فيه من سكان وموارد
اقتصادية إلى جانب أنه لم يتعرض للهجوم الجرمانى بنفس الحدة والعنف
الذى تعرض له الغرب . فاستطاع الشرق التصدى له واستيعابه .

(١) أنظر Diehl : Justinian
(٢) Bury . History of the Later Roman Empire Vol I p 69
Bury . Eastren Roman Empire p325

ولكن الشرق تعرض لأخطار أخرى على حدوده الشرقية والشمالية يتمثل أولها في الفرس العدو التقليدى للرومان . فالدولتان تشتركان فى الحدود الشرقية وكانت منطقة آسيا الصغرى الخاضعة سياسيا ودينيا لبيزنطة تمثل منطقة صراع بين الدولتين .

وابتداء من القرن الرابع تعرضت لهجوم الفرس الدائم فاجتاحتها الجيوش الفارسية فى طريقها إلى قلب الأراضى البيزنطية[١] . وفى هذه المنطقة وعلى حدودها وجدت عدد من الشعوب والقبائل التى يغلب عليها طابع البداوة. وكانت تنضم أثناء ذلك الصراع إلى أحد الأطراف وفقاً لما تمليه مصلحتها .

ولقد استمر الصراع البيزنطى الفارسى يمثل أهم مشاكل الامبراطورية إلى القرن السابع الميلادى أى إلى أن سقطت فارس فى يد العرب . فورثه العرب دور فارس كعدو تقليدى لبيزنطة ، وخاصة بعد انتزاعهم أغنى ولايات بيزنطة الشرقية مصر وسوريا وتوغلهم فى آسيا الصغرى . وأصبح الصراع البيزنطى الإسلامى يمثل محوراً أساسياً فى تاريخ بيزنطة ، ولقد حاصرت الأساطيل الإسلامية القسطنطينية عدة مرات فى عهد قنسطنطين الرابع فى (٦٧٣ – ٦٧٩) وفى عهد ليو ٧١٧ – ٧١٨ م[٢] .

ولم يكن الفرس إبان العصر الساسانى (٢٢٤ – ٦٥١) العدو الوحيد الذى واجه الامبراطورية الشرقية بل كان هناك عدد من الشعوب المتبربرة التى أحاطت بالامبراطورية وخاصة على الحدود الشمالية فى البلقان[٣] . وفى البداية لم يكن

---

(١) حددت الحدود الشرقية للامبراطورية فى القرن الرابع وفق معاهدتين وعثلها خط يمتد من حدود كولخيس على البحر الأسود إلى الفرات .

Bury History of the Later Roman Empire Vol I p93

Chapot La Frontiere de l Euphrate p163

(٢) Hearsey City of Constantine p2

(٣) Bury History of the Later Roman Empire vol I p265

خطر تلك العناصر واضحا لأنها كانت متفرقة . ولكن مع مرور الوقت بدأت تلك العناصر تستقر فى جسم الإمبراطورية فى البلقان . ومن هناك أخذت تتوسع فى جميع الاتجاهات . وفى فترة ضعف الإمبراطورية بدأ خطرها يصبح ملموسا [1] .

ووجود الشعوب المتبربرة على الحدود الشمالية يرجع لفترة متأخرة سابقة لقيام الإمبراطورية الرومانية فقد كانت منطقة الاستبس فى جنوب روسيا موطن عدد من الشعوب الآسيوية التى هاجرت أصلا من آسيا الوسطى [2] وقد قامت فى القرن السابع ق م مجموعة من المستعمرات الإغريقية على شاطىء البحر الأسود وهى مستعمرات Chersonesus, Theodosia, Panticapaeum, Olbia, Tyras وكانت تلك المستعمرات على صلة بمجموعة الشعوب المتبربرة التى تعيش فى هضاب روسيا وعرفوا باسم Saramatians, Scythians وإلى الشمال الغربى منهم كان السلاف والفن Finn ولقد مارست تلك الشعوب فى البداية نوعا من الضغط على المستعمرات اليونانية وأجبروها فى فترة من الفترات على دفع جزية .

وفى القرن الثانى والثالث الميلادى اندفعت هجرات جديدة إلى شمال البحر الأسود والجزء الغربى من الاستبس احتلته القبائل الجرمانية وخاصة القوط والجزء الشرقى احتله الهون الآسيويون . ولقد ظلت مملكة القوط لفترة قرنين فى الهضاب جنوب روسيا وفى مناطق على حدود البحر الأسود ودخل القوط أراضى الإمبراطورية البيزنطية فى البلقان واشتبكوا فى صراع معها [3] ، وفى ٣٧٥ م اختفى القوط من شواطىء البحر الأسود

---

(١) بالنسبة للجرمان أنظر Tactitus : The Germans trans bredribb

(٢) Camb, Med Hist, Vol 2 p 323

(٣) Ostrogorsky, op, cit, p 47

إلى البحر الأسود واحتلوا الأراضى شمال غرب البحر الأسود وجنوب روسيا ومولدافيا ثم اتجهوا للمجر ، وابتداء من القرن التاسع بدأت صلتهم ببيزنطية .

Kajar : أحد الشعوب التركية التى ورد ذكرها فى الحوليات البيزنطية واحتلوا الأراضى المنخفضة فى سالونيكا وطردوا السلاف من شواطىء الفستولا .

الغز : كان الغز أحد العشائر التى كونت إمبراطورية القرن السادس وبعد انهيارها فى القرن الثامن تفرقت قبائل الغز فى اتجاهات مختلفة ، وفى أواخر القرن التاسع وبداية القرن العاشر اتجهوا إلى مناطق الأورال والفولجا . وابتداء من القرن العاشر اعتادت الوثائق البيزنطية أن تشير إليهم كأعداء [١] وذكر جغرافيو العرب أن بعض العشائر اتجهت إلى الأراضى المتاخمة المسلمين وانتشروا بين بحر الخزر إلى أواسط مجرى سيرداريا حيث اعتنقوا الإسلام . فى القرن العاشر . والسلاجقة أحد أفرع الغز [٢] :

ورغم أن جميع تلك الشعوب تنتمى إلى أصل تركى فإن ورود لفظ ترك فى الحوليات البيزنطية لأول مرة يعود إلى القرن السادس الميلادى [٣] وهذا يحتم معرفة أصل ذلك الشعب الذى قدر له أن يلعب دوراً كبيراً فى تاريخ المنطقة بل العالم .

الترك : أحد الشعوب البدوية التى عاشت فى آسيا الوسطى والتى تنتمى إلى الجنس ural - Altaic فى المنطقة التى تمتد من الخليج الفارسى إلى جبال Khir - gan وتنقسم إلى إقليمين بواسطة سلسلة هضاب البامير وتيان شان

---

(١) Baldwin. The Crusades. Vol I p 186

(٢) بارتولد : تاريخ الترك فى آسيا الوسطى ص ١٠٤

الراوندى : راحة الصدور ص ١٤٥

(٣) Vasiliev : op. cit. p170

وهى نفس موطن كل من الشعبين المغولى والصينى، ومن الصعب تحديد الزمن الذى ظهر فيه الترك لأول مرة لأنهم لم يدونوا تاريخا بلغة تركية فى الفترة الأولى . فنقوش آرخون التى تعتبر أول ما دون بلغة تركية تحدثت عن الترك الذين كونوا أمبراطورية القرن السادس ، أما أول تاريخ تركى مدون فكان تاريخ العثمانيين، أما اعتمادنا فى الفترة السابقة للقرن السادس فهو على المصادر الصينية وكان الترك فى هذه الفترة عبارة عن قبائل بدوية رعوية تعيش على حدود الصين وفى مناطق الإستبس فى آسيا الوسطى ، حيث اعتادت عدد من القبائل أن تتجول معا بحثا عن المرعى فكانت قبائل المغول yurta إلى جانب الترك Romanian, Catun, Khatun, khatonaul تتجول معا ويرأسها أكبر أعضاء القبيلة سنا وأكثرهم امتلاكا للماشية، وفى المرحلة التالية خضعوا لحكم خان وكانت اللغة التركية آنذاك سائدة بين عدة عشائر تركية وهى Yakutish, Bashkirish, Nirghizlish, Uigurish, Tartarish وعدد آخر من قبائل الترك الجائلة . ويذكر طومسون أنهم من سلالة الهياطلة الذين عاشوا فى القرن الخامس . ولقد ذكرت المصادر العربية عدد من الأقوام التركية تبدأ بالبجناك فى جنوب روسيا ثم تنتشر حتى حدود الصين وتتكلم بلغات متشابهة إلا البلغار فى حوض الفلجا والخزر (٢) .

ووفقا للمصادر الصينية فإن أول مملكة تركية ظهرت فى القرن السادس كانت حليفة لأمبراطورية To - pa الصينية وكانت إمبراطورية To - pa قد انشقت عن الأمبراطورية الصينية الأم وكونت إمبراطورية مستقلة فى نفس الوقت الذى ثارت فيه عناصر Yuan - Yuan وهم الذين عرفوا فى أوربا فيما بعد باسم الآفار على سادتهم وحكامهم الصينيين وكونوا دول مستقلة ، وإن ظلت فترة تحت سيطرة إمبراطورية To - pa،

---

(١) لمزيد من التفاصيل عن الحياة الرعوية الأولى للترك Camb. Med. Hist. vol 1. P 333 .

،Constantine porphyrogentius: op. Cit p67 - 77

(٢) الطبرى تاريخ الطبرى ج ٧ ص ٣٢

ولقد استقرت بعض العشائر بالقرب من البحر الأسود ، أما بقية العشائر فهاجرت فى النصف الثانى من القرن السابع ، ولقد سبب البلغار ابتداء من القرن السادس للامبراطورية البيزنطية كثيرا من المشاكل فاضطر جستنيان لدفع جزية للبلغار Kutrigrs فى حين هاجم Utigurs المستعمرات البيزنطية على شاطىء البحر Cimmerian ولقد استعمل جستنيان وسائله الدبلوماسية عن طريق الإيقاع بين الشعبين إلى جانب إرساله حامية بيزنطية فى ٥٢٢ م أقامت على البسفور[١] .

الافار : وهم أيضا ليسوا عنصراً تركياً نقياً ، خضعوا لسيطرة الصين فترة ثم استقلوا واحتلوا أراضى السلاف الشرقيين فى جنوب روسيا ثم اتجهوا إلى بانونيا ومنها بدءوا التوسع فى البلقان وكذلك تعاونوا مع السلاف فى الهجوم على سالونيكا ووصل نفوذهم من الدون إلى الدنيبر والسهول فى الجنوب احتلها Dacian [٢] .

البلغار البيض - فى الشمال الشرقى للخزر بين نهر Volga - Arel وهم البلغار الذين ظلوا فى مواطنهم فى حين هاجر الباقون إلى البحر الأسود وهم ثلاث قبائل Bulger proper - Esegels - Barsuls .

الخزر : كون الخزر أول ولاية تركية منظمة استمرت للقرن الحادى عشر ، ففى بداية القرن السادس اجتاحوا أرمينيا وعبروا إلى القوقاز ومدوا نفوذهم إلى Araxes ثم اتجهوا إلى آسيا الصغرى حيث اشتبكوا مع الفرس وتعاونوا مع بيزنطة وأصبحوا حلفاء لها ، وهناك عنصر تركى آخر كان يدين بالتبعية للخزر وهم Burdas ولقد ذكر ابن رسته والمسعودى

---

(١) Diehl. justinien p 33
Vasiliev : The Byzantine Empire. p 196

(٢) Vasiliev : op cit. p 196

(٣) Caston Gillard : op cit. p. 3

أنهم يقيمون بجوار الخزر على نهر يحمل اسمهم وهاجموا أراضى البجناك والبلغار .

البجناك : بين نهر Dane, yaik كان عرهم السلاف وجنوبهم الخزر وشرقهم القفجاق والكومان وموطنهم الأصلى وفقا لرواية الامبراطور قسطنطين Porphyrogenitus استبس وسط آسيا ثم اتجهوا لجنوب روسيا واتخذوا طريقهم لوادى Tirrah وطردوا Magyar من أوطانهم بين الدون والدنيبر ثم اتجهوا إلى المجر ، ويرجع سبب هجرتهم إلى ضغط الغز الأتراك على حدودهم الغربية وقد احتل البنجاك مناطق واسعة على البحر الأسود وظلوا لفترة طويلة على وفاق مع بيزنطة وقاموا بالوساطة التجارية بينها وبين شعوب المنطقة وخاصة روسيا .

القفجاق : أطلق عليهم الروس اسم Polovtsy و بيون والبيزنطيون أسموهم Comans والعرب القفجاق وإن ذكروا عند الأدريسى تحت اسم القومان وهم فرع من شعب الكيماك التركى وكانوا يعيشون عند نهر إيرتيش ويشغلون الأراضى التى تقع شمال الغز . وتمتد غربا حتى نهر الفولجا أو نهر Kama ولم يظهروا كعنصر فعال فى تاريخ المنطقة ابتداء من القرن الحادى عشر حيث تردد ذكرهم فى الحوليات البيزنطية وكونوا أسرة حاكمة فى القرن الثانى عشر هاجمت الأراضى الإسلامية إلى أن أسلموا عام ١٠٤٣ م نتيجة لصلتهم بخوارزم (١) .

Magyar : ذكر Vambery أنهم سلالة تركية سكنت شمال شرق حدود الترك التتار وذكر ابن رسته أنهم يعيشون فى المنطقة التى بين قبائل البجناك فى الأورال وبين البلغار Penegelian وفى القرن التاسع هاجروا

(١) أورد عدد من مؤرخى وجغرافى العرب معلومات عن الترك وقبائلهم مثل المسعودى مروج الذهب ومعادن الجوهر وابن رسته . الاعلاق النفيسة .
الأصطخرى المسالك والممالك . ـ ابن حوقل المسالك والممالك ، الأدريسى أحسن التقاسيم فى معرفة الأقاليم .

اختلف العلماء في معنى الكلمة فالبعض يذكر أنه اسم لقبيلة مستقلة أو أسرة حاكمة . وذكر آخرون أن معناها القوة والأحكام ونقوش أرخون تذكره بمعنى قوم ومع ذلك فإن نقش أرخون وهو أقدم النقوش التركية لا يحدد تحديداً واضحاً القبائل التي تحمل اسم الترك. فلقد اتسع الاسم حتى شمل قبائل عديدة تتكلم التركية . كان الخان يسمى قومه « الترك » والغزو التغزز » ولقد ورد ذكر الأتراك في الحوليات البيزنطية ابتداء من القرن السادس إلى جانب شعوب تركية أخرى كالخزر والبجناك والغز والكومان حيث أفاضت في ذكر قبائلهم والممالك التي كونوها . وفي القرن العاشر ذكرهم الامبراطور قسطنطين بورفيروجنتيوس في مؤلفاته وأطلقت المصادر الروسية على قبائل الغز الذين اتصلت بهم اسم Torki[1]. وكان الأتراك الذين كونوا دولة القرن السادس ينقسمون إلى قبائل عدة، ففي الشرق يوجد ال لولوس، وأطارلوس وفي الغرب يوجد « توركش إلى جانب الغز وعدد من القبائل التركية الأخرى أشهر هؤلاء القارلوق ، الايغور ، القرغيز وبعض العناصر التركية التي تحررت من سلطان Yuan - Yuan اتجهت إلى غرب الاستبس في جنوب روسيا ثم إلى بانونيا وهؤلاء ما أطلق عليهم فيما بعد الآفار وهاجموا الامبراطورية في البلقان وسالونيكا . ولقد أطلق العرب في القرنين السابع والثامن كلمة الترك على أقوام ممن التقوا بهم[2] . وكانوا يتكلمون نفس اللغة التركية ، ونجد أن الأوربيين والروس في الأزمنة المتأخرة لم يطلقوا كلمة ترك إلا على السلاجقة والعثمانيين المنحدرين من الغز ولم يطلقوها على البجناك Polovtsy .

ولقد ارتبطت الإمبراطورية بتلك العناصر التركية بعلاقات تتراوح بين العداء السافر والمحالفة، وسنتناول العناصر التركية الخالصة التي ارتبطت

(١) Constantine : op cit,p.77

بارتولد : تاريخ الترك في آسيا الوسطى ص ١٠٩

(٢) الطبري تاريخ الطبري ج ٧ ص ٣٢ البلاذري : فتوح البلدان ج ٢ ص ٣ ٢

بالامبراطورية بصلات وهى الخزر والبجناك والكومان و Magyar ، الغز.

الخزر: أحد الشعوب التركية النشطة التى كونت مع بداية القرن السادس واحدة من الولايات التركية المنظمة التى استمرت حتى القرن الحادى عشر، وقد بدءوا استقرارهم فى المنطقة باجتياح أرمينيا ثم عبروا إلى القوقاز ومدوا نفوذهم إلى Araxes ثم آسيا الصغرى وبذلك بدأ صدامهم مع الفرس فأرسل إليهم الشاهنشاه الفارسى جيشا بلغ مقداره إثنا عشر ألف مقاتل، ولكن استطاع الأتراك الانتصار عليهم واحتلال الأراضى بين Araxes — Cyrus ثم احتلوا ألبانيا. واضطر قباذ أمام المد التركى ولتأمين حدوده الشمالية لمد سور من البحر إلى بوابة اللان وأقام به ثلاث قلاع قوية محصنة، وقام خليفته كسرى أنوشروان ٥٣١ — ٥٧٨ م بإقامة سور حاجز على الخليج الفارسى وسمى العرب المدينة القريبة منه باسم باب الأبواب وبالفارسية Darb nd وهذا الحاجز يسير إلى جبال القوقاز وبلغ طوله حوالى ١٧٠ ميلا ومع ذلك اتخذ الخزر طريقهم عبر الدربند إلى بلاد الفرس.

وفى الربع الأخير من القرن السادس أصبح الخزر جزء من الامبراطورية التركية التى كونها Tumen ، وبعد وفاة Tun en خلفه ابنه Sookin وباليونانية A-kin (٥٥٣ — ٥٦٩) وقد امتد نفوذه من أراضى Shamia إلى البحر الغربى ومن حوض نهر Tarem إلى قرب نهر Kem أونيس ، ولقد امتدت حدود الإمبراطورية فى عهد خليفته Khagan Dizatul بالتركية Sinjibu ولقد ظل الخزر على ولائهم طالما كانت الدول التركية قوية (١).

وقد أصبح الفرس العدو الأول للتوسع التركى، وبما أن الفرس العدو التقليدى لبيزنطة كان من الطبيعى أن يتحدا ضد العدو المشترك (٢) وأرسل

---

(١) Vasiliev op. cit. p. 197

Ostrogorsky : op. cit p. 73

(٢) قمبرى : تاريخ بخارى ص ٤٩

خان الترك Se - kin فى سنة ٥٦٣ م . أثناء حكم جستنيان الأول سفارة بيزنطة لإجراء تحالف ، وفى عهد جستين الثانى أرسلت سفارة أخرى فى سنة ٥٦٨ م وهى التى وردت فى الحوليات البيزنطية وذكر فيها اسم الترك لأول مرة وأرسل الترك مبعوثين من قبلهم عبر القوقاز حيث استقبلوا استقبالا حافلا من البيزنطيين ووضعت الخطط لإقامة تحالف تركى بيزنطى ضد فارس [١] .

وهذه المعاهدة تضمنت إجراء تحالف فى حالتى الهجوم والدفاع واقترحت السفارة التركية على الحكومة البيزنطية أن يقوم الترك بدور الوسيط فى تجارة الحرير بين بيزنطة والصين وبذلك يمتنع تدخل الفرس، وهذا ما كان يسعى جستنيان من قبل إلى تحقيقه . إنما الاختلاف الوحيد بين الجانبين هو أن جستنيان كان يرجو تحقيق ذلك باستخدام الطريق البحرى فى الجنوب [٢] ، وبفضل مساعدة الأحباش . على حين أن الترك اقترحوا الطريق البحرى الشمالى على أن المفاوضة لم تؤدى إلى إقامة تحالف حقيقى ضد الفرس لأنه حدث فى أواخر الستينيات من القرن السادس أن انصرفت الإمبراطورية البيزنطية إلى ما حدث من تطورات فى الغرب لا سيما فى إيطاليا ، حيث هاجمها اللومبارديون ، إلى جانب أن جستين رأى أن ما لدى الترك من القوة الحربية لا يكفى لتحقيق الغرض، ومع ذلك فقد أرسل سنة ٥٦٩ م Zamarchus مندوبا عنه إلى الترك وسار من قليقيا إلى موسط آسيا .

وفى سنة ٥٧٩ م أرسل البيزنطيون سفارة أخرى بمادة Valentius

---

(١) Vasiliev : op. cit. p 170

Bury : op. cit. vol I p 91

(٢) عن السفارة أنظر Diehl jostinien Chapot : la frontière de L. Euphrate

مطلبرى: تاريخ بخارى ص ٤٨ .

الذى أعلنهم بتولى الإمبراطور الجديد تيبريوس الثانى العرش وقام فالنتيان برحلة ثانية صحبه فيها ١٠٢ من الترك ، ولقد وجد فى العاصمة البيزنطية بعض الأتراك وهؤلاء هم الأفراد الذين صحبوا السفارات البيزنطية السابقة أثناء عودتها . ووصل فالنتيان إلى عرش خان الخزر فى Turxunth فى الاستبس بين الفولجا والقوقاز وبما أن خان الخزر يعتبر تابعاً للخان الأكبر فتقرر أن يذهب فالنتيان إلى خان الترك ، ولكن أثناء وجوده فى بلادهم قام عدد من الترك بمهاجمة مدن كريميا وساعدهم Anagey أمير Utigius .

ورغم أن التحالف مع بيزنطة ضد الفرس لم يأت بنتائج إيجابية فقد ظلت علاقاتهم ببيزنطة ودية[1] . وقد استفاد الترك من الصراع البيزنطى الساسانى[2] فقد كان الساسانيين كما كان الأكمينين من قبلهم لا يستطيعون وهم يخوضون غمار الحرب مع بيزنطة أن يحافظوا على حدودهم فى الشرق فافاد الترك من هذا الوضع فسلبوهم حوض نهر جرجان الذى يصب حاليا فى بحر الخرز ولكن هذا أدى إلى نتيجة هامة فإذا كان الفرس لم يحققوا نصراً عسكرياً ، فقد انتشر نفوذهم الحضارى . وكان تأثير المدنية الفارسية بدأ يحل محل المدنية الهندية فى وسط آسيا وخاصة لأن الفرس كانوا يسيطرون على طرق التجارة العالمية ويتحكمون فى نقل الحرير إلى الصين وباستقرار الأتراك فى أراضى فارسية . امتد تأثير المدنية الإيرانية ودخل بعضهم الديانة الزرادشتيه ، ويدل هذا على أن فارس كانت تؤثر بمدنيتها وإقتصادها على جيرانها دون أن تنتصر عليهم عسكرياً[2] .

ولكن إمبراطورية الترك بدأ يدب إليها الضعف فى عهد خلفاء Sinjibu ومع أن الخان الأكبر استطاع سنه ٥٩٧ م أن يخضع الثورات التى قامت ضده بمساعدة ثلاث خانات تابعين له . إلا أن قبائل الخزر التركية بين

(١) عن العلاقات البيزنطية الفارسية ارجع
Ammianus Marcellinus : trans. Bayles

(٢) ناصرى تاريخ غازى ص ٤٣

الفولجا والخليج الفارسى استطاعت أن تتحرر من قوة الدولة التركية عند بداية القرن السابع . وقد بلغت إمبراطورية الخزر أقصى اتساع لها من القرن السابع إلى التاسع ، ولقد ترتب أيضاً على ضعف دولة الأتراك أن خانات الترك الحاكمين فى الغرب أصبحوا مستقلين استقلالا تاما وكان أتراك الغرب يشملون التركمان فى فارس وروسيا، والافجيم Afghem فى تركستان وأذربيجان(١) .

ولقد أصبح من حق خاناتهم أن يعقدوا المعاهدات دون أن يراجعوا فى ذلك الخاقان الأكبر باش خان المقيم فى الشرق(٢) ، ورغم أن دولة الأتراك فى الغرب Toukine لم تكن تبلغ فى أواخر أيامها درجة المغول إلا أنها كانت تتصل ثقافياً بالخارج وكانت واسطة لاتصال حضارة الشرق الأقصى بحضارة غرب آسيا .

ولقد استغل الخزر ضعف الدولة التركية واتجهوا بنفوذهم إلى البحر الأسود وحاولوا الاستيلاء على كرميان البيزنطية واصطدموا بالبلغار ، حلفاء بيزنطة . فمع بداية القرن السابع اعتنق سيد الهون Organas سنة ٦١٩ م المسيحية . وكذلك فعل خان البلغار بعد أن حرر نفسه من سيطرة الآفار ، ولكن عند وفاة خان البلغار أجبرهم الخزر على الاعتراف بسلطانهم، فساءت علاقتهم ببيزنطة .

وبظهور العرب فى القرن السابع وقيام الخلافة الإسلامية بالقضاء على الإمبراطورية الفارسية . كان من الطبيعى أن يستمر تحالفهم مع بيزنطة لمواجهة الخطر المشترك بالرغم من مصالحهم المتعارضة فى Crimean ، وخاصة بعد أن قامت الجيوش العربية — زمن الخليفة عثمان

(١) Gaston Gillard : op. cit. p. 4 .

(٢) Dunlopé - The History of jewish Khazars p 172

يذكر فامبرى أن التعبير الصحيح خان بالق فامبرى ص ٤٨

باجتياح أراضى أرمينيا وأخذ جزءا من أراضى الخزر . وفى سنة ٦٩٠ م اشتبك العرب مع الخزر ، وقتل آلاف منهم ، وعبر العرب بوابة الخليج الفارسى وحكموا فى القرن الثامن Crimea وكانت المدينة الوحيدة التى قاومتهم خرسون ولكنها مالبثت أن سقطت بعد فترة قصيرة(١) .

وفى عهد جستنيان الثانى ٦٨٥ — ٦٩٥ م طرأ تغيير على العلاقات البيزنطية الخزرية نتيجة للصراع على العرش البيزنطى فبعد خلع جستنيان الثانى آخر أفراد أسرة هرقل سنة ٦٩٨ م لجأ إلى Daras فى كريميا وأرسل لخان الخزرى Vasi يستنجد به واستقبله الخان استقبالا طيبا وزوجه أخته ثيودورا ، وأقام جستنيان فى Tamatach التى تخص الخزر ، ولكن الامبراطور تيبريوس أسبار طلب من الخان تسليمه ،فاستجاب الخان لطلبه حرصا على علاقاته الطيبة مع بيزنطة . ولكن ثيودورا حذرت زوجها فهرب فى الوقت المناسب إلى شواطىء البحر الاسود وتلى ذلك استعادته لعرشه وبمجرد اعتلائه العرش أرسل فى استدعاء زوجته الخزرية وابنه منها الذى كان قد ولد بعد هروب والده وأطلق على الطفل اسم تيبريوس وعين كامبراطور مشارك ولكن لم يقدر له الحكم فقد قتل مع والده نتيجة لثورة، فقد قرر الامبراطور معاقبة الخزر لاستيلائهم على خرسون وأرسل أسطوله ثلاث مرات لاستعادة المدينة . وحقق الجيش البيزنطى نجاحا محدودا ،ولكن جيش الخزر اضطره لرفع الحصار على المدينة التى ظلت فى أيديهم إلى عهد ثيوفيل(٢) .

وخوفا من انتقام الامبراطور أعلن الجيش والاسطول الثورة والتى انتهت

بقصر عه

---

(1) Dunlop , op Cit - p 112 / 175

(2) Vasiliev : op Cit p255

(3) Ostrogorsky . op Cit p128

(4) Dunlop . op. Cit p174

وما لبثت العلاقات أن عادت إلى طبيعتها الأولى حتى أن ليو الايسورى طلب من خان الخزر ابنته كزوجة لابنه قسطنطين وبعد اعتناقها المسيحية سميت إيرين وابنها ليو الذى أصبح يحمل اسم الخزرى حكم الامبراطورية ٧٧٥م وفى عهـــده جعل الخزر منطقة سفرية تسمى Tait zakas .

وفى القرن الثامن حدث صراع بين الخزر والعرب دمرت نتيجة له أراضى جورجيا وارمينيا ، والغريب أن مؤرخى العرب لم يذكروا الخزر إلا قبل النصف الثانى من القرن التاسع ؛ وفى ٧٩٩ م اجتاح الخزر اراضى ارمينيا بجيش كبير ولكن الخليفة هارون الرشيد استطاع طردهم وكانت هذه آخر مرة تجتاح جيوش الخزر أراضى جنوب القوقاز وآسيا الصغرى ، ورغم عدائهم للعناصر الإسلامية فإن الفرق الرئيسية من الجيش الخزرى والمسماة قراسيا كانت تتكون من حوالى ١٢ ألف مقاتل وأغلبهم من مسلمى خوارزم ولقد ظل الخزر حلفاء أوفياء لبيزنطة إلى سقوط دولتهم على يد برتسلاف الروسى فى القرن الحادى عشر .

ورغم صلتهم ببيزنطة فإن المسيحية لم تنتشر فى بلادهم على نطاق واسع فقد انتشرت انتشارا محدودا فى كل من القوقاز و Crimea ، ولكن العقيدة التى كانت لها الغالبة كانت اليهودية وحتى الإسلام لم يلقى استجابة وانتشار بينهم رغم وصول دعاته فى النصف الثانى من القرن العاشر (١) .

البجناك : Patzinak وذكرتهم المصادر الصينية فى الفترة الأولى تحت اسم Kang -li واطلق عليهم العرب اسم البجنك وذكرهم قسطنطين

---

(١) فى عهد ميخائيل الثامن ٦٨٠م ارسل ملك الخزر يطلب من الامبراطوران يبعث اليه بأشخاص يقومون بشرح العقيدة المسيحية فارسل بعثة تبشيرية يقودها كاهن يسمى قسطنطين وقابلت خان الخزر فى سمندر ورغم جهود قسطنطين واتباعه فلم يحرز نجاحا .

الباز العرينى : الدولة البيزنطية ص ٢٦٨

Porphrogoonitius في كتابة De Administrand Imperio الذى الفه فى القرن العاشر . وتحدث فيه عن إدارة الامبراطورية مع دراسة الجغرافية البلاد الأجنبية والعلاقات التى تربط بيزنطة بالأمم المجاورة واستهل هذا الكتاب بفصل عن الأقوام التى تجاور بيزنطة من جهة الشمال كالبجناك والروس ، والغزو والخزر . ولقد ذكر قسطنطين انهم هاجروا من وسط آسيا إلى جنوب روسيا فى المنطقة بين الفولجا والأورال ومع بداية القرن التاسع طردوا magyer من أوطانهم بين الدون والدنيبر وتحت ضغط قبائل الغز اتجهوا إلى الغرب ، واحتلوا أراضى السلاف فى شمال غرب البحر الأسود وان كانت بعض قبائل منهم بقيت وخضعت لسيطرة الغز ومن موطنهم الجديد هاجموا Crimea البيزنطية ، فرأت بيزنطة أن تستغل تلك الهجرة لصالحها وفى نفس الوقت تمنعهم من التوسع على حساب أراضيها فعقدت محالفة معهم ضد اعدائها من الروس والبلغار ولم يقتصر التحالف على الجانب السياسى بل تعداه إلى الجانب الاقتصادى نقام البجناك بدور الوسيط التجارى بين خرسون البيزنطية وبين الروس والخزر (٢) :

ولكن منذ القرن العشرون العاشر بدأ الوضع بين الطرفين يختلف وساءت العلاقة نتيجة لتحالف البجناك مع الروس (٣) فتذكر الحوليات الروسية فى عام ٩٤١ م تحالف البجناك مع الامير الروسى ايجور ضد بيزنطة حيث حشد جيشا من عناصر مختلفة كالورنك والروس والبولياني والصقالبة والبجناك واضطر رومانوس ليكابنيوس الا أن يعرض عليهم دفع جزية إلا أنهم رفضوا ، ولكن البيزنطيون استطاعوا الانتصار عليهم واجبار

---

(١) Camb. Med. Hist. Vol 4 P 205

(٢) Vasiliev op. cit p323

(٣) Ramboud op. cit p 378

الجيش الروسى وحلفائه على التراجع وتوقيع معاهدة صلح تعهد فيها الطرفان بعدم الإعتداء وتجدد التحالف الروسى البجناكى فى عهد زمسكيس سنة ٩٧٠ م وأحرز القائد بارداس نصرا عليهم ووقعت أعداد كبيرة من البجناك فى يده وهزم الروس فى أدرنة(١) .

وفى عهد باسيل الثانى ٩٧٦ — ١٠٢٥ م تجاورت أراضى البجناك والامبراطورية نتيجة لإخضاع بيزنطه لبلغاريا ولضغط الكومان عليهم ، ولقد رفض البجناك معاونة قيصر البلغار أثناء صراعه مع بيزنطه خوفا من تعرضهم لغضب الامبراطور ، وإن كانوا قد حاولوا فى عهد خليفته قنسطنطين الثانى الهجوم على الأراضى البلغارية ، ولكن الدوق البيزنطى لبلغاريا قنسطنطين ديوجين أنزل بهم هزيمة ساحقة(٢) ورغم ذلك فإن البجناك حتى منتصف القرن الحادى عشر لم يمثلوا خطر مباشرا على الامبراطوريه .

Magyer : ـ عنصر تركى آخر تداخلت أراضيه مع البجناك فى الأورال وذكر Vambery أنهم سلالة تركية وذكرتهم المراجع البيزنطية تحت اسم الترك والمصادر العربية . أطلقت عليهم ماجوريان وذكر ابن رسته أن مساكنهم الأصلية بين البجنك الذين يعيشون فى شكل قبائل فى الأورال وبين البلغار فى أرض البشكير Bashker . ومع بداية القرن التاسع هاجروا إلى شواطىء البحر الأسود وسكنوا شمال شرق حدود الترك التتار . واتجهت عدة عشائر منهم فى فترة سابقة إلى الأراضى الفارسية ولقد احتل Magyer فى البداية المنطقة

---

(١) Ostrogersky op . cit p262

Camb. Med . Hist. vol 1, p205

(٢) Baldwin The Crusades vol 186

بين الدون والدنيبر التي كانت جزءا من أراضى الخزر واختلطت عناصر منهم بالخزر ولكن طردهم البجناك فواصلوا الهجرة إلى الأراضى شمال غرب البحر الأسود ووصلوا لجنوب روسيا ومولدافيا، ثم اتجهوا للمجر وتحالف معهم الامبراطور ليو سنة ٨٩٤ م ضد البلغار(١).

ولقد اتجهت عناصر منهم إلى إيطاليا ٨٦٩ م ثم اجتاحوا موافيا وبافاريا ولكن هزموا. وفى نفس الوقت اجتاحوا ترافيا وتحالفوا مع البنجاك ووصلوا لأبواب القسطنطنيه . ولقد طلبوا جزية من بيزنطه، وفى ٩٣٤ م اضطر الامبراطور رومانوس ليكابونيس Romanus Lecapenus إلى إرسال الشريف Theophanes إليهم لعقد معاهدة لمدة خمس سنوات وحاولت بيزنطه كسبهم كحلفاء ضد البجناك(٢) ولكنهم اجتاحوا البلقان من ٩٥٨ - ٩٦٢ م . وفى ٩٦٧م انضمت مجموعة منهم إلى الأمير الروسى Sujotoslav فى حربه ضد البلغار ولكن انتصر عليهم حاكم البلغار(٣) Tearsimon . وما لبث أن احتل البجناك أراضيهم على البحر الاسود فاتجهوا إلى المجر حيث اعتنقوا المسيحية فى ٩٧١ م .

القفجاق : - فرع من الكيمال الاتراك هاجروا من آسيا الوسطى إلى المنطقة التى تمتد من نهر إرتيش إلى نهر الفولجا ونهر Kama ولقد أطلق عليهم البيزنطيون اسم Comane وابتدأ من القرن الحادى عشر بدأت هجرتهم الكبرى فاندفعوا إلى أراضى الغز الذين اضطروا تحت ضغط القفجاق عليهم فى الشمال إلى إتجاه نحو جنوب والغرب واستولى القفجاق

---

(١) Camb . Med . Hist vol 4 p205

(٢) Rambaud : op. cit p . 332

(٣) Camb . Med . Hist vol [illegible]

على الاراضى التى تركها الغز فى حوض نهر سيحون بعد هجرتهم إلى أراضى البجناك فى جنوب روسيا ودخلت مناطق الإستبس فى نفوذهم وأطلق عليهم الروس لقب Polovtsy ولم يكن القفجان وحدة سياسية متحدة بل كانوا وحدات متفرقة يرأس كل منها خان وفى القرن الثانى بدأت الحوليات البيزنطية تردد اسم الكومان كاعداء ولكن لم يشكلوا خطرا حقيقا ، وفى نفس الوقت هاجم القفجاق المسلمين حتى اضطر المسلمون للاتحاد والكرج لصد غزواتهم واستطاعوا الاستيلاء لفترة على دربند وشابه ران ولكن نتيجة لصلة القفجان بالخوارزمين وتأثرهم بالمدنية الإسلامية فان أعدادكبيرة منهم دخلت الإسلام فى النصف الثانى من القرن الثانى عشر [1].

الغز : ـ أحد الشعوب التركية التى هاجرت من أواسط آسيا وخضع الغز للصين ثم استقلوا عنها وانضموا إلى أمبراطورية Tames [2]. ويقال أن خانات الاتراك الغربيين كانوا من الغز ومع ذلك فإنهم دخلوا فى صراع مع أتباعهم من القبائل الغزية التى كانت دائمة الثورة [3] ومع انهيار دولة الاتراك فى القرن الثامن تفرقت قبائل الغز فى الجهات مختلفة فاتجه بعضها وفقا لرواية قنسطنطين بورفوجنيتوس فى أواخر القرن التاسع وبداية العاشر إلى مناطق الاورال والفولجا حيث طردوا البجناك واحتلوا تلك المناطق وفى هذه الفترة بدأت صلتهم بالروس بعد عبورهم الفولجا لجنوب روسيا وأطلقت عليهم المصادر الروسية Torki ومنذ القرن العاشر اعتادت الوثائق البيزنطية أن تشير إليهم كاعداء اعتادوا الإغارة على أراضيها رغم دخول بعضهم فى الفرق الامبراطورية واعتناق عدد منهم المسيحية وفقا

---

(١) Rambaud ; op . cit p. 382

(٢) Camb .Med .Hist vol4- p185

(٣) بارتولد : تاريخ الترك فى آسيا الوسطى ص ١٠٢

لمذهب الأرثوذكسى ويقال أن الغز فى الفترة الأولى من تاريخهم أثناء خضوعهم للصين تأثروا بالديانة البوذية ولقد اتجهت عشائر من الغز إلى الأراضى المتاخمة للحدود الإسلامية حيث التقى بهم جغرافيو العرب فى القرن العاشر ،ولقد ذكرت المصادر الصينيةأن الغز المقيمين غربا ينقسموا عشرقبائل وأن خمسا من قبائلهم شمال نهر ايلة وخمسا فى جنوبه ولقد تجاورت الأراضى الإسلامية مع أراضى الغز حتىأن ثلاث مدن تركية من الخاضعة لسلطان الغز أسفل نهر جيحون وهى جند،خواره ، ينغى كنت قد اعتنقت الإسلام ، ولقد اشتبك الغز مع المسلمون عند نهر سيرداريا وكانت الغلبة للجانب الإسلامى ،فاحتل القارلوق محل الغز عند ضفتى نهر جو ٧٦٦م ولكن فى القرن العاشر بدأت أعداد كبيرة من الغز المقيمين عند نهر سيرداريا تدخل الإسلام نتيجة لصلتهم بالخوارزمين وقام الغز المسلمون بمقاتلة من يجاورهم من الممالك التركية الوثنية . . والغريب أن المسيحية وصلت أيضا إلى بعض قبائل الغز لاعتناق بعض أهل خوارزم المسيحية نتيجة لصلتهم بالخزر ولقد وصلت المسيحية لبعض المدن التركية منذ القرن الرابـــع الميلادى فحينما ذهب الأمير إسماعيل السامانى فى محرم ٢٨٠ هـ ٨٩٣ م لفتح طراز (طالاس) وجد أن جميع أهلها وأميرها يعتنقون المسيحية على المذاهب النسطورى ويقال أن المسيحية انتشرت فى المنطقة منذ القرن الرابع الميلادى [٢] .

ولكن فى بداية القرن الحادى عشر عبر فرع آخر من الغز الدانوب سنة ١٠٦٥ م وكانت تلك العشائر قد تجمعت فى شكل هجرة شاملة فبلغ عدد مقاتليهم ستمائة الف مقاتل ، وهذه الهجرة اتخذت وجهتها إلى الأراضى

---

(١) بارتولد : تاريخ الترك فى آسيا الوسطى ص ١٠١ ـ ١٠٣

(٢) النرشخى تاريخ بخارى تحقيق عبد المجيد بدوى ص ١١٧

البيزنطية وذكرتهم المصادر البيزنطية تحت اسم Ozes ولم ينضم هؤلاء الغز إلى اخوانهم البجناك ، بل بدؤا فى محاربتهم فهاجروا البجناك إلى شبه جزيرة البلقان وتبعهم الغز هناك حتى التقوا بالقوات الأمبراطورية وهزموها واسروا إثنين من قادتها Bataniate , APoxapes وذلك فى عهد قسطنطين دوكاس تلى ذلك انقسام العشائر إلى عدة أقسام اتجهت جماعة منها إلى سالونيك وبلاد اليونان ولم يستطع الامبراطور مراجهتهم لانشغاله فى عدة جبهات فى الغرب أو آسيا الصغرى حيث الترك السلاجقة [1] فحاول استمالة رؤساء تلك العشائر ومنحهم الهدايا ودعوتهم لعاصمته لم تجدى تلك الوسائل بل كشفت عن عجز الامبراطورية فقرر الامبراطور الخروج بنفسه، ولكن انقذت الامبراطورية بسبب عامل خارجى لم يكن لها به دخل ، فالترك لم يحتملوا البرد القارس فانتشرت بينهم المجاعة والأمراض [2]، إلى جانب أن البلغار قتلوا عدداً كبير منهم وخضعت جماعات غزية لبيزنطية فانزلوهم بمقدونيا كيما يفلحوا الأرض ويمدوا الجيش بالجند أى طبقوا عليهم نظام Themes حيث يمنح الجند مساحات من الأراضى فى مقابل الخدمة العسكرية [3].

وحظى قادتهم بكل رعاية من بيزنطة . ولقد دخلت فرق منهم إلى الجيش كمتطوعين وهذا يوضح أن جيش الامبراطور رومانوس ديجانيوس الذى خاض به معركة ملاذ كرد كان به عدد كبير من الغز .

وفى عام ١٩٧٣ م عاد الغز مع البجناك لمهاجمة الامبراطورية فانضموا لنيستور حاكم الدانوب الثائر على الامبراطور ميخائيل السابع

---

(١) Baldwin · op. cit vol 1 p187

(٢) Baldwin op. cit vol I p 187

(٣) Ostrogorsky op. cit. p 301 — 303

ولكن عند اقتراب المغتصب من القسطنطينية تخلوا عنه[١] .

ولقد استغل الغز والبجناك النزاع على العرش بعد عزل ميخائيل السابع لنهب أراضى الامبراطورية وتخريبها فى البلقان والأناضول وكان كلا الفرقاء يسعى لضمهم إلى جانبه مما أتاح لهم فرصة اضفاء الشرعية على ارتيادهم لأراضى بيزنطه وانتهى الأمر بعقد صلح بينهم وبين الامبراطور نقفور بوتانياتس ولكن أخطر العناصر الغزية كانت تلك التى اتجهت إلى الجانب الإسلامى فى الغرب ، واعتنقت الإسلام وقامت بمهاجمة أراضى بيزنطه بل اقتطاع آسيا الصغرى ونقصد بها السلاجقة[٢] .

ولم تكن صلة بيزنطه بالشعوب التركية قائمة على المخالفة أو العداء فقط بل استطاعت الامبراطورية الإستفادة من تلك العناصر باستخدامهم كمقاتلين وجنود فى جيوشها ، كما حدث مع الغز وتوطنيهم فى مقدونيا . وكذلك مع قبائل التبنشجير والكومان الذين دخلوا الفرق الامبراطورية وسنلاحظ أن الجيوش البيزنطية ابتداء من القرن العاشر تحوى مقاتلين من الكومان والغز والبجناك ولقد اتخذ بعضهم مساكن دائمة فى ولاية الأناتوليك « الأناضول » واعتنق المسيحية ، بل إن المسيحية وصلت إلى موطن الترك فى آسيا الوسطى ، ووفق رواية البيرونى وهو من علماء القرن الحادى عشر يذكر أن عددا من القبائل التركية اعتنق المسيحية على المذهب الأرثوذكسى واستخدمت بعض قبائلهم الأبجدية السريانية . وقد اعتنق

---

(١) Baldwin : The Crusades vol I p136

(٢) Ostrogorsky . op. cit p313 حكم نقفور الثالث Botaneiates « ١٠٧٨ — ١٠٨١ »

كل من البلغار والآفار و Mayger المسيحية ولقد ظلت تلك الشعوب لا تمثل خطرا حقيقا على بيزنطة إلى القرن العاشر .

ومنذ بداية القرن الحادى عشر بدأ الوضع يتغير فالجفاف بدأ يعم تركستان وبدأت القبائل التركية تتحول وتتجه للغرب ،واتجهت أنشط القبائل التركية وهم الغز بهجراتهم وجهة أخرى حيث أراضى الخلافة الإسلامية واعتنق عدد كبير منهم الإسلام .

الفصل الثاني

الترك فى آسيا الصغرى

الـــترك والإسلام

بفتح العرب لفارس كان من الطبيعى أن ترث الدولة الإسلامية نفس الأخطار والأعداء الذين كانوا على حدود الدولة الساسانية . فالبيزنطيون فى آسيا الصغرى ، وعلى حدود خراسان كان الأتراك .

ولقد عانى الساسانيون منذ القرن السادس من هجرات وغزوات الشعوب التركية وخاصة بعد قيام امبراطورية الترك التى كونها Tumen . وكانت أكثر الشعوب التركية ارتياد الأراضى الفارسية الخزر ، وخاصة فى عهود قباذ وكسرى أنو شروان فتوغلوا فى أراضى فارس بل وصلوا إلى آسيا الصغرى عن طريق الدربند . ومع انهيار دولة الأتراك الغربيين فى القرن الثامن تفرقت القبائل التركيه الخاضعة لها واتجهت وجهات مختلفة فاتجه عدد من تلك القبائل إلى المناطق المتاخمة لخرسان بالقرب من نهر جيحون، وبذلك تجاورت أراضى المسلمون مع أراضى الأتراك الغربيين وكان على العرب تأمين حدودهم ضد الخطر التركى إلى جانب أن المسلمون رؤوا فيهم أرضا خصبة لنشر الدعوة الإسلامية لبقاء غالبيتهم على وثنيته .

فطبيعة العلاقة بين المسلمين والأتراك تنقسم إلى قسمين الأول تم عن طريق الفتح والثانى عن طريق الاتصال الحضارى والدعوة السلمية .

الفتوح الاسلامية لبلاد ماوراء النهر

اتجهت أنظار العرب منذ عهد معاوية إلى فتح بلاد ماوراء النهر

ولكن الغزوات الإسلامية الأولى كان الهدف منها سبر غور الأتراك وطبيعة بلادهم فهى عبارة عن هجوم خاطف لا يلبث أن يعود فيه العرب إلى خراسان محملين بالغنائم، وكان أول ارتياد لأراضى تركية على يد عبدالله ابن زياد فى أواخر ٥٣ هـ وأوائل ٥٤ هـ (٦٧٢ م — ٦٧٣ م) فعبر نهر جيحون إلى بخارى واستولى على مدن بيكندورامين ، ولقد تصدت له القوات التركية ولكنه أجبرها على التراجع . واضطرت حاكمة بخارى لمهادنته ودفع مليون درهم . فلما عزل وتولى سعيد بن عثمان أمر خراسان اشتبك مع عسكر الصغد وسمرقند وكش وتخشب [1] الذى قدم لنجدة بخارى ولكن تراجعوا دون قتال واضطرت حاكمة بخارى لزيادة المبلغ المقدم للعرب .

وفى ٥٦ هـ — ٦٧٥ م عبر نهر جيحون إلى وادى جيحون وبلاد الصغد [2]، ثم اخضع مقاطعات نهر سيحون ثم فرغانه وخوارزم وكرمينيا فشملت غزواته إقليم ما وراء النهر ووصلت إلى الشاش وإقليم كاشغر مركز الأتراك الشرقيين .

وفى عهد يزيد بن معاوية تولى مسلم بن زياد بن أبيه إمارة خراسان فتجدد الصراع مع الأتراك واتحدت جيوش بخارى والصغد وقوات تركية من التركستان مع اميرختن [3] وحققت الجيوش الإسلامية انتصاراً كبيراً على الأتراك وغنموا الكثير واضطرت الخاتون صاحبة بخارى لدفع أموال عظيمة .

وإن كانت تلك الغزوات لا تمثل غزواً فعلياً إنما الفتح الحقيقى

---

(١) جميع هذه المدن بتركستان معجم البلدان

(٢) أبو بكر محمد بن جعفر النرشخى : تاريخ بخارى ص ٢٠

(٣) النرشخى : تاريخ بخارى ص [illegible]

تم على يد قتيبة بن مسلم الباهلى والى خراسان فى عهد الوليد بن عبد الملك . فبعد اخضاعه خراسان كلها تم على يديه فتح طخارستان [١] وعبر جيحون سنة ٨٨ هـ = ٧٠٦م واستولى على بيكند وخنبون [٢] وتارب ، واجتمع جند الترك بقيادة ملك الصغد وانضم اليهم الملك كورمغانون بن اخت ملك الصين ، وأجبر الترك على التراجع واستولى على بخارى وكانت هذه رابع مرة يغزو هذه المدينة . ولقد استمرت فتوح قتيبة من ٧٠٥ — ٧١٥م ففتح الصغد وخوارزم وسجستان وسمرقند وغزا أطراف الصين وفرض جزية على من يسكن هذه المناطق وأصبح يلى بلاد ما وراء النهر وخراسان والى واحد .

ولقد نتج عن الصراع بين الأتراك الغربيين والمسلمين انهيار مملكتهم وانقسامها وظلت بلادهم حتى التى لم يصل اليها الفتح فى فتن وقلاقل ، وهذا أدى إلى انصراف المسلمون فى الفترة التالية لتأمين فتوحهم ضد غزوات الترك فأقاموا الأسوار والخنادق للمحافظة على البلاد الواقعة على الأنهار فى الصغد وبخارى والشاش ، وباخضاع الأويين لدولة أتراك الغرب إتجهت انظارهم إلى ما يلى وراء النهر حيث موطن الأتراك الشرقيين الذين كانوا بحكم موقعهم على صلة بالصين وحكامها ، ودأبوا على الاغارة على مناطق ما وراء النهر الخاضعة للمسلمين وكان وطن الأتراك الشرقيين يمتد من نهر شاما إلى البحر الغربى، ومن حوض نهر Tarem إلى قرب نهر ينسى أى من منطقة ما وراء النهر إلى حتى السهوب الروسية وشرقاً لحدود الصين ولقد ذكرت المصادر الاسلامية ثلاث اقوام من الترك فى المنطقة من

---

(١) النرشخى : تاريخ بخارى ص ٦٩ ٤

(٢) قرية فى بخارى معجم البلدان ج ٣ ص ٦٩ ٤

بحر الخزر إلى حدود الصين : الغز ينتشرون فى الأرض المحتلة من بحر الخزر إلى أوساط مجرى سيرد اراريا ، القارلوق ينتشرون فى الأراضى تمتد شرق فرغانة التفزغز والطوقوز اغوز يسكنون الأراضى التى تبدأ من حدود أراضى القارلوق وتمتد حتى الصين [١].

وانتهز الأتراك الشرقيون فرصة الصراع الإسلامى للتوسع فى بلاد ما وراء النهر فتذكر نقوش ارخون ان فى السنوات بين ٧١٠ — ٧١٥م أستولى الأتراك الشرقيون على دولة توركش الغربية لفترة محدودة وانهم وصلوا إلى تمر قابوع = الباب الحديدى بين سمرقند وبلخ وذكر البعض انه بين الصغد وطخارستان ، وأرسل الأمويون منذ عهد عمر بن عبد العزيز الحملات ضدهم على يد الجراح بن عبد الله ، وعبد الله بن معمر اليشكرى وفى عهد الخليفة هشام غزا مسلم بن سعد الأتراك الشرقيين وكان قد قطع النهر لحربهم ولكنه عزل وولى اسد بن عبد الله وطلب منه والى العراق خالد بن عبد الله القسرى الاستمرار فى الغزوة فسار إلى فرغانة وأقبل خاقان الترك حيث حقق الترك فى البداية نصرا ، ولكن ما لبث العرب أن انتصروا وأسروا حاكم السغد وأحد القواد الترك [٢]، ثم غزا آسدا الغور وهى جبال هراه فى ١٠٧ هـ وفى العام التالى غزا الختل ولكنه هزم ثم قاتلهم مسلمة بن عبد الملك ووصل إلى باب اللان ولقيه الخان فى جموعه ولكن لحقت الهزيمة بخان الترك .

ولقد استغل الأتراك الشرقيون ما قام به الأشرس بن عبد الله السلمى والى خراسان فى عهد هشام بن عبد الملك تجاه الأتراك فى بلاد ماوراء النهر

---

(١) بارتولد : تاريخ الترك فى أسيا الوسطى ص ٤٧

(٢) الطبرى : تاريخ الرسل والملوك ج ٧ ص ٢٤

لقد دعى أهل سمرقند وبلاد ما وراء النهر إلى الإسلام على أن توضع عليهم الجزية فأجابوا إلى ذلك فلما اسلموا وضع عليهم الجزية وطالبهم بها . وتسبب هذا فى مناصبة الاتراك العداء بل أن سبعة آلاف من أهل السغد رجعوا عن الإسلام واستنجدوا بأتراك الشرق ، ولقد اشتبك اشرس وقطن بن قتيبة بن مسلم مع أهل السغد وبخارى وخاقان الترك الشرقيين وكان النصر فى البداية حليف الترك ولكن استطاع المسلمون الانتصار على الترك فى النهاية وهزيمتهم . ومالبث خاقان الترك أن عاود الهجوم على المنطقة قرب بخارى وانضم إليه أهل فرغانة وحاول الترك التفاوض مع المسلمين ولكن توقفت المفاوضات بعزل اشرس وتولى جنيد فتجدد القتال مع الترك وخاقانهم بالشعب وغزا جنيد طخارستان ونزل على بلخ .

ومع ذلك فإن أعنف الحملات على أتراك الشرق تعود إلى ولاية نصر ابن يسار على خراسان وبدأ عهده برفع الجزية عمن أسلم . ولقد غزا نصرا بلاد ما وراء النهر ثلاث مرات . ففى المرة الأولى غزا بلخ ثم اتجه لمرو وفى الثانية غزا ورغش وسمرقند ثم غزا الشاش وسقط أحد خاقانات الترك الشرقيين وهو كورصول [1] وقتل ، واتجه نصر بعد ذلك إلى إلى فرغانة فى ثلاثين الف ثم غزا عرشستان وغور والختل وطبرستان وكان عدد من الترك من أهل الصغد نتيجة لمقتل خاقان الترك فى ولايه اسد قد غادر بلاده ، ولكنهم أرادوا العودة إلى الصغد ثانية نتيجة لما سمعوه من من عدل نصر « تفرقت الترك فى غارة بعضها على بعض ، فطمع أهل السغد فى الرجعة اليها وانحاز قوم منهم إلى الشاش ، فلما ولى نصر بن سيار أرسل

---

(١) الطبرى : تاريخ الرسل والملوك ج ٧ ص ١٧٤

اليهم إلى المراجعة إلى بلادهم (١) ، واستجاب لمطالبهم التى عدها بقيه المسلمين تعدى على الدين وعلى العدالة ، فتراجع عن ذلك . وفى هذه السنة غزا نصر فرغانة غزوته الثانية وذلك فى عهد الوليد وتذكر المصادر الصينية أنه فى عام ٧٤٥ م انهارت دولة الترك الشرقيين وحل محلهم الايغور وكان المقر الرئيسى لخاناتهم يقع على نهر أورخون ولقد ظلت هذه الدولة إلى سنة ٨٤٠ م وانقرضت على يد القرغيز الزاحفين من الغرب ، وكان سقوط الممالك التركية فى يد العرب فيه تهديد للصين وحكامها ، فاشتبك الصينيون مع الحكام المسلمين العباسيين الذين واجهوا الصين ، واتموا فتح بلاد الاتراك الشرقيين وهزموا الجيش الصينى فى ٧٥١ م (٢) .

ولقد استمر العباسيون فى سياسة التوسع على حساب الأتراك الشرقيين وخاصة بعد أن اصبحوا جماعات متفرقة فى عهود المنصور والرشيد والمأمون، وكان الترك فى السغد يثورون من آن إلى آخر على الحكم الإسلامى ولم تكن الخلافة تتردد فى قمع الفتنة فنقض اصبهذ طبرستان العهد بينه وبين المسلمين عدة مرات وقتل من كان ببلاده من المسلمين وغزا المنصور فرغانة

ولقد تقدمت الجيوش الإسلامية فى الصغد واشروسنه وفرغانة ووصلوا إلى اسوار الصين ورغم انتصارات المسلمين الحربية فإن الوسائل السلمية كان لها أثر كبير فوصلت إلى قبائل وشعوب تركية ، عمها الفتح .

التوسع السلمى

كان الأتراك الذين كونوا دولة القرن السادس يعتنقون العقيدة الشامانية القائمة على تناسخ الأرواح ووجود المهى الضوء والظلام (٣) . وابتداء من

(١) الطبرى : تاريخ الرسل والملوك ج ٧ ص ١٩٢

(٢) الطبرى : تاريخ الرسل والملوك ج ٩ ص ١٤٩ ـ ١٥٠

Camb Med Hist vol 4 p 316 (٣)

القرن السابع دخلت المسيحية والزرادشتية والمانوية الى وطن الأتراك وإن كان المبشرين النساطرة قد وصلوا إلى بعض المدن التركية قبل هذه الفترة(١) واعتنقت بعض قبائل التغزغز الزرادشتية وهى عقيدة الساسانيين واعتنق الايغور المانوية وكذلك أهل بلخ وطخارستان وهى محاولة للتوفيق بين المسيحية والزرادشتية والبوذية . وكانت المانوية أكثر العقائد انتشارا بين القبائل التركية ولقربها من البوذية لم يستطع مؤرخى المسلمين كالبيرونى والمسعودى التفريق بينهما، فيذكر البيرونى أن المانوية كانت منتشرة بين الترك انتشارا واسعا على حين يجزم المسعودى بأنها منتشرة بين الايغور وحدهم(٢)

ولقد سعى المسلمون فى الوقت الذى بدأت فيه فتوحهم لنشر الإسلام بطرق سلمية فارسل الخليفة هشام بن عبد الملك (٧٢٤ — ٧٤٣) سفيرا لأحد خانات الترك يدعوه إلى الإسلام ولكن لم تلق دعوته أستجابة(٣) ومع ذلك فقد حقق الإسلام والحضارة الإسلامية انتشارا عقائديا وحضاريا أكثر مما حققته حروبهم فنجد أن عددا من القبائل التركية بدأ يدخل الإسلام ، بل قامت مدن إسلامية تركية خاضعة لحكام غز لم يعتنقوا الإسلام وهى مدن جند . خوراه ، ينغى كنت فى القسم الأسفل من نهر سيحون وهذا يرجع إلى عوامل عدة :

أولها ظهور التبشير الفردى الإسلامى سواء فى داخل العالم الإسلامى . أو خارجه مرتبطا بالتصوف الإسلامى فكانت حياة الصوفية ومناقبهم لها تأثيرها على الأتراك ولقد انتشر الإسلام فى أماكن كان فيها بوذيون ومانويون ونصارى ، ويرجع هذا إلى تفوق العالم الإسلامى ماديا ومعنويا

---

(١) النرشخى بخارى ص ١٤٥
(٢) بارتولد : تاريخ الترك فى آسيا الوسطى ص ٤٩
(٣) بارتولد : تاريخ الترك فى آسيا الوسطى ص ٤٩

على كل البلاد المتمدينة ، فالبدو فى كل وقت بحاجة إلى حاصلات البلاد المتحضرة،وكان هؤلاء البدو يألفون البضائع الإسلامية ويتأثرون بطراز حياة المسلمين بوجه عام ، وكانوا يتأثرون كذلك بالاسلام لا من الناحية الدينية فحسب ولكن من الناحية المدنية أيضاً فالانضمام إلى العالم الإسلامى المتحضر لم يكن ممكنا الا إذا دخلوا فى الإسلام ، إلى جانب ان الخلافة العباسية أرسلت دعاتها إلى خراسان واقليم ما وراء النهر وكانت الدعوة قائمة على أساس أن ينال كل من أسلم حقوقه السياسية والمدنية دون النظر إلى جنسه وكان مما صرف الترك عن الإسلام وما أدى إلى ارتداد بعضهم فى العهد الأموى فرض الجزية عمن أسلم . ولقد ساعد على انتشار الإسلام وجود المدارس الإسلامية فاليها يرجع الفضل فى أن الديانة الزرادشية قد زالت من بلخ وطخارستان سريعا وان ظلت متماسكة بعض الوقت فى بلاد ما وراء النهر .

ولقد لعبت المدارس الإسلامية فى بلاد ماوراء النهر وخراسان دوراً كبيرا فى نشر الإسلام وكان بعضها مستقلا عن الحكومات القائمة . ودخلت أعداد كبيرة من الترك إلى قصور الأغنياء والخلفاء كغلمان وجوارى لما تمتعوا بها من جمال وقوة جسدية واستكثر منهم الخلفاء وأصبحوا يكونوا فرق حرسهم الخاص فالقالاج والخالاج كانوا من الغز [1] ومنذ عهد المعتصم تغلبت العصبية التركية فالمعتصم كان يميل إليهم إذ أن أمه تركية الأصل إلى جانب عدم ثقته بكل من العرب والفرس فاستكثر منهم حتى بلغ عددهم ثمانون الفا وأنشأ لهم مدينة سر من رأى ومنذ ذلك الحين بدأ العنصر التركى يلعب دوراً رئيسياً فى مقدرات الخـــلافة ولقد وصلت الا بجدية

(١) البلاذرى : فتوح البلدان ص ٤٢٠

العربية إلى الترك فى القرن الثامن . وذكرت المصادر الصينية أن قوافل المسلمين التجارية فى القرن الثامن كانت تصل إلى القرغيز ولقد اهتم المسلمون بالطرق المؤدية إلى الصين وكثرت المعلومات فى المؤلفات الإسلامية فى القرن العاشر عن الطريق إلى الصين والأقوام التركية الساكنة بمحاذاته .

ولكن الفضل الأكبر فى نشر الإسلام يعود إلى آل سامان الذين بسطوا سلطانهم على أواسط آسيا فى القرنين التاسع والعاشر ٨٢٠ — ١٠٠٠م وكان سلطانهم يشمل بلاد ما وراء النهر وطبرستان والرى والجبل وسجستان وكان السامانيون ينتسبون لأحد الأسر الفارسية القديمة وفى عهد الرشيد خرج رافع بن الليث عليه فأرسل اليه الرشيد هرثمة بن اعين وطلب من أبناء أسد بن سامان معاونته فأجبروا رافعا على عقد الصلح [1] ولما تولى المأمون أمر غسان بن عباد أمير خراسان بأن يولى أبناء أسد مدنا هامة من مدن خراسان وكان ذلك فى سنة ٢٠٢ هـ ٨١٧م وتولى نصر بن أحمد بن أسد بن سامان فى عهد الواثق بلاد ما وراء النهر ٢٥٠هـ — ٨٦٥ هـ [2]

وفى عهد الأمير اسماعيل بن أحمد بدأ غزو بلاد الترك فحارب طراز واحال كنيستها إلى جامع وعبر جيحون واشتبك مع الترك ومنحه الخليفة فى ٢٨٠هـ — ٨٩٣م البلاد من عقبة حلوان وولاية خراسان وما وراء النهر والتركستان والسند والهندوكركان [3] ولقد قام السامانيون بنشر الحضارة الإسلامية بين الترك الوثنين ، وأقاموا فى بلاد ما وراء النهر مراكز ثقافية

---

(١) النرشخى : تاريخ بخارى ص ١٠٥

(٢) النرشخى : تاريخ بخارى ص ١١٧

ابن الأثير : الكامل فى التاريخ ج٧ [illegible] ٢٨٠ هـ

هامة كانت عاملا هاما فى صبغ الترك بالصبغة الإسلامية فخففت من خطرهم على العالم الإسلامى ولقد دخل عدد كبير من الترك فى جيوش السامانين ثم الجيوش الإسلامية عامة ولقد تعرضت الدولة السامانية لهجوم من عناصر كثيرة ضمت فى أراضيها وأدت فى النهاية إلى انهيارها فتعرضت لضغط الديلم والعلويين كما تعرضت لضغط البويهين والغزنوين الذين استقلوا بالقسم الغربى من أراضيها وتلى سقوط السامانيون انقسام سلطانهم بين الغزنوين وخانات الأتراك القرخانين المسلمين .

وفى القرن العاشر بدأت أعداد كبيرة من الترك تدخل فى الإسلام فاسلم بلخار الفلجا وفى سنة ٩٦٠م أسلم ما يقرب من مائتى ألف خيمة من الترك . وتلى ذلك قيام أول دولة تركية اسلامية أقامها أتراك الشرق وهى الدولة القراخانية وكان أول ملوكها هو ساتوق بغراخان عبد الملك وكان يطلق عليه اسم آخر هو (قراخان) وسميت باسمه الدولة واتخذ عاصمة له مدينة كاشغر وقامت تلك الدولة بمحاربة أعداء الإسلام وخاصة من جاوراها من الترك الوثنين ثم نقلت العاصمة إلى بالاساغون ومن هنالك حاولوا فتح بقية بلاد ما وراء النهر .

وكان من الطبيعى أن يصطدموا بالسامانين وبالفعل اشتبك بغراخان مع قوات نوح بن منصور السامانى بعد لجوء[1] فائق أمير خراسان من قبل السامانيون اليهم واستنجاده بهم وكان ذلك فى عام ٣٧٩ ﻫ — ٩٨٨م وانهزم جيش نوح وقبض على أبج الحاجب الذى أرسله ولقد استمر فائق والى خراسان فى تحالفه مع بغراخان سرا وانسحب إلى سمرقند وتعقبه بغراخان إلى بخارى فاضطر نوح بن منصور إلى الفرار وترك

---

(١) النرشخى : تاريخ بخارى ص ١٤٥

بخارى التى أستولى عليها بغراخان ولكن مالبث بغراخان ان توفى أثناء عودته لتركستان[١].

وفى عهد أبو الحارث منصور بن نوح تجدد الصراع مع إيلك خان واستعاد إيلك بخارى[٢] وفى عهد عبد الملك بن نوح بن منصور استولى إيلك على ماوراء النهر فى ٣٧٩ هـ - ٩٩٨م وفر عبد الملك وقبض على امرائه وأقاربه وبذلك زالت دولة السامانيين. ولقد حاول المستنصر إسماعيل بن نوح أخو عبد الملك بعد فراره من سجن إيلك خان وذهابه إلى خوارزم. جمع جيش السامانين وبعث الدولة ومقاتلة القراخانيين فحارب فى سمرقند جعفر تكين أخا أيلك خان وقد أسر هو وجماعة من الأجناد على يد جيش السامانين واستولى اسماعيل على عرش بخارى، ولكن هزم فى النهاية وفر والتجأ إلى الغز، فأمده الغز بجيش وحاربوا إيلك خان فى بخارى وانتصروا عليه واستولى إسماعيل على بخارى. ثم خشى الغز بعد ذلك ففر من بينهم ليلا والتجأ إلى سيف الدولة محمود والى نيسابور الذى سار إلى نجدته فى بخارى، وحارب حامية إيلك خان واخضع بخارى لاسماعيل ولكن عاود إيلك الهجوم فاضطر إسماعيل للفرار وعبر جيحون ولكنه قتل فى سنة ٣٧٥هـ و٩٨٦م[٣]. ثم اتجه القراخانيون بعد ذلك بفتوحهم إلى بلاد محمود الغزنوى ونشبت بينهم حروب خسر فيها القراخانيون بعضاً من أراضيهم فاستولى محمود الغزنوى على الولايات شمال جيحون وكان هدفه من ذلك ألا يتصل القراخانيون بالخلافة العباسية إلا بواسطته وهذا أدى إلى إتجاه القراخانيون بفتوحهم إلى شرق تركستان حيث تفرغوا لمحاربة الأتراك[٤].

---

(١) النرشخى تاريخ بخارى ص ١٥٥؛ العتبى: تاريخ اليمينى ج١ ص ٣٤٧

(٢) النرشخى: بخارى ص ١٤٧؛ ابن خلدون: العبر ج ٤ ص ٣٦٣

(٣) النرشخى: تاريخ بخارى ص ١٤٩؛ فامبرى: تاريخ بخارى ص ١١٦ - ١٢٠

(٤) خوندمير: حبيب السير ج٢ ص ١٢

ولم يكن دخول القراخانيون الإسلام هو النصر الوحيد بل كان اعتناق قوم آخرين من الأتراك الإسلام يعتبر بحق هو النصر الحقيقي ألا وهم السلاجقة الغز .

السلاجقة

كان ظهور السلاجقة نقطة تحول خطيرة في تاريخ الدولة الإسلامية والحضارة الإسلامية فقد كان العالم الإسلامي يعاني في القرن الخامس الهجري ، الحادي عشر الميلادي ، من مشاكل داخلية وخارجية تتمثل في الصراع بين الخلافتين العباسية والفاطمية . ثم ضعف العباسيين وسيطرة الفرس البويهيين عليهم إلى جانب توسع بيزنطة على حساب الدولة الإسلامية في الشرق ولكن السلاجقة بقواهم الفتية استطاعوا استعادة وحدته السياسية وفي نفس الوقت الذي منحوا فيه الحضارة الإسلامية مظهراً وحياة جديدة بما استحدثوه من أنظمة وقوانين [١] .

وكان فتح وتتريك الشرق الأدنى وخاصة الأناضول واحداً من أهم التغيرات الأسياسية التي أوجدتها الإمبراطورية السلجوقية [٢] .

والسلاجقة فرع من القبائل الغزية التي اتجهت إلى الأراضي الإسلامية في الغرب حيث سيطروا على الوادي الأدنى لسيحون . ولقد اختلف المؤرخون على أصل التسمية فيذكر محمود الكاشغري أن رئيس الأسرة الغزية يسمى سوباشي أي قائد الجيش ، وذكر فامبري أنه كان قائد لجيش أمير يدعى بغو والنصوص التركية تذكره Seltchiuk ولكن عددا كبيراً من المصادر الإسلامية ذكر أن زعيم تلك القبائل كان يسمى سلجوق بن دقاق [٣] وهو الذي وحد تلك القبائل ثم قام بالهجرة بها إلى أراضي

---

(١) Camb . Hist of Islam. vol I p281

(٢) عن السلاجقة أنظر . الراوندي : راحة الصدور وآية السرور الحسيني : أخبار الدولة السلجوقية والبنداري: تاريخ دولة آل سلجوق وفامبري ٠ تاريخ بخارى ص١٢٨

(٣) المقريزي : السلوك حـ١ قسم ١ ص ٣٠

المسلمين ويبدو أن علاقته بالمسلمين الذين كانوا يسكنون نهر سيحون كانت وطيدة ولقد اعتنق الإسلام على المذهب السنى ولكن هناك فارقا واضحا بين السلاجقة وقبائل الغز الأخرى فالعناصر الغزية الأولى سواء منها ماهاجم بيزنطة أو دخل الأراضى الإسلامية كان عبارة عن فرق متفرقة ليس بينها رابطة ولا نظام ولا تشكيل هدفها السلب لا الاستقرار بعكس السلاجقة الذين كان يلقب قادتهم بالفاتح والأمير وكانت قواتهم متفوقة نظاما وتشكيلا[١] ولقد تعرض الغزنويون لغارات السلب التى قام بها الغز وإن كان السلطان محمود الغزنوى قد استعان بالتركمان فى جيشه وفى غزواته للهند ولكن لم يكن من اليسير السيطرة عليهم فاضطر السلطان محمود حين ازداد طغيانهم إلى أن يلتقى بهم بحد السيف فى بلخان كوه. ولكن هذه الغارات على اتساع مساحتها ما كانت لتحدث أى تغيير سياسى ذلك أنهم اعتادوا أن يتنقلوا من مكان لآخر دون أن يتركوا حاميات عسكرية ولا يقيموا دولا مستقرة[٢].

ولكن السلاجقة رغم أنهم فى هذه الفترة كانوا ما يزال يغلب عليهم طابع القبيلة كانوا أكثر تنظيما ودراية من غيرهم من الترك. ولقد اتخذ السلاجقة قاعدة لهم مدينة جند فى بلاد ما وراء النهر ويبدو أنهم استولوا عليها من حاكمها المسلم شاه ملك. وفى البداية انضم السلاجقة إلى جانب السامانيين ضد القراخانية الذين استولوا على بخارى وسمرقند ويذكر النرشخى، أن المستنصر اسماعيل بن نوح أخو عبد الملك آخر الحكام السامانيين حين حاول بعث الدولة السامانية واشتبك مع القراخانية لقى هزيمة شديدة ففر إلى الغز فأمدوه بقوات لمحاربة ايلك خان فى بخارى وبفضل قواتهم انتصر على ايلك خان واستعاد بخارى ثم خاف الغز ففر من بينهم ليلا.

---

(١) عبد النعيم حسنين سلاجقة إيران والعراق ص ١٩

(٢) البيهقى : تاريخ البيهقى ص ٣٤

وبعد انهيار الدولة السامانية تحالف القراخانيون مع السلطان محمود الغزنوى ضد السلاجقة ونتيجة لذلك حلت بالسلاجقة الهزائم [١]، وفى تلك الاثناء توفى سلجوق وخلفه اربعة من ابنائه وهم [٢] ارسلان، ميكائيل، بيغو، موسى . ولقد قبض السلطان محمود على ارسلان بالخديعة ثم حبسه فى إحدى قلاع الملتان بالهند إلى أن مات ، وبعدها سمح للسلاجقة بالإقامة فى إقليم خراسان فى المنطقة بين نسا وباورد ولكن اشتكى منهم أهل هذه المنطقة فحاربهم السلطان محمود وانتصر عليهم ، ولكن تلى وفاه السلطان محمود وتولية ابنه مسعود محاولتهم التوسع فى اراضى الغزنويين وكان مسعود قد استعان بهم لتدعيم جيوشه فى نيسابور وكان يرأسهم ثلاث قادة هم قزل ، بوقة ، كوكتاشى ، وبعد تنفيذ المهام المطلوبة منهم انقلبوا وعادوا إلى سيرتهم الأولى من النهب والسلب ، وضاعت نواحى الرى والجبال بسببهم واستطاع الغزنويون اجلاءهم بعد جهد عنيف ، ولقد سعى السلطان مسعود لنقل التركمان من هراة وترحيلهم لغزنة فلما عرفوا بما يدبر لهم جاءوا من الرى لخرسان وافسدوا فى الأرض [٤] . ولقد ازداد سلطان السلاجقة إلى حد انهم طلبوا من السلطان مزيدا من البلاد ليقيموا فيها .

وكان من الطبيعى الا يقف الغزنويون أمام التغلغل التركى مكتوفى الايدى وقرر السلطان مسعود التصدى لهم والحد من توسعهم [٥] ولكن جند مسعود كانوا مترفين ينفرون من الحروب ، بعكس القوات التركية التى تغلب عليها روح القبيلة والفتوة ، فالمعركة بالنسبة لهم معركة مصير فهزيمتهم تعنى انحصارهم فى بقاع محدودة لم تعد تتسع للاعداد المتزايدة

(١) النرشخى : تاريخ بخارى ص ١٤٩

(٢) يذكر احيانا اسرائيل بيغو « ارسلان » ، ابن الاثير ج ٩ حوادث ٤٣٢ هـ

(٣) البيهقى تاريخ البيهقى ، ترجمة الخشاب ص ٦٨

(٤) البيهقى : تاريخ البيهقى ص ٦٣٤

(٥) المقريزى السلوك ج ١ قم ١ ص ٣٢

للترك . واشتبك الفريقان فى معارك عدة ، وفى البداية هزم السلاجقة فى سرخس ، ولكنهم عاودوا الهجوم على الجيش الغزنوى الذى حاقت به الهزيمة ٤٢٩ هـ ١٠٢٧ م[1] واضطر السلطان لقبول مهادنة السلاجقة والاستجابة لمطالبهم التى نصت على الاعتراف بما فى ايديهم من اراضى وذكر البيهقى رسالة موجهة من السلاجقة إلى وزير مسعود « نحن على ما رأى الوزير الكبير وأن عليه أن يبين عظمته حتى يذهب عنا غضبه فيمنحنا الولاية والأودية والمراعى لنسكن فيها ونبقى فى دولته قائمين على خدمته وبهذا يستريح أهل خراسان من النهب وشن الغارات[2] «فمنحهم نسا وباورد وهراه على شرط الا يتعرضوا للمسلمين ولكن ما لبث السلاجقة أن عاودوا التوسع فعاد طغرل إلى نيسابور وداود أقام فى سرخس ، وذهب الينالبون إلى نسا وباورد .

فى حين انصرف مسعود لحياته الخاصة ولهوه غير عابىء بما يحدث ولكن مع ازدياد غارات طغرل السلجوقى اضطر السلطان للخروج إلى ملاقاته سنة ٤٣١ عند مرو ولكن انتصر السلاجقة لتخاذل جند السلطان وتراجعهم بل انضم بعضهم إلى السلاجقة [3] وهزم الغزنويين فى معركة الداندتقان ، وأعلن طغرل نفسه واليا على خراسان ٤٣٢ — ١٠٣٧م وكتب الرسائل لخانات تركستان ولأعيانهم ينبؤنهم بالفتح . . ولقد اتفقوا على أن يذهب طغرل إلى نيسابور وان يستقر بيغوفى مرو وأن يسير داود مع معظم الجند الى بلخ ليستولى عليها وعلى طخارستان وأرسل إلى الخليفة العباسى القائم يطلب تقليدا بأمره ودعاه الخليفة الى الحضور لبغداد ولم تجد محاولات مسعود لمقاومة السلاجقة فقرر الهروب [4] ولكن غلمانه

---

(١) المقريزى : السلوك حـ ١ ص ٣٢ .

(٢) البيهقى : تاريخ البيهقى ص ٦٤٢

(٣) البيهقى : تاريخ البيهقى ص ٦٨٨

(٤) Enc. Isl Art Selgeks

طمعوا فى أمواله فانقضوا[1] عليه وحبسوه فى قلعة ماريكلة وأمر الحاكم الجديد بقتل مسعود وتوسع السلاجقة فى بقية الممتلكات الغزنوية فى عهد خلفاء مسعود واتجهوا بعد ذلك الى ايران الغربية فاستولوا على قزوين وأبهر وهمذان واذربيجان ثم اتجهوا لكرمان وأصفهان وبخارى وبذلك يكون السلاجقة قد سيطروا على ايران الجنوبية والشرقية وتطرقوا الى اقليم الجزيرة ووصلت حدودهم الى بيزنطة .

ولقد اتخذ السلاجقة فى البداية لقب شاهنشاه عند توليهم حكم خراسان ، ولكن بدخولهم إلى الغرب الى أراضى الدولة الإسلامية اتخذوا لقب سلطان الإسلام وكان السلطان يلى الخليفة فى المنزلة ، ودخل طغرل بك الى بغداد ٤٤٧ — ١٠٥٥ م وحل السلاجقة محل البويهيين فى السيطرة على الخلافة ، وبحكم أنهم حماة الخلافة والإسلام ، وبوصفهم سنين متعصبين فقد كان عليهم جهاد أعداء الدولة والإسلام فحاربوا الغز ابناء جلدتهم وأخضعوهم لسلطان الإسلام ، واخضعوا الثورات فى فارس ، وحاربوا الفاطميين المخالفين للعباسيين فى المذهب الدينى واستردوا منهم بيت المقدس الرملة دمشق ، وتصدوا لبيزنطة أكبر الدول المسيحية انذاك وتوغلوا فى أراضيها .

فقام فرع من السلاجقة الاوهم ما عرفوا بسلاجقة الروم بالاتجاه الى أراضى بيزنطة واقتطاع آسيا الصغرى وتكوين دولة كانت من أطول

---

(١) ذكر البيهقى كيف أن السلطان تملكه الخوف وذكر على لسان وزيره احمد بن عبد الصمد « اعلم ان السلطان شديد الخوف من هؤلاء الأعداء وقد حاولت عبثا احمله على التجلد ، ولكن يبدو أن الله قضى أمره وانا غير قادرين على شىء بعد ذلك ، وقد قر فى نفسه أن داود لا محالة قاصد غزنه بعد أن هزم التونتاش وتكلمت كثيرا مبينا أنه ليس من المعقول ان يقصد داود بلدا آخر ولم يفرغ من بلخ ، وخاصة غزنة ولكن كلامى ضاع سدى .

البيهقى : تاريخ البيهقى ص٧٢

الدول السلجوقية عمرا إذا استمرت من (١٠٧٥ — ١٣٠٢م) ويعود الفضل لهذه الدولة فى تتريك المنطقة أى صبغها بالصبغة التركية والتمهيد فيما بعد لدولة غزية أخرى استطاعت الاستيلاء على القسطنطينية نفسها وهى الدولة العثمانية .

السلاجقة وآسيا الصغرى

فى ١٠٧٥م وبعد خمس وثلاثين عاما من تكوين امبراطورية السلاجقة فى فارس تأسست دوله سلاجقة الروم فى الأناضول على يد سليمان بن قتلمش ، كنتيجة مباشرة لمعركة مانزكرت ٤٦٣ — ١٠٧١م .

ولكن توغل الغز فى الأناضول يعود لفترة سابقة على ذلك ، بدأت من ٤٠٩هـ — ١٠١٨م ولقد اتخذت الهجرة التركية مظهرين الأول اتخذ شكل غزوات فردية وكان مجرد استطلاع وارتياد للمنطقة واستغرق الفترة من ٤٠٩هـ — ١٠١٨م إلى ٤٢٣هـ — ١٠٤٠م . أما الفترة التالية ١٠٤٠ — ١٠٧٥م فقد كانت من الفترات الحاسمة فى تاريخ المنطقة ، انهارت فيها المقاومة البيزنطية ، وبدأ الغز فى الاستقرار فى بعض مدنها وقلاعها وكان تمهيدا لاستقرارهم الدائم فى آسيا الصغرى .

وآسيا الصغرى أو الأناضول تمثل منطقة حساسة وهامة بالنسبة لبيزنطة [1] تعرضت المنطقة لهجمات مستمرة من جانب الفرس منذ القرن الرابع الميلادى ، ثم لمحاولات الغزو العربى فى القرنين السابع والثامن الأمر الذى أدى مع انتشار الأوبئة ، إلى نقص عدد السكان ، ومع ازدياد ارتياد الجيوش العربية للمنطقة كان على بيزنطة زيادة الاهتمام بأمنها فوضعت نظاما للدفاع يقوم أساسا على تشجيع العناصر العسكرية

---

(١) كانت آسيا الصغرى تضم أهم الولايات البيزنطة كارمنياك والاناتوليك، ومن مدنها خرج عدد كبير من اباطرة الدولة الآجانب [illegible] شرك هام لدى الامبراطورية

فى مناطق الحدود ، وعهدوا بملكية تلك المناطق إلى القرى الجماعية وفى شكل مقاطعات كبرى تمكنها أن تمد الدولة بالجنود اللازمين لها فى حالة الحرب والسلم ؛ فأدى ذلك إلى تغير الوضع وعاد الأمن يسود المنطقة إلى حد كبير . وفى القرن التاسع كان نظام الدفاع هذا يتولاه أمراء ونبلاء عرفوا باسم Akrtia وكان عملهم ينحصر فى مهاجمة أراضى الأعداء أو صد الهجوم وكانوا مستقلين لايخضعون للسيطرة الفعلية للـــدولة ، وكانت أراضيهم معفاه من الضرائب ، بل أن الدولة كانت تكافئهم على خدماتهم وظل هذا النظام قائما طوال فترة الصراع البيزنطى الإسلامى(٢) .

وكان فى الجانب الإسلامى نظام مقابل فاهتم الخلفاء بمناطق الحدود الإسلامية اهتماما كبيراً خاصة فى مناطق أذنه وطرسوس والمصيصة وهى الحدود المشتركة مع بيزنطة . وكان المنشقون من الجانب الإسلامى والخارجون على سلطة الخلفاء يجدون الحماية عند أمراء الحدود Akrtia الذين كانت غالبيتهم تتبع الكنيسة الأرمينية المنشقة . ولكن بدأ نظام الدفاع الإسلامى ينهار منذ منتصف القرن التاسع حينما بدأ الضعف يدب فى الخلافة العباسية وسيطرت عليها عناصر مختلفة من أتراك وفرس ، فى نفس الوقت الذى بدأ فيه عصر الصحوة أو النهضة فى التاريخ البيزنطى وخاصة فى عهد نقفور فوكاس وحنازمسكيس ولم تعد الحدود الفاصلة جبالا بل أراضى مزروعة فهناك حامية بيزنطية فى انطاكية ، وعدد من المدن الأخرى . ولم تعد الحاجة ماسة لأمراء الحدود فبدؤا فى توطيد سلطانهم على المناطق التى سبق لهم الحصول عليها فى غزواتهم السابقة فى الاناضول وظلوا شبه

---

(١) Camb. Hist. of. Islam. vol I p. 231
Runicman The Fall of Constantinople p 22

(٢) Runicman ; op. cit. p 22

(٣) البلاذرى : فتوح البلدان ص ١٩٠ـ١٩١ ذكر البلاذرى نظام الصوائف والشواتى .

مستقلين ، (١) وأحاطوا انفسهم بجيوش وكونوا أساس الارستقراطية التى اصطدمت بالأمبراطورية فى منتصف القرن الحادى عشر وفى نفس الوقت فإن محاولات بيزنطة لبسط سيطرتها على مناطق الحدود فى ارمينية وخاصة تجاه الشمال اضعف (٢) نظام الدفاع .

وفى القرن الثانى عشر بدأت صلة بيزنطية بالأتراك تدخل طورا جديدا . ففى هذه المرة لم يكونوا حلفاء كأتراك القرن السادس بل اعداء(٣) وهنا نفرق بين عنصرين من الأتراك ، دولة السلاجقة النظامية من جهة ، وقبائل التركمان من جهة أخرى وإن كان عدد كبير من القبائل التركمانية قد خضع لسلطان السلاجقة ، وأن دئبوا على التمرد والثورة . وكانت أول المشاكل التى واجهت الامبراطورية السلجوقية كانت مشكلة أولئك التركمان ، وإيجاد أراضى للأعداد المتزايدة منهم . ولقد اعتبر كل من طغرل بك (٤٢٩هـ — ٤٥٠هـ) ، ألب أرسلان (٤٥٥هـ — ٤٦٥هـ) — وملك شاه (٤٦٥هـ — ٤٨٥هـ) التركمان من أشد العناصر خطورة على أمن الدولة وقانونها فوجهوهم إلى أراضى آسيا الصغرى وبذلك آمنوا أولا من اجتياحهم الأراضى الإسلامية ثانيا دعموا قواتهم ضد بيزنطة ففتح الأناضول وتتريكه كانت نتيجة لتلك السياسة واستجابة لتلك الاحتياجات ولقد اتجه التركمان بدعم من السلاجقة ، ولكن تحت رأسه بكواتهم من أذربيجان إلى أقصى الشرق فى قلب وغرب آسيا الصغرى ، ونتيجة لهذا التوغل والاجتياح المستمر لأراضى بيزنطة ، فقد استطاعوا الاستيلاء على السهول والهضاب والمناطق المكشوفة بل على مدن بيزنطة هامة كارزروم ٤٤٠هـ — ١٠٤٨م وقرسيا فى ٤٤٦هـ — ١٠٥٤م ماطية ٤٤٩هـ — ١٠٥٧م ،

---

(١) Rusicman op. cit p 221

(٢) Camb. Med Hist. vol 4 p. 162

(٣) Vasiliev. The Byzantine Emipire p 359

سيواس ٤٥١هـ - ١٠٥٩ ، قيصرية ٤٥٩هـ — ١٠٦٧م[1]، قونية وعموريه ٤١٠ — ١٠٦٨ ، هونّاس ٤٦١هـ — ١٠٦٩م .

ولقد ساعدت ظروف بيزنطة التركمان على تأمين فتوحاتهم فما وقع من الفتن بالقسطنطينية ، وما نشب في الحروب بين القادة البيزنطين في أطراف الدولة ، يضاف إلى ذلك عجز الحاميات البيزنطية المرابطة في حصون منيعة ، بأطراف البلاد عن السيطرة على الطرق المؤدية إلى داخل آسيا الصغرى[2] .

وأول إشارة إلى الترك السلاجقة تعود إلى عام ١٠٢١م في عهد الامبراطور باسيل . حيث قام السلاجقة والتركمان بمهاجمة ارمينيا ، فاضطر حاكمها حناسمباد إلى التنازل عن امارته لباسيل وقبول شروطه مقابل أن يظل ملكا أثناء حياته[3] ، وطلب الامبراطور من ملك الابخاز (جورجيا) صد هجمات الأتراك السلاجقة الذين تجددت هجماتهم على أرمينيا ، وكان هجومهم مقترن بحدوث مجاعات ، وقد ازداد هجوم السلاجقة على أطراف الامبراطورية في عهد ميخائيل البافلاجوني (١٠٣٤ — ١٠٤١م) .

ولكن السلاجقة أصبحوا يمثلوا خطراً حقيقياً منذ عهد الامبراطور قسطنطين التاسع . ولقد أتاح لهم الامبراطور الفرصة للتغلغل في أراضي بيزنطة نتيجة لسياسته التي انتهجها تجاه ارمينيا . فلقد قبض الامبراطور قسطنطين بوسائل الخداع على جاجك حاكم أرمينيا وأجبره على التنازل عن

---

(١) الامبراطور باسيل من الاسرة المقدونية حكم ٩٧٦ — ١٠٢٥م

(٢) Camb Med Hist vol.4 162

(٣) يحيى بن سعيد : التاريخ المجموع ص ٢٤٠

مدينة آنى (١) ، وعند استيلاء البيزنطيون عليها قاموا بالتنكيل بأهلها ، وتعرض أمراء الحدود للنفى والقتل ، وأحل البيزنطيون حاميات يونانية مكان الأرمينية . وقاموا بتدمير العديد من المدن وتخريبها . ولم يجعلوا للترك وزنا وحسابا فى خططهم لجهلهم بمدى قواتهم وخطوراتهم (٢) .

ولما علم طغرل بك بما أصاب أرمينيا من الضعف عاد إلى مهاجمتها وتدمير مدنها لسنوات عديدة ، واستباح مدينة سمباد المنيعة ونكل بسكانها ، ولقيت نفس المصير مدينة Ardzen التجارية غرب أرضروم ، وقرر البيزنطون آخر الأمر التصدى للقوات التركية ، رغم قيام ثورة ليرتورنيكوس سنة ١٠٤٧ م. ولكن أحد قادة السلاجقة وهو ابراهيم بن اينال أحرز انتصارا باهرا على القائد حنا كومينين الذى تولى قيادة الجيوش البيزنطية (٣) وحليفه ملك جورجيا ليبارتيس الذى سقط أسيراً فى أيديهم ، وتلى ذلك توغل السلاجقة فى آسيا الصغرى فقاد طغرل جيشه وتقدم فى أراضى بيزنطة وأرزن الروم وظاهر طرابزون ، وأرمينيا فيما بين فان وجورجيا ، وحاصر ماتركزت فلجأت الحكومة البيزنطية إلى المفاوضة وطلب الصلح ، وكان من شروط هذا الصلح الإفراج عن حاكم جورجيا ، فيذكر ابن الأثير « قاريط ملك الأبخاز ، بذل فى نفسه ثلاثمائة ألف دينار وهدايا بمائة ألف » (٤) .

ومع ذلك فقد استمر طغرل وجموع التركمان فى مهاجمة الامبراطورية فنهبوا قبادوقيا وملطية سنة ١٠٥٧ م ووصلوا لسيواس ، وعند تولية الامبراطور قسطنطين العاشر دوكاس (١٠٥٩ — ١٠٦٧) اقتحموا مدينة سيواس وأجروا بها مذابح وحشية .

---

(١) Cahen : Turkish invasions p147

(٢) Camb.Med. Hist vol 4 p165

(٣) ابن الأثير : الكامل حوادث ٤٤٦هـ

(٤) ابن الأثير : الكامل حوادث ٤٤٦هـ

المقريزى : السلوك حـ ١ قسم ١ ص ٣٢

يذكر المقريزى إن من شروط الصلح تعمير مسجد القسطنطينية وإقامة الخطبة فيه لطغرل

ولكن فى عام ١٠٦٣م توفى طغرل وخلفه الب ارسلان سنة١٠٦٣ م — ١٠٧٢ م فدخلت العلاقات مرحلة جديدة إلاوهى مرحلة الاستقرار الدائم فى قلب الامبراطورية وعلى نطاق واسع ، فطغرل عند وفاته لم يترك ابنا وكان من الطبيعى أن يحدث نزاع بين أفراد البيت السلجوقى على خلافته ولكن أخاه جغرى الذى كان قد توفى قبله قد ترك عددا من الأبناء كان أكبرهم الب ارسلان الذى كان يحكم خراسان وما وراء النهر واستطاع أن يلى العرش ، ويعترف به رئيسا للبيت السلجوقى .(١) وكان لالب ارسلان أهداف أساسية واضحة يسعى لتحقيقها أولها التوسع على حساب القوى المعادية للخلافة السنية ليبدو فى نظر العالم الإسلامى المدافع فى سبيل نصرة العقيدة الإسلامية ، وبذلك كان عليه التصدى للخلافة الفاطمية الشيعية فى مصر ، ثم الدولة البيزنطية ولقد قلده الخليفة العباسى حكم كل ما يفتحه من البلاد خارج حدود دولته سواء كانت هذه البلاد فى يد البيزنطين أو الفاطمين الذين يخالفونه فى المذهب .(٢)

ولقد وجه الب ارسلان جهوده إلى بيزنطية بعد قضائه على الفتنة التى آثارها عمه بيغوه وعقده تحالفات مع بقايا القراخانيين والغزنوين وبدأ الب ارسلان غزوته من القوقاز يصحبه ابنه ملكشاه وانضم اليه أحد أمراء التركمان وهو طغتكين (٣) ، انفصل ملكشاه عن الجيش الرئيسى واتجه إلى بلاد الكرج (جورجيا) ، وهاجم عددا من الحصون فعرض حاكمها الصلح مقابل دفع جزية ، فى حين اتجه الب ارسلان إلى أرمينيا فحاصر آنى واستولى عليها ودمر قصورها ومعابدها وقتل آلاف من أهلها ، وامتدت

Grousset : Histoire de : l' Armienie . P604

Camb . Med. Hist . vol4 . PI67 (٢)

(٣) ابن الأثير : الكامل جـ ١٠ حوادث ٤٤٦م

فتوح الب أرسلان إلى ارمينيا الصغرى[١] . وانفتح المجال أمامهم فهاجموا قبادوقيا وهاجمت القوات التركمانية التابعة لألب ارسلان عمورية وقونية وقليقية وقيصريه ومضت في زحفها سنة ١٠٦٧ حتى بلغت ملطية وفريجيا ولم يستطع الامبراطور قسطنطين صد ذلك المد التركى ، ومع ذلك يقال أن جماعات من الترك دخلت فى خدمة البيزنطيين واستغلوهم فى قمع الفتن الداخلية .

معركة مانزكرت

خلف قسطنطين على عرش بيزنطة رومانوس ديوجنس ١٠٦٨ م — ١٠٧١ م وهو جندى قدير أثبت كفاءته ومقدرة فى حروبه ضد الغز والبجناك فى عهود كل من قسطنطين التاسع والعاشر مما جعله يحصل على تأييد الحزب العسكرى[٢] . وقد بدأ عهده بإعداد جيش على اقدر من الكفاءة ولكن غالبيته كانت من العناصر المأجورة ، وهذا يوضح أن انتصاراته بين عامى ١٠٦٦ — ١٠٦٩ لم تكن حاسمة لأن جيوشه كانت تفتقر إلى التجانس والنظام ، فى حين امتاز الجيش التركى بالسرعة والمقدرة على الحركة والمناورة وفى ١٠٦٨ اعترضت جيوشه جموع السلاجقة التى نهبت نيكسار وأجبرتها على ترك غنائمها . ثم اتجه إلى بلاد الشام حيث هاجم ارتاح ومنبج . واستغل السلاجقة الفرصة للتوسع فى آسيا الصغرى فيما بين قيصرية وقبادوقيا ، واضطر الامبراطور للعودة لمواجهتهم لغياب حاكم أرمينيا Philareties الذى لقى هزيمة على يد الترك عند ملطية . وفى ١٠٨٠ م هاجم الترك قونية

---

(1) Grousset . Histoire de l'Aremine p 609
Cahen : Turkish Invansion p 147

(٢) عن معركة مانزكرت Anna Comnena : Alexiad
Trans Dawes. Book I p 7 - 8
Michael psellus : The Chronographia. trans Sewter. p 189
ابن القلانسى ذيل تاريخ دمشق ١١٧
ابن الأثير : الكامل حوادث سنة ٤٦٦ هـ — ٤٦٣ م

فأرسل الامبراطور القائد مانويل كومنين ، على رأس جيش بيزنطي ولكن هزم عند سيواس .

وفي ٤٦٤هـ — ١٠٧١م اتجه ألب أرسلان إلى حلب لخلاف نشب بينه وبين أميرها محمود المرداسي حيث أجبره على الاعتراف بسلطانه ولكن أثناء عودته بلغته أنباء التجمعات البيزنطية في مانزكرت قرب بحيرة فان ، وكان الامبراطور قد جمع جيشا بلغ تعداده ما يقرب من ٣٠٠ ألف مقاتل ولكن غالبية الجيش كانت من المأجورين من الفرنجة والنورمان ، والترك والغز والبجناك ، وكان من الطبيعي أن يفتقر جيش مثل هذا إلى الوحدة إلى جانب أن العصبية غلبت على المقاتلين الترك فانضم الغز أثناء القتال إلى السلاجقة ، ولم يكن الجيش قد استكمل استعداده عند بدء القتال ، فقد جرى إرسال فرق من الجيش للحصول على المؤن ، وأخرى للاستيلاء على خلاط (١) .

وفي ٤٦٣ هـ — ١٠٧١ م لحقت بيزنطة هزيمة ساحقة في مانزكرت ، ووقع الامبراطور رومانوس أسيرا في يد ألب أرسلان الذي وافق على إطلاق سراحه مقابل فدية كبيرة مع عقد اتفاقية نصت على أن يدفع جزية سنوية للأتراك ، وإجباره على إطلاق سراح من وقع في أسره من الترك(٢) . وتعهده بإمداد الترك بالمعونة العسكرية متى طلبوها واتفقوا على تقسيمات إقليمية جديدة وتظل في أيدي الترك آني وفاسبوركان ومانزكرت وتحتفظ بيزنطة بإقليم الأطراف Theadosiopolis ، وبعد توقيعه تلك المعاهدة عاد رومـــانوس إلى القسطنطينية ، ولكن فوجيء بعزله عن العرش ، وأثناء فترة أسره في أيدي السلاجقة تولت زوجته الامبراطورة أوديكسيا

---

(١) Ostrogorsky : op cit P 304 ·
Grousset : op cit p 629

(٢) الراوندي : راحة الصدور ص٢٨٩
ابن الأثير : الكامل جـ١٠ حوادث ٤٦٣
ابن العبري . تاريخ مختصر الدول ص ١٨٥

العرش مع ابنها الأكبر ميخائيل دوكاس ، ولكن أجبرت الامبراطورة في ٢٤ اكتوبر سنه ١٠٧١ م على دخول الدير . واعلن ميخائيل السابع امبراطورا وعومل رومانوس كعدو للامبراطورية عند عودته للعاصمة . وقبل الامبراطور تسليم نفسه في مقابل حصوله على عهد بالامان ، ولكن الامبراطور ميخائيل نقض وعده وسملت عينا رومانوس .

ولقد اعتبر الب ارسلان ما حدث لرومانوس نقضاً للاتفاقية السابقة واطلاقا ليد الترك في آسيا الصغرى ، وأصبحت الامبراطورية في وضع يشبه الوضع الذي كانت عليه عند بداية الفتح العربي [1] .

ولكن في الفترة الأولى واجهت القوات الإسلامية الغازية خلفاء هرقل الذين امتازوا بالمقـــدرة والمهارة إلى جانب ما كانت تتمتع به الامبراطورية من مقومات ومصادر داخلية مكنتها من المقاومة والتصدي للمد الإسلامي أما الآن فإن كل شيء قد انهار تماما . كما انهار أيضا نظام الدفاع القائم على امتلاك الجندي للارض ، وأصبح سلطان السلاجقة القوى يواجه امبراطورا ضعيفا خلفه حاشية فاسدة .

ولقد ترتب على موقعه مانزكرت نتائج هامة كان لها تأثير كـبير على مستقبل بيزنطة والعالم الإسلامي والغرب الأوربي .

لقد أثبتت تلك الحرب أن بيزنطة لم تعد حامية للعالم المسيحي الغربي وحامية لأوربا من الغزو الإسلامي ، ولذلك كان على الغرب أن يواجه الموقف الجديد حتى قبل أن المقدمة أو التمهيد الطبيعي للحروب الصليبية . كانت مانزكرت ، فيشير وليم الصوري مؤرخ الحروب الصليبية ان هذه

---

(١) Ostrogorsky op. cit p. 354

الهزيمة كانت أهم عامل خدم الحركة الصليبية (١)، وكان من نتائجها أيضا القضاء على التحالف البيزنطى الفاطمى بعد اضطرار بيزنطة لمهادنة السلاجقة وكان الفاطميون يمثلون حلفاء لهم أهميتهم فى الشرق، ورغم أن الب أرسلان لم يستغل انتصاره ولم يعتبرها أكثر من معركة خاضها وانتصر فيها ترتبت عليها بعض مكاسب أقليمية، فلم يحاول الاستيلاء على بقية آسيا الصغرى أو تحطيم الامبراطورية البيزنطية، ومع ذلك فإنه تلى تلك المعركة تغييرات جذرية فى آسيا الصغرى (٢)، فلقد ترتب على انهيار المقاومة البيزنطية انتشار الترك فى آسيا الصغرى بطريقة سريعة ومفاجئة مما أدى إلى تغير مستقبل السلالات الجنسية فى المنطقة ويرجع بعض المؤرخين هذا إلى دخول أعداد كبيرة من سكان المنطقة فى الإسلام (٣).

وعلى كل فإن تتريك المنطقة أو صبغها بالصبغة التركية الإسلامية استغرق عدة قرون فالسلاجقة كونوا أول هجرة تركية للمنطقة. أما الهجرة الثانية فقام بها الترك الذين هربوا قبل الغزو المغولى من وسط آسيا وفارس، حيث انتشروا فى مناطق وسط الأناضول إلى شواطئه ولقد تم هذا خلال السبعينات من القرن الثالث عشر ورغم أن الدولة السلجوقية فى الأناضول كانت تقوم فى البداية على أساس قبلى فإنها سرعان ماضمت فئات ونوعيات مختلفة، ولم تعد مقصورة على المقاتلين وضمت فلاحين، وتجار، حرفين، رجال الدين (٤).

أما بالنسبة لأرمينيا فقد زالت تماما الادارة البيزنطية فى أرمينيا وقبادوقيا بعد أن هجرها أهلها واستسلمت المدن للتركمان بل التمس بعضهم

---

(١) William of Tyre. Hist of Deeds Done Beyond thesee vol xx p 20

(٢) Grousset. Histoire de l,Armenic p 924

(٣) The Camb Hist. of Islam. p 233

(٤) The Camb. Hist of Islam vol I d 234

حمايتهم وسمح الأتراك لهم بحكم بلادهم بأنفسهم ، إلى جانب أن نظام الدفاع البيزنطى الذى تولاه أمراء الحدود قد انهار وبدأ الجند الفلاحين المرابطين على الحدود يختلطون بالمسلمين ويأنسون إليهم وبذلك تعرض نظام الحدود البيزنطى إلى ضربة قاسمة ، وخاصة أن بيزنطة بعد هذه الهزيمة لجأت إلى انزال جند مرتزقة فى ارمينيا والرها ، ولم تحاول الاستعانة بالسكان الأصلين مما أدى إلى انبعاث الكراهية لبيزنطة فى تلك المناطق . ولقد ترتب على استيلاء الترك على اغلب الولايات الأرمنية فقد بيزنطية لمورد بشرى هام لجيشها فإن الأرمن كانوا يكونون فرقاً أساسية فى الجيش البيزنطى .

الفصل الثالث

مملكة سلاجقة الروم

بعد عزل رومانوس ديجينيس اعتبر الب ارسلان ان الاتفاقية البيزنطية التركية ملغاة وأرسل رسالة لرومانوس ينبأه فيها أنه سيجتاح اناتوليا انتقاما له . ولكن ما لبث أن توفى الب إرسلان ٤٦٤ ﻫ — ١٠٧٢ م) وخلفه ابنه ملكشاه الذى استمر على سياسة ابيه فى التوسع فى اسيا الصغرى ولكن قيام مملكة سلاجقة الروم فى الاناضول لا يعود إلى الدولة النظامية بقدر ما يعود إلى العناصر التركمانية المستقلة . والتركمان الذين اقاموا فى آسيا الصغرى ينقسمون إلى قسمين التركمان الخلص الذين حرصو على الاغارة على الكفار والذين كرهوا كل ما يتعلق بحكومه نظامية من افكار ، ثم التركمان الذين اقاموا فى اسيا الصغرى دولة نظامية شبيهة بالتى أقامها بنو عمومتهم فى ايران [١] .

والتركمان الأول كانوا يمثلهم الدانشمنديين الذين استقلوا فى سيواس وسيطروا على كل الطرق التى تجتاز شمال آسيا الصغرى [٢] وزاخاس الذى استقل بأزمير ومنجوشك وغيرهم ، على أن الفرق بين الفئتين لم يكن واضحا [٣] ، إذ أن قوة السلاجقة أنفسهم إنما تستند أساسا إلى التركمان ،

---

(١) Runicman : oP. cit p 223

(٢) Setton : Hist of the Crusades p213

(٣) Camb .Med : Hist Vol 4 p 331

ولأن قادة التركمان أنفسهم ينزعون إلى الاستقلال عن أمرائهم ، وما كان يحدث عادة من المنازعات والمنافسات فى كل معسكر بين الحاشية وسائر الأفراد يؤدى إلى التحالف بين الخصوم والواقع أن النضال بين السلاجقة والدانشمند ظل مستمرا معظم القرن الثانى عشر .

ولقد كان العامل الأساسى فى تكوين دولة السلاجقة الهجرة التركمانية التى تلت مانزكرت وخاصة ان بيزنطه اتخذت سياسة الحياد تجاه السلاجقة نتيجة لما وقع فيها من أحداث داخلية ، من نزاع على العرش والتجاء الطامعين إلى السلاجقة لمساندتهم إلى جانب مناوءة العناصر النورمانية المأجورة ، ثم الصراع بين الطبقة الارستقراطية الحربية والطبقة الارستقراطية المدنيـــة كل ذلك هيأ للتركمان الفرصة للتوغل فى داخل آسيا الصغرى فبلغوا فى زحفهم بحر مرمرة ، والبسفور ، وبحر ايجه [1] .

ورغم أن سليمان بن قتلمش ابن أرسلان بيغوهو مؤسس الدولة[2] فإنه لم يكن بين القادة الذين أرسلهم الب أرسلان بعد مانزكرت وعزل رومانوس لفتح الأناضول ، ولكن الاسم الذى يتردد كثيرا بين جميع أولئك القادة كان أرتوك بك واليه يرجع الفضل فى التوغل التركى داخل الأناضول ففى ٤٦٤ هـ — ١٠٧٢ م هزم أرتوك بك جيشا يقوده اسحاق كومنين وأخذه

---

(١) — Setton . oP .Cit Vol Ip.214

(٢) The Camb. Hist of I slam p234

خرج قطلمش على طاعة ابن عمه طغرل وانضمت إليه أعداد كبيرة من تركمان وكان أبوه أكبر أفراد الاسرة السلجوقية فاعتبر نفسه أحق بالملك من طغرل وقام أبناء قطلمش بالثورة على الب ارسلان وانضمت إليهم العناصر التركمانية .

أسيرا ووصل إلى شواطيء Sakarya تاركا قلب الأناضول خلفه[1] . ولقد أتاحت الثورة التى قام بها روسيل باليل Roussel de Balleala قائد النورمان المأجورين ضد ميخائيل الفرصة أمام أرتوك للتوسع على حساب بيزنطه فقد أرسل الامبراطور عمه القيصر حنا دوكاس لإخضاع روسل ولكنه سقط أسيرا فى يده وأعلنه امبراطورا ، واتجه معه إلى القسطنطينية فاستنجد الامبراطور بجيوش السلاجقة وحصل على معونتهم فى مقابل أن ما يفتحونه من أراضى والتى كان قد استولى عليها المغتصب لهم حق البقاء فيها ، وعن هذا الطريق استطاعوا التوسع فى آسيا الصغرى والوصول إلى نيقية [2] . ولكن عند وفاة الب أرسلان ونشوب الخلاف على العرش جرى استدعاء أرتوك بك إلى الرى عاصمة السلاجقة .

ولقد استغل سليمان بن قتلمش هذه الفرصة المتاحة بانشغال كل من السلاجقة وبيزنطه فى مشاكلهم الداخلية للتوسع فى آسيا الصغرى ، وكان أبوه قتلمش قد لقى هزيمة فى ٤٦٥ هـ — ١٠٦٤ م) على يد الب أرسلان ، وأبعد أبنائه سليمان ومنصور إلى الحدود البيزنطية ، فقاموا بجمع القبائل التركمانية حولهم فى الأناضول بعد مغادرة أرتوك بك ، وكانت غالبية القبائل التى انضمت إليهم من قبائل Yavgyan الثائرة ضد طغرل والب ارسلان وكانوا فى حاجه لأمير يقودهم . وأول ورود لاسم أبناء قتلمش فى المراجع الإسلامية كان فى معركة فى سوريا اشتبكوا فيها ضد اتسيز بك القائد التابع لملك شاه وقد حاولوا إقامة تحالف مع الخلافة الفاطمية المناوئة لسلاجقة فارس . ولكن

---

(١) *Camb. Med. Hist. vol4 p2I4*

(٢) ذكر Setton أن سليمان لا ارتوك بك الذى عاون الامبراطور ميخائيل Setton op. Cit. vol P332

لم يحقق سليمان نجاحا فى قطاع الشام فركز جهوده فى آسيا الصغرى . وفى ١٠٧٥ حاصر حلب وانطاكية فى طريقه إلى الأناضول وانضم إليه أحد القادة الترك وهو توتاق الذى كان قد اتجه إلى بيثينيا على رأس جيش مكون من عشرة آلاف مقاتل ، وانضمت إليهم جموع التركمان فى آسيا الصغرى .

وساعد تطور الأحداث فى بيزنطة زمن ميخائيل السابع على توسع سليمان فى أراضيها كما ساعد أرتوك من قبل نتيجة للثورات التى قامت بها الارستقراطية العسكرية ضده فطلب الامبراطور المساعدة من سليمان مرتين الأولى ، حين ثار عليه نقفور Byrennius دوق دراخيوم الذى خرج فى سنة ١٠٧٧ من موطنه فى ادريانوبل واتجه إلى أسوار القسطنطينية ولكن بفضل القائد الكسيوس كومنين وسليمان أمكن القضاء عليه[١] ، والثانية كانت حين ثار نقفور Botoneiotes قائد ثغر الأناتوليك[٢] فاستعان ميخائيل بقوات سليمان وبدخول السلاجقة إلى الجيش البيزنطى بدأ استقرارهم الدائم فى أراضى بيزنطة ، فقد تخلى سليمان وأخوه منصور عن ميخائيل وانضما إلى Botaneiates الذى أعلن نفسه أمبراطورا فى ٧ يناير سنة ١٠٧٨م وأدخلهما بوتنا ياتوس إلى نيقية ، وبعد ذلك عاونوه فى الاستيلاء على نيقوميديا ، وخلقدونيه وكريسوبوليس وانفجرت ثورة فى العاصمة أجبرت ميخائيل على الذهاب إلى الدير وأعلن نقفور بوتنا ياتوس امبراطورا ، فلما حاول الامبراطور اجلائهم عن الأراضى التى دخلوها أعلنوا راية العصيان ، وأعلن سليمان نيقية عاصمة ـ ١٠٧٥ م ، وليس أدل على ضعف بيزنطه فى تلك الفترة من أن سقوط نيقية التى لعبت دورا خطيرا فى تاريخ

---

(١) Cahen : Turkish Invansion p150

(٢) Grousset : Histoire der Aremeni p628

بيزنطة والمسيحية ، حيث عقد بها العديد من المجامع المسكونية الأولى إلى جانب موقعها وقربها من القسطنطينية(١) .

لم تذكر المصادر البيزنطية هذا الحدث إلا فى اشارات عابرة . وانضم السلاجقة إلى نقفور Melissenus الذى أعلن الثورة فى نيقية ضد الامبراطور واتفق مع السلاجقة على استيلائهم على نصف مافتحوه فى عهد نقفور بوتنايتوس فى مقابل مساندته واخضع ميلسنيوس مدن جالاتيا وفريجيا وترك حاميات تركية فيها ، ولكن لم تكتب لثورة ميلسنيوس النجاح ، فظلت هذه المدن فى يد سليمان وجيوشه(٢) ومن هذه المواقع بدأ توسعهم ، فسيطر سليمان على كل آسيا الصغرى من قليقيا إلى Hellespont ، وبذلك تكونت مملكة سلاجقة الروم ولقد سارع التركمان المنتشرون فى آسيا الصغرى إلى الاعتراف بسلطانها سنة ١٠٧٧ م بل هاجرت بعض القبائل التركمانية من آسيا الوسطى إلى الدولة الجديدة وكان هذا إيذانا بفقد بيزنطة لآسيا الصغرى وانهيار النظام الدفاع والإدارة فى الولايات الآسيوية واندحار نظام Theme القائم على امتلاك الجندى للأرض ، ولقد ترتب على ضعف بيزنطة الحربى انهيار لنظامها الاقتصادى والمالى . وكانت هذه الظروف مجتمعة هى التى واجهت الامبراطور الجديد الكسيوس كومنين (٣) .

الكسيوس كومنين وآسيا الصغرى

لم يكن الكسيوس كومنين هو القائد الوحيد فى الارستقراطية العسكرية الذى تطلع إلى العرش ، ولكن كان أقدرهم كسياسى . ولقد بدأ بالتمهيد لنفسه

---

(١) Ostrogorsky : op cit p307

(٢) *Camb. Hist of Islam vol Ip1235*

(٣) Ostrogorsky : op cit p314

سواء فى الجيش أو العاصمة بعد نظر و دبلوماسية ماهرة مكنته من الانتصار على مناوئيه . فصاهر اسرة دوكاس عن طريق زواجه من ايرين حفيدة القيصر حنادوكاس ، وبذلك ايدته اسرتا دوكاس وكومنين . ثم عقد اتفاقا مع نقفور ميلسنيوس والذى كان زوجا لشقيقة زوجته ولقد طلب الأخير آسيا الصغرى فى مقابل ترك الجانب الأوربى لألكسيوس ولكن الكسيوس رفض ووعده بمنحه لقب قيصر . وبدأ الكسيوس بعده العدة للاستيلاء على العاصمة وكانت الحامية فى العاصمة من العناصر الجرمانيه المأجورة ، فلم تصمد طويلا واستطاع بعد قتال دام ثلاث أيام دخول المدينة ، وأقتنع نقفور بوتنايتوس بعدم جدوى المقاومة واستجاب لنداء البطريرك بترك العرش وفى ١٤ أبريل ١٠٨١ م توج الكسيوس .

ولقد اعتلى الكسيوس عرش امبراطورية تحيط بها الاخطار والأعداء من كل الجهات فكان عليه اتباع دبلوماسية قائمة على أسس جديدة إلى جانب الالتجاء إلى الوسائل الحربية إذا اقتضت الظروف . فالفترة بين باسيل الثانى والكسيوس كومنين كانت سلسلة من الهزائم المتتالية لسياسة بيزنطة الخارجية فقد شهدت فقد آسيا الصغرى وضياع إيطاليا وضعف نفوذ بيزنطة فى البلقان . أما فى الداخل فقد عانى المجتمع من انهيار اقتصادى وتفكك اجتماعى ، وكان على الكسيوس ١٠٨١ — ١١١٨ م اعادة هذا البناء على أساس جديد وخاصة فيما يتعلق بالولايات ولكن لم يكن لدى الأمبراطورية من المصادر والمنابع الداخلية ما يساعدها على عملية إعادة البناء وقد فقدت مركز قوتها فى آسيا الصغرى وكل ما استطاع فعله آل كومنين عامة هو استعادة الشواطىء . وانتقلت أهمية بيزنطة التجارية والبحرية لمدن ايطاليا فمركز بيزنطة كقوة

Ostrogorsky . op. cit p317 (1)

كبرى تحت حكم آل كومنين لم يكن يعتمد على وضع داخلى قوى ودولة مترابطة ولذلك لم يحقق نجاحا فى النهاية .

وكانت مشكلة الاتراك وتوسعهم أهم ما واجه الامبراطور . ولكن الكسيوس ، كان مقتنعا بصعوبة استعادة آسيا الصغرى من الاتراك فلم يكن أمامه حق الخيار فقرر الاعتراف بالوضع القائم فعلا . فسمح لسليمان بحكم قليقية انطاكية وملطية (١) ، واعتبرها مستعمرات على أن يكون لبيزنطة حق الاشراف عليها ، أى اعتراف اسمى بسلطان بيزنطة ولكنهم لم يعتبروا أتباع خاضعين بل معاهدين Foederat ، يقيمون فى أراض وافقت الامبراطورية على التنازل عنها ، كما حدث مع البجناك فى البلقان وبذلك استطاع الكسيوس التفرغ لمشاكل النورمان .

وكذلك اتجه سليمان إلى الشام بعد أن آمن جانب بيزنطة . وكان سلاجقة العراق قد سبقوه إلى هناك فقد اصبحت بلاد الشام مسرحا للنزاع بين قوى مختلفة : الفاطميون ، العباسيون ، الأمراء المحليون من العرب كبنى مرداس وبنى عقيل وبنى كلاب ثم البيزنطيين . وكان سلاجقة العراق قد وصل نفوذهم إلى الشام ابتداء من ١٠٧٠ م حين التجأ رشيد الدولة المرداسى صاحب حلب لطلب الحماية من الب ارسلان ، وخطب له وللخليفة العباسى القائم ١٠٧٠ م ولقد طالب الب ارسلان من محمود المرداسى الخروج لقتال الفاطمين والبيزنطيين فرفض محمود الاستجابة ولكن أمام ضغط السلطان الب ارسلان اذعن واعترف بالتبعية وانتشر السلاجقة فى شمال الشام ، ولما خلف ملكشاه ١٠٧٢ — ١٠٩٢ م الب ارسلان امر

---

(1) Ostroqorsky: op c, t p316

(2) Grousset : Hist de l, Armine P 630

(٣) ابن الأثير : الكامل حوادث سنة ٤٦٣ هـ

السلاجقة فى الشام أن يخضعوا لأخيه تاج الدولة تتش وهاجم حلب ١٠٨٥ م ولكن لم يستطيع الاستيلاء عليها ، وفى ١٠٧٩، استولى على منبج وبزاعة ثم دمشق التى كانت بيد اتسيز بن ابق أحد قادة الترك وكان قد استولى عليها من الفاطميين ٤٧٦ هـ [١] وسيطر تتش على وسط سوريا وفلسطين وقبض على اتسيز وقتله ، وما لبس أن اشتبك تتش فى قتال مع أخيه ملكشاه ١٠٨٣ م — ١٠٨٤ م .

واستغلالا لتلك الأوضاع قرر سليمان بن قتلمش الاتجاه إلى الشام وبدأ بانطاكية ٤٧٧ هـ — ١٠٨٤ م التى يحكمها Philaretus [٢] الأرمن نائبا عن بيزنطة وكان قد أساء السيرة فكاتب أهل المدينة سليمان ليتسلمها ٤٧٧ هـ — ١٠٨٤ م) فاستولى عليها من غير قتال ، إلا أن أمير الموصل مسلم بن عقيل الذى كان قد وطد مركزه فى شمال الشام وأعالى الجزيرة ، وكان على صلة بالفاطمين . كان قد اجبر فيلارتيوس والى انطاكية على دفع جزية له فأرسل إلى سليمان يطالبه بدفـــع الجزية ورفض سليمان على أساس أن فيلارتيوس كان والى من قبل بيزنطة أما هو فحاكم مسلم ونتيجة لذلك دار قتال بينهم قرب انطاكية ١٠٨٥ م انتهى بهزيمة مسلم بن عقيل ومقتله ، وأثر هذا الوضع على موقف الفاطميين حلفاء مسلم فانسحب بدر الجمالى من سوريا بعد أن غزاها ، واتجه سليمان بعد ذلك إلى حلب ولكنه هزم

---

(١) استولى اتسز من الفاطميين على الرملة وبيت المقدس وحاول غزو مصر ١٠٩٧ م فهاجمه أمير الجيوش بدر الجمالى وحاصر دمشق ولكن تدخل تتش جعله ينسحب.
سعيد عبد الفتاح عاشور : الحركة الصليبية جـ ١ ص ١٠٥

(٢) فيلارتيوس أحد القواد الذين اشتركوا فى جيش رومانوس الرابع فقد كون الأرمن بعض فرق رئيسية واستولى على الرها سنة ١٠٢٧ م وسلم له أهل انطاكية المدينة بعد مقتل الحاكم البيزنطى واعترف بسلطان بيزنطة ١٠٧٨ م — ١٠٨١ م ولقد سيطر على طرسوس والمصيصة وعين زربة وإن كان سليمان قد انتزع منه قلينة وملطية .

ولقى مصرعه في يونيو (٤٧٨ هـ — ١٠٨٦ م) أثناء صراعه مع تتش حاكم دمشق (١).

لم يكن سليمان مجرد حاكم أو غازى بل أقام نظاما إداريا ممتازا خلال حكمه الذى لم يتعدى العشر سنوات ولقد رحب السكان المحليون بحكمه تخلصا من الاضطهاد الدينى الذى عانوه اثناء حكم البيزنطيين . وكان المستفيد من نتيجة هذا الصراع هو السلطان ملكشاه السلجوقى فقد استطاع أن يتوسع على حساب جميع القوى وخاصة بيزنطة ، وكان قد سبق لملكشاه أن استولى عام ١٠٨٣ م ، على انسطرطوس وبعض القلاع المجاورة ، واستولى ١٠٨٥ م على الرها من البيزنطيين وولى عليها بازان ثم استولى على حلب ١٠٨٦ م وسلمها إلى قسيم الدولة اقسنقر ثم تسلم انطاكية من نائب سليمان بن قتلمش وعين فيها ياغى سيان ولقد ترك السلطان لهؤلاء القادة منذ ١٠٨٦ م أمر توجيه الحملات ضد بيزنطة .

أما بقية بلاد الشام فقد ظلت اجزاء منها خاضعة للفاطميين كحمص التى كان يحكمها خلف بنى ملاعب وطرابلس التى كان يليها على بن عمار ظلا على تحالفهما مع الفاطميين ، وخضعت لبدر الجمالى . عكا ، وصور وصيدا وجبيل . ولكن فى ١٠٩٠ م استولى السلاجقة بعد أن تصالح تتش مع أخيه ملكشاه على شمال الشام حتى طرابلس وكانوا يؤملون بغزو مصر . كل هـــذه الأوضاع دفعت بالامبراطور الكسيوس إلى الاستنجاد بالغرب الأوربى لقمع الأتراك سواء فى آسيا الصغرى أو الشام ، ولقى هذا استجابة من البابوية التى كان قد اثارها استيلاء السلاجقة

---

(١) ابن العديم : زبدة الحلب جـ ٢ ص ٩٨٧ .

(٢) ابن الاثير الكامل جـ ١٠ حوادث ٤٧٩ هـ

ابن العديم زبدة الحلب جـ ٢ ص ٩٨٧

على الأماكن المقدسة ، إلى جانب تهديد وصول الحجاج المسيحيين إلى الشام بسبب الاضطرابات فى تلك المنطقة(١) . ولكن بعد سنوات ومع قدوم الحملات الصليبية ندم الامبراطور على استعانته بالغرب فإن سلاجقة آسيا الصغرى وكذلك سلاجقة العراق بدأت قوائم فى التفكك نتيجة للخلافات الداخلية (٢) .

سلاجقة الروم بعد سليمان

بعد مقتل سليمان انهارت الوحدة السياسية التى أقامها السلاجقة وأرسل أبناءه إلى ملكشاه فى الفترة بين ٤٧٩هـ — ٤٨٥هـ،١٠٨٥م—١٠٩٢م كرهينة لضمان عدم تدخل سلاجقة الروم فى شئون الشام ولقد تركت آسيا الصغرى بدون حاكم يسيطر على أمورها فلقد ترك سليمان طفلا صغيرا هو قلج ارسلان الذى ظل فى اسر ملكشاه فترة وتولى أمر إدارة السلجوقية أبو القاسم الذى كان سليمان قد انابه عنه اثناء ذهابه إلى قليقيه وانطاكية(٣). ولقد أراد ملكشاه بعد مصرع سليمان اخضاع دولة سلاجقة الروم ، فأرسل الأمير بورسلك ، ثم ارسل الأمير بوزان ، مما دفع بأبى القاسم إلى التحالف مع بيزنطة ، ولكن وفاة ملكشاه ٤٨٥هـ — ١٠٩٢ م انقذت نيقية من الحصار . وساعدت المنازعات التى ثارت على العرش بعد وفاته قلج ارسلان الأول بن سليمان على العودة إلى منصبه ١٠٩٢ م حيث استقبله الترك بحفاوة بالغه وبدأ عهده بتجديد بناء عاصمته وتعيين قادة جددا ، ثم دخل فى صراع مع بيزنطة حيث قامت قواته بطرد القوات البيزنطية التى حاولت الاستقرار على شواطىء بحر مرمرة : ولكنه ما لبث أن عاد

Cahen ; Turkish invansion p 164 (1)

(٢) ابن العبرى . تاريخ مختصر الدول ص ١٩٤

ابن الأثير الكامل حوادث سنة ٤٩٢ هـ

Camb. Hist . of Islam vol I p 236 (3)

لتحالف معها فعاونته القوات البيزنطية فى التخلص من خصمه حاكم ازمير بكا أوزاخاس بك . ووفقا لمعاهدته مع بيزنطة أصبح من حقه التوسع فى أتجاه الشرق ، وفى (٤٨٩ هـ — ١٠٩٦ م) حاصر ملطية ولكن أهل المدينة عرضوا عليه تسلمها صلحا تخلصا من حاكمهم جبريل ، الذى كان يضطهدهم لمخالفتهم له فى المذهب الدينى . ولكن قلج ارسلان اضطر للعودة للدفاع عن عاصمته أمام الخطر الصليبى (١) .

ولم يكن سلاجقة الروم الطائفة الوحيدة التى استقرت فى آسيا الصغرى فهناك فرق تركية أخرى من الغز استقرت فى المنطقة ، وكانت اشد خطراً على بيزنطة واستغلت ضعف الدولة السلجوقية بعد وفاة سليمان لإقامة ممالك مستقلة ، دخلت فى صراع مع سلاجقة الروم وبيزنطة ، وهذه الممالك تعتبر أهم فى تاريخ الترك من الأمبراطورية السلجوقية نفسها ، فعلى الرغم من أن أراضى دولة سلاجقة الروم امتدت من نيقية إلى قونية ، وعلى الممرات بشمال جبال طرسوس فإن الاتراك بعد انهيار حكمهم فى الشرق لجؤا إلى تلك الممالك ونزلوا على سواحل المضيق وعلى ساحل بحر ايجه ، حيث وجدوا المستقرا واختلطوا بالسكان ومارس بعضهم البحرية والبعض القرصنة (٢) .

ويعود الفضل فى انشاء هذه الامارات لعدد من القادة والأمراء التركمان . فأنشأ منجوشك بين ارزنجان و Divrigi أمارة ، دخلت فى صراع مع الاغريق على البحر الأسود ، ولقد ارتبط حكامها بصلة المصاهرة مع دانشمند .

وفى سامرنا انشأ Tzachas زاخاس إمارة فى ٤٧٤ هـ ١٠٧١ م ، وانضم

---

(١) [illegible] : Vie et mort de Byzance p 304

Sètton : op. cit vol I p 223

(٢) Camb. Hist of Islam vol I p336

اليه الترك فى المناطق المجاورة ، وقام بإعداد اسطولا قويا سيطر به على جزر البحر الايجينى ، ولقد ناصبت تلك الامارة بيزنطة العداء فتحالف زاخاس مـــع البجناك ضد الامبراطورية [1] ، وكانت مشكلة البجناك وثوراتهم من أهم المشاكل التى واجهت بيزنطة فى القرن الثانى عشر . وفى البداية تحالف البجناك مع قبائل Bashkiers فى شرق البلقان واجتاحوا اراضى البلقان ، وفى ١٠٩٠ م تجددت المشكلة وتحالف البجناك مع امير سامرانا ولقد وصلت قواتهم إلى اسوار القسطنطينية فى نفس الوقت الذى هدد فيه زاخاس باسطوله المدينة ، وكان زاخاس قد عاش فترة فى بلاط نقفور بوتانياتوس ،[2] حينما اسر فى أحد المعارك فى آسيا الصغرى ، وكان على علم بخطط واستراتيجية البيزنطيين وتعلم أن الهجوم الحقيقى يأتى من جهة البحر . وفى شتاء ١٠٩٠ م حوصرت القسطنطينية برا وبحرا وبحث الكسيوس عن حليف يعاونه فى مواجهة تلك القوة التركية فلم يجد إلا الكومان « القفجاق » وكان الكومان الذين استقروا الآن فى استبس جنوب روسيا بعد البجناك والغز مثلهم اتراكا لغة واصلا واستجاب الكومان لنداء الامبراطور ، ففى ٢٩ أبريل ١٠٩١ م دارت معركة Mt Levanion بين بيزنطة وحلفائها الكومان وبين البجناك حاقت فيها الهزيمة بالبجناق وتعرضوا لمذبحة قاسية تركت اثرها فى النفوس واوردتها انا كومنين فى كتابها Alexid ، وبذلك تحطم الحصار حول القسطنطينية وتحطمت آمال زاخاس الذى سرعان ما غير معسكره ، بعد هزيمته وانضم إلى الامبراطور [3] . وقام الكسيوس بنفس الطريقة والاسلوب الذى أوقع فيه بين البجناك والكومان بالإيقاع بين زاخاس وامير نيقية أبا القاسم

---

(1) Ostrogorsky : op cit p 320
(2) Setton : op cit vol I p 213
(3) Ostrogorskg : op.cit p320.Camb Hist of Islam vol.I p 237

ثم بينه وبين قلج ارسلان الأول عن طريق اقناعه به بأن وجود زاخاس يعرضه للخطر وما لبث أن تخلص منه ولقد ظلت هذه الدولة إلى نهاية الحرب الصليبية الأولى.

ولكن أهم تلك الامارات أقامها أحمد غازى دانشمند فى ٤٧٤ هـ — ١٠٨٤ م، ودانشمند هو أحد زعماء التركمان التابعين لسليمان بن قتلمش، واشترك معه فى حروبه ضد ملطية. ولقد ضم إليه ملطية ثم سيطر على سيواس وأماسية وقيصرية وكركر ونقصار وأنقره وسنوب. وكل الطرق التى تجتاز شمال آسيا الصغرى. لكن مالبث أن نقض عهده لسلاجقة الروم وأعلن تبعيته لملكشاه، وعند وفاة دانشمند خلفه ابنه غازى كمشتكين الذى سار على سياسة أبيه فى مناصبة سلاجقة الروم العداء.

وفى أرضروم قامت أمارة تركمانية أخرى أنشأها الأمير سالتوق واعترفت بالتبعية لسلاجقة فارس[١].

أما الولايات الارتقية التى تشمل ديار بكر وماردين وخرتبرت ودولة السقمانين بالقرب من بحيرة فان فانها لم تتكون إلا بعد عشر سنوات من هذا التاريخ، وحكمها أمراء سلاجقة والجزء الوحيد فى آسيا الصغرى الذى لم يقع فى أيدى الترك شرق البحر الأسود فقد استعاد الاغريق طرابزون ١٠٧٥ م وأقاموا فيها دوقا بيزنطيا ولكن حلفاء هذا الدوق استقلوا عن بيزنطه وتحالفوا فى بعض الأحيان مع الترك.

ولقد نجح الامبراطور باستخـــدام وسائل الدبلوماسية البيزنطية فى الإيقاع بين أعدائه وبذر بذور الشك والتفرقة بين الترك وبذلك لم يعد

Camb. Hist of Islam ol I p238. (١)

هناك خطر ملح تمثله آسيا الصغرى بالنسبة له .

وخاصة أن أحوال سلاجقة الشرق لم تكن بأفضل من أحوال أقربائهم سلاجقة الروم . ولقد حاول ملكشاه التحالف مع الكسيوس ١٠٩٢ م ضد سلاجقة الروم ، ولكن مالبث أن توفى قبل أن يحقق هذا التحالف . وترتب على وفاته انقسام امبراطوريته بين أبنائه وكان له أربعة أبناء هم بركياروق ومحمد وسنجر ثم محمود[١] . تنازعوا كالمعتاد فيما بينهم وانتهى الأمر بتولية بركياروق ، ولكن مالبث أن نشب خلاف بينه وبين عمه تتش وبعد صراع وحروب طويـــلة انتهى الأمر بهزيمة تتش ومصرعه ١٠٩٥ م[٢] . ولكن باركياروق كان ضعيف الشخصية ولم يكن باستطاعته مواجهة الموقف الجديد المتمثل فى الحروب الصيلبية .

وكان بركيار، ق قد اكتفى بحكم فارس وبغداد أما الشام فإن ولدى تتش وهما فخر الملوك رضوان حكم حلب ، وشمس الملوك دقاق تولى دمشق . وكانت تنقصهم المقدرة السياسية والحربية . وفى ١٠٩٦ م انقسمت دولة السلاجقة إلى خمس ممالك متنافسة[٣] سلطنة فارس وعلى رأسها السلطان بركياروق الذى كانت له السيطرة على بغداد ومملكة خراسان ، وماوراء النهر ويحكمها سنجر ، ومملكة حلب يليها رضوان ، ودمشق على رأسها دقاق وسلاجقة الروم ويحكمهم قلج أرسلان[٤] إلى جانب عدد من الأتابكيات .

كل هذه العوامل فتتت من قوى السلاجقة ولم تجعلهم قوة متحدة

---

(١) ابن الأثير : الكامل حوادث سنة ٤٨٥ هـ

(٢) ابن القلانسى : ذيل تاريخ دمشق ص ١٣٠

(٣) سعيد عاشور : الحركة الصليبية جـ١ ص ١١٤

(٤) ابن واصل : مفرج الكروب فى أخبار بنى أيوب جـ١ ص ١٦

تستطيع الوقوف فى وجه أى غزو أجنبي بل إن العلاقات بين سلاجقة الروم وبين ملكشاه كانت سيئة منذ مقتل سليمان . وازدادت فيما بعد ، بعد مقتل قلج أرسلان ثم قطع الصليبيون الطرق بين قلقية والرها فانقطعت الصلة بين سلاجقة آسيا والشام .

كل هذه العوامل دفعت الامبراطور الكسيوس بعد أن تخلص من الخطر المباشر على عاصمته ووطد مركز امبراطوريته إلى أن يوثق صلاته بالبابوية وأصبح مستعدا لأن يشن هجوما يستعيد به آسيا الصغرى من أيدى الأتراك ولإدراكه صعوبة استعادة تلك الأقاليم منفردا فقد سعى لمساعدة الغرب الأوربى فكانت الحروب الصليبية .

الفصل الرابع

سلاجقة الروم والحروب الصليبية

السلاجقة والحملة الصليبية الأولى :

لم يكن الكسيوس كومنين أول من فكر فى الاستعانة بالقوى الغربية فلقد سبقه إلى ذلك ميخائيل السابع ، حين أرسل ١٠٧٤ م يستنجد بالبابا جريجورى السابع ضد الأتراك السلاجقة فى مقابل إعلان اتحاد الكنيستين ولقد رحب البابا بهذا العرض ، ولكن لم يستطيع أن يخرج الاتفاق إلى حيز الوجود لانشغال البابا بخلافه مع الامبراطور هنرى الرابع (١) .

وتجددت الدعوة فى عهد الكسيوس ، وكان الامبراطور يأمل من وراء المساعدة من الغرب أن يتوافر له من الجند المرتزقة ما يعينه على طرد الترك من آسيا الصغرى فلم يقصد بما طلبه من الغرب من مساعدة إلا الإستيلاء على ما بأيدى المسلمين من أراضى ولم ير فى الجيوش الغربية غير جند مأجورة ، وخاصة أن أحوال الامبراطورية كانت فى وضع مطمئن ، بل إن الامبراطور كان يعد حملة لمواجهة الترك فى آسيا الصغرى (٢) .

ولقد كانت هذه نقطة الخلاف الجوهرية بين كل من البابوية والامبراطورية فالبابا لم يشأ أن تكون الحركة الصليبية فى خدمة الدولة البيزنطية ، بل أرادها حملة تتولى تقديم المساعدة لمسيحيى الشرق ، وخاصة لما كان يعانيه الحجاج من سوء المعاملة على أيدى الأتراك ، وبسبب

(١) عن الحروب الصليبية ارجع : Anna Comnena : The Alexiad trans A . S . Dawes. Gesta FranCourm, Michel Le Syrien. Foucher de Chartres : Hist des Croiades, Michaud Hist des croisades

(٢) يذكر أوستروجورسكى أن بعض المؤرخين اللاتين حاولوا نفى أن الكسيوس استدعى الصليبيين Ostrogorsky op.cit p 321

الاضطراب الذى ساد فى الشام بسبب الصراع بين السلاجقة بعضهم وبعض وبينهم وبين الفاطميين والعرب [١] ، إلى جانب أنه رأى أن ضعفه بيزنطة يعتبر ضعفا للعالم المسيحى فسعى لحشد جيش نظامى ، لا أن يبعث بجيوش مرتزقة تعمل لصالح بيزنطه .

ولقد أرسل الكسيوس مندوبيه إلى مؤتمر بياكنزا ١٠٩٥ م ، وكان هناك تقارب سابق بين البابا أوربان والامبراطور ، فقد رفع البابا قرار الحرمان الصادر ضد الكسيوس ١٠٨٩ وقامت مفاوضات لانهاء الخلاف بين الكنيستين الشرقية والغربية . وفى مجمع كلير مونت ١٨ نوفمبر سنة ١٠٩٥ جرت الدعوة للحروب الصليبية وذهب رسل الامبراطور الكسيوس إلى هناك ، حيث أوضحوا خطر السلاجقة على المسيحيين بوجه عام [٢] . وخاصة لما تعرض له بيت المقدس على يد اتسيز وارتق ١٠٧٦ — ١٠٧٧م أثناء محاولتهم الاستيلاء عليه من أيدى الفاطميين . فذكروا أن الترك اعتراهم الضعف ، وإن باستطاعة الامبراطور التصدى لهم ولكن انشغاله بأمور أخرى دفعه لطلب المساعدة من الغرب ، واستجاب البابا لطلبهم ودعا لحملة صليبية يكون هدفها تحرير الأماكن المقدسة ، ووعد بغفران ذنوب من يشترك فيها ، وطلب البابا إلى العالم الغربى أن ينهض لمساعدة المسيحيين الشرقيين فى الأمبراطورية البيزنطية لأن الترك بلغوا فى زحفهم ذلك الجزء من البحر المتوسط الذى أطلق عليه ذراع القديس جورج [٢] . فأكثر ما يأمله الحجاج المسيحيون ، أن يتوجهوا إلى بيت المقدس ليؤدوا الشعائر [٣]

(١) ابن الأثير : الكامل جـ ١٠ حوادث سنة ٤٨٦ هـ

ابن واصل : مفرج الكروب فى أخبار بنى أيوب جـ ١ ص ١٠٩ — ٢٧

(٢) Runicman : History of the Crusaders p 106

Chalandon : op cit vol I p 109

(٣) Michel le syrien : op. cit I p 326

ولم يكن الصليبيون إلا حجاجا محاربين ، ساروا ليفتحوا الطريق إلى بيت المقدس ، بعد أن أوصده فى وجوههم السلاجقة ، وليستردوا المدينة المقدسة ، ولم يتخذ الحجاج من قبل السلاح أثناء سيرهم للحج ، أما عساكر المسيح فاضحوا حجاجا قاموا بحرب هجومية .

ومنذ البداية بدأت بذور الشقاق بين الطرفين تنمو ، ولقد استقبل البيزنطيون الحملة بشعور الارتياب وعدم الثقة ، وقد أكدت تصرفات الصليبيين هذا الشعور(١) .

وأول ماوصل إلى بيزنطة كانت « حملة الشعوب » التى تولى قيادتها بطرس الناسك ووالتر المفلس ، وتألفت من جموع غير منظمة واتخذوا الطريق الشمالى إلى بيزنطة ووصلت القسطنطينية أول أغسطس سنة ١٠٩٦م ، ولقد صدم الامبراطور بمرأى هذه الجموع إذا عمدت إلى السلب والنهب خلال اجتيازها أراضى الامبراطورية . فسارع الامبراطور بنقلهم عبر البسفور إلى آسيا الصغرى(٢) .

وكان من الطبيعى ألا تصمد تلك الأشتات أمام الترك ، فقد بلغوا أبواب نيقية عاصمة السلطان السلجوقى ، ونهبوا المناطق المجاورة وتصدت لهم فرق من الجيش التركى ولكنها هزمت مما شجعهم على التوغل فى أراضى السلاجقة حتى بلغوا قلعة Vekigoerdon فحاصرتهم القوات التركية وهزمتهم(٢) ، مما لجأ بطرس إلى العودة إلى القسطنطينية ، ولكن بقية

---

(١) Chlandon : Hist de la Premiere Croisadcs P44

Ostrogorsky op cit p32I

(٢) Ostrogorsky. of cit p32I

(٣) Runi Cmap oP. Cit Vol 1p131

جيشه اشتبك مع الترك عند دوريلكون ولم ينج منهم إلا عداد قليلا . ولكن حملة الأمراء حققت ما اراده الامبراطور ، وبدأ وصول الجيوش النظامية سنة ١٠٩٦ م واستقبلت بيزنطة زهرة فرسان أوربا ، [١] فكان يقودها جودفري بوايون دوق اللورين ، والكونت ريموند من تولوز ، هيجو فرماندو ، اخو ملك فرنسا وروبرت النورماندى اخو ملك انجلترا وابن وليم الفاتح وروبرت ابن روبرت فلاندر وبوهمند النورمانى إبن روبرت جويسكارد ولقد رأى الامبراطوران يسارع بالاستفادة من الحملة بخدمة اغراضه فطلب من الأمراء أن يقسموا له يمين الولاء الذى ينص عل الاعتراف بالامبراطور سيدا أعلى على كل ما يفتحونه من بلاد ، وأن يسلموا لموظفى الأمبراطور كل ما يستردونه من بلاد ، كانت اصلا ملكا للأمبراطوريه [٢] .

وفى المقابل وعد الأمبراطوز بإمدادهم بالمؤن والعتاد ، بل وعد بالانضمام اليهم متى سمحت ظروفه ليكون على رأس الجيش وقبل الصليبيون أن يقسموا للامبراطور وإن كان جودفرى قد اقسم بعد مفاوضات طويلة ، وكذلك بوهمند الذى حاول الحصول على شروط افضل من الأمبراطور ، وعلى منحه لقب domesticus . دمستق الشرق ولقد وصلت جموع النورمان إلى آسيا الصغرى تحت قيادة ابن اخيه تنكرد [٣] .

غير أن تنفيذ هذا اليمين كان يتوقف على حفاظ الصليبيون على عهد الولاء ، وعلى المقعود به الأملاك السابقة الأمبراطورية . ولقد أمد الأمبراطور الجيش الصليبي بفرقة بيزنطية يقودها القائد تاتكيوس [٤] .

(1) Runicman : op· cit vol I p 142
(2) Runjcman : The History of the Crusadcs vol. P170
(3) Camb med. Hist vol p281
(4) Grousset · Hist des Croisades 1 p 21

إذ أن البيزنطين كانوا أقدر على معرفة الطريق وطبيعة الأراضى فى آسيا الصغرى بحكم خبرتهم واتجهت الجيوش إلى نيقية عاصمة السلاجقة ، والمدينة تقع على بحيرة اسكانيوس غير بعيد من بحر مرمره على الطريق الحربى البيزنطى القديم الذى يجتاز آسيا الصغرى ، وكانت استحكاماتها قوية وبها حامية تركية إلى جانب موقعها الاستراتيجى وتحكمها فى سائر الطرق التى تجتاز الاقليم (١) ، ولم يكن قلج ارسلان فى عاصمته إذ أنه كان مشغولا أنذاك بحصار ملطية . ولم يستطع فهم طبيعة الحملات الصليبية ولم يعطها بعدها الحقيق . إذ أنه ظن أنها لا تتعدى أن تكون غزوة تقوم بها جموع متفرقة تفتقر للمقدرة الحربية كما حدث بجموع بطرس الناسك (٢) ، وما أرسله السلطان من قوات وامداد لم يصل إلا متأخراً بعد محاصرة الصليبيين لنيقية .

ولقد حاصر جود فرى السور الشمالى للمدينة وقام تانكرد وبطرس الناسك بحصار السور الشرقى وريموند السور الجنوبى، وكان معهم طائفة من المهندسين البيزنطيين، (٣) ثم وصلت جيوش روبرت النورمندى وستيفن بلوا ولقد فوجئت القوات التركية التى أرسلها السلطان بذلك الحصار المحكم للمدينة ، فارسلوا إلى السلطان يشرحون له الأمر فاضطر لعقد هدنة مع الدانشمندين ليضمن عدم تشتت جوده ، وحاول شق طريقه إلى عاصمته ولكنه فشل فانسحب إلى الجبل (٤)، وترك الحامية لمصيرها ولتتخذ ما تراه صالحا . واستمر الهجوم على المدينة وأرسل الصليبيون يطلبون المساعدة من الامبراطور ، فأرسل إليهم أطول بقيادة Butumitess .

---

(١) Runicman . Hist of thecrusades. PI79

(٢) Setton . op. cit. I p189

(٣) Grousset . oP cit vol I p27

(٤) Runicman . op. cit pI80

ولقد حاول الامبراطور التفاوض منفردا بعيدا عن الصليبيين مع الحامية التركية . وأخيرا اضطرت الحامية للتسليم ، وفق الاتفاقية التى نصت على التسليم للامبراطور فى مقابل الإبقاء على حياتهم وفى ١٩ يونيو ١٠٩٧ ، دخلت قوات الامبراطور من البجناك إلى فينقية ، ولقد سقطت فى أيديهم زوجة قلج أرسلان ونفائسه وأرسل كل هذا للعاصمة القسطنطينية(١) .

ولم يسمح الامبراطور للصليبيين بنهب المدينة أو الحصول على فدية مقابل زوجة السلطان وأولاده ، فانبعثت الكراهية بينهما . واسترد الامبراطور الكسيوس سامرنا ، افسيوس ، سارديس ليديا وعدد من المدن وسيطر البيزنطيون على غرب آسيا الصغرى (٢) ، وبعد استيلائهم على نيقية استقبل الامبراطور الصليبيين فى بلكانيوم وجدد يمين الولاء ثم اتجهت الجيوش الصليبية مصحوبة بالفرق البيزنطية فى يونيو ١٠٩٧ إلى الطريق الذى يخترق آسيا الصغرى من الشمال الغربى ، إلى الجنوب الشرقى ويمر بأنقره فى طرفها الجنوبى ثم يتفرع بعد اجتياز نهر هاليس إلى طريقين أحدهما يمضى إلى أرمينيا ، أما الطريق الأخير فيجتاز جبال طوروس إلى وادى الفرات ، وإلى فينقية ، واتخذ الصليبيون الطريق عبر ضريليوم قونية ، قيصرية(٣) .

وهذا النصر شجع المدن الإيطالية التى ترددت فى البداية إلى الاشتراك فى الحملات(٤) ، ولقد تقرر تقسيم الجيش الصليبي قسمين : تقدم أحدهما الآخر بسبب المئون وتألف الجيش الأول من النورمان بقيادة ريموند ،

---

(١) Camd .Hist of Islam p239

(٢) Crousset . Hist de Croisades p29

(٣) Catrogorsky . op . cit p323

(٣) Runicman . op. cit vol p179

وجودفرى بوايون والمندوب البابوى ادهمار ، ووصل النورمان أولا إلى سهل ضربليوم وهناك التقوا بالأتراك . وكان سقوط نيقية دافعا لجميع العناصر التركية فى آسيا الصغرى للتحالف وترك الخلاف فتصالح السلطان قلج أرسلان مع الأمير غازى دانشمند وحسن أمير قبادرقيا ، وقامت خطتهم على أساس مفاجئة الصليبيين أثناء اجتيازهم للدرب ، وكانت قوات بوهمند فى سهل اسكى شهر قرب ضوروليوم ، وأحاطت قوات الأتراك بالصليبيين من كل جهة وفرضت حصارا كاملا على جيش بوهمند ولكن وصول جيش جودفرى ثم ريموند غير الموقف[1]، فبدأ الصليبيون يعدون للهجوم واستطاع أدهمر الذى افترق عن الجيش الصليبى الرئيسى أن يهاجمهم من التلال خلفهم ، إلى جانب ما عانوه من نقص المؤن والعتاد ، وأدى هذا إلى رجحان كفة الصليبيون ، واضطر الترك إلى الانسحاب وترك معسكرهم الذى استولى عليه الصليبيون بما يحويه من نفائس ، ومعظم القتلى كانوا من جند الأمير حسن حتى سميت الجبال باسم Hasandagh (أى مقبرة حسن) .

ورغم أن هذه الانتصارات قد حطمت اسطورة الجيش التركى فإن الصليبيين شعروا بالتقدير لمهارة العسكرية التركية فذكر المؤلف النورمانى لكتاب Gesta Francorum أنه لو كان الترك مسيحيين لاعتبرهم من أنقى العناصر وأكثرها شجاعة وأن أصل الفرنج والترك يعود إلى الطرواديين[2] .

وفى نفس الوقت شعر الترك بقوة الصليبيين الحقيقية وصعوبة مواجهتهم فاتخذوا سياسة تقوم على اخلاء المدن وتخريبها ، حتى لا يجد الصليبيون

(1) Setton . op. cit. 1 . p 291
(2) Gesta Francoram 955
Albert d, Aix p 328 - 324
William of Tyre p 129

فيها ما يعاونهم على الاستمرار فى زحفهم ومن ناحية أخرى ازدادت الهوة بين الصليبيين والبيزنطيين بسبب ما حدث فى ضريليوم من أحداث ، فقد أراد الصليبيون أن يجتازوا الطريق الحربى المؤدى إلى الشرق عبر مدن تخضع للدانشمند وعدد من الأمراء الأتراك الذين ما زالت جيوشهم سليمة لم تشترك فى قتال فعلى ، ولكن البيزنطيون بقيادة تاتيكوس نصحوهم باجتياز طريق يجاور الجبل والذى يقع جنوب الصحراء ، وكان الطريق قد دمرته غزوات الأتراك (١) فلم يعد صالحا فاضطر الصليبيون إلى العودة إلى الطريق الأول ، ولكن خلال الطريق هلك عدد كبير من خيولهم وعانى الجيش الكثير من المشاق بسبب قلة الزاد وعدم وجود الماء الكافى ووصلوا إلى قونية ١٠٩٧ م وكان السلطان قد اتخذها عاصمة بعد سقوط نيقية ، ولم يحاول السلطان الدفاع عن المدينة إنما انسحب منها بعد أن خربها حتى لا يجد الصليبيون فيها ما ينتفعون به ، ولكن الأرمن بالمدينة قدموا لهم يد المعونة وزودوهم بما يحتاجونه من مؤن ، وبعد ذلك اتجهوا إلى هرقلة ، وكان بها الأمير حسن أمير قبادوقيا وأمير الدانشمند وانسحب الترك كالمعتاد (٢) .

وبعد أن استراح الصليبيون عدة أيام فى هرقلة انقسموا قسمين ، فقام فريق بقيادة تانكرد وبلدوين شقيق جودفرى واتجهوا إلى قليقية ثم سهل (٣)

---

(١) Gesta Francorum p 61

(٢) Albert d, Aix. p 338 - 329

William of Tyre op cit p 30

(٣) Grousset : op. cit vol. I p 247

Setton; op cit vol . I p 245

Runciman : op. cit p 188

طرسوس ، أما الجيش الآخر فاتجه إلى الشمال الشرق إلى قيصرية ثم إلى كومانا وكوكوكسون وسكانها من الأرمن وقد وجد الصليبيون فى الأرمن والمسيحيين بوجه عام الخاضعين للترك خير عون وكانوا يمدونهم بالمؤن والعتاد ثم عبروا جبل اللكام إلى مرعش ولقد فقدوا فى هذا الطريق كثير من دوابهم ، ولاقى عدد كبير مصرعه بسبب الأمطار والمنعطفات والمنحدرات ، وكان يحكم المدينة موظف أرمنى تابع لبيزنطة وأقرتاتيكوس حاكمها ومن هناك اتجه الصليبيون إلى الشام[١]

وبذلك حققت الحملة ما أراده الامبراطور من تحطيم قوة الترك واستعادة آسيا الصغرى لبيزنطة ففى نفس الوقت الذى اتجه فيه الصليبيون إلى أنطاكيه كان الكسيوس يطهر الساحل الجنوبى لآسيا الصغرى من البقايا التركية بعد سقوط نيقية وانشغال السلاجقة وأتراك الأناضول بأمر وسط وشرق آسيا الصغرى ، اهتم الامبراطور باستعادة الجزء الغربى من الأناضول وخاصة بعد أن ضعفت قوة الأتراك وتشتت جيوشهم نتيجة لهزائمهم أمام الصليبيين ، ويقال أن الامبراطوار أراد فى نفس الوقت المحـــافظة على مواصلات الصليبيين ومؤخرة جيشهم ، وصلاتهم بالبيزنطيين[٢] .

ولقد أوفى الصليبيون بوعدهم للامبراطور فسلموه مافتحوه من مدن فى آسيا الصغرى يولى عليها من يشاء فأرسل الامبراطور صهره حنا دوكاس على رأس جيش يسانده أسطول بقيادة كاسباكس KasPax فاستولى على ساحل أيونيا وفريجيا[٣] .

---

(١) Grousset : Hist des Croisades vol 1p30

(٢) Runicman · op. cit, vol 1p194

(٣) Grousse. Hist. des Croisades vol I41

وكان الأتراك يشعرون بعدم جدوى المقاومة وخاصة أن الامبراطور أرسل مع الجيش المهاجم زوجة قلج أرسلان الأسيرة والتى كانت فى نفس الوقت شقيقة زاخاس أمير أزمير الذى يسيطر على جزائر لسبوس وخيوس وساموس وسائر المدن الغربية فى الساحل[١] .

وأمام التهديد البيزنطى استسلم زاخاس وانسحب إلى الشرق فى مقابل تسليم أخته إليه ، فاستولى قائد الأسطول البيزنطى على لسبوس وخيوس وساموس ، أما حنا فاستولى على البلاد الداخلية مثل سرديس وفلادلفيا ولادوقيه ، وانتصر على عدد من الفرق التركية عند بلوادين ، واستولى الامبراطور على بثينيا ، وكان هدف الامبراطور السيطرة على الطريق من Polybolus إلى أضاليا ثم يتجه إلى الشرق عبر ساحل آسيا الصغرى ويؤمن بذلك طريق المؤن إلى الشام[٢] .

وكان على الامبراطور أن يتجه بعد ذلك إلى قليقية ثم إلى الشام حيث كان الفرنج يحاصرون أنطاكيه ، وأقام فعلا معسكره فى فيلو ميلون [٣] ١٠٩٨ م ولكن جاءته أنباء عن نشوب خلاف بين الصليبيين وفرقه جعلته يتراجع عن ذلك . ومع كل فإن بيزنطة تعتبر قد استردت الأناضول ثانية .

وأزال الصليبيون مالحق بيزنطة من هزيمة فى مازكرت ١٠٧١ م وتحطمت أسطورة الترك ولقد احتفظت بيزنطة ببعض مناطق آسيا الصغرى للقرون الثلاث التالية[٤] .

---

(١) Camb Hist of Islam vol p239
(٢) Runicman , op. cit vol I p143-144
(٣) Grousset op. cit vol p1191
(٤) Runicman op cit vol I p224

وسهولة سقوط الأناضول أمام الصليبيين يرجع إلى عوامل عدة منها ضخامة الجيوش الصليبية بالنسبة للأتراك الذين لم يكونوا يعملون تحت قيادة موحدة بل كان العداء على أشده بين سلاجقة الروم والدانشمند إلى جانب عدم انضمام القوى فى الشام والعراق إليهم لعدم تفهم بعضهم لهدف الحملة الصليبية ولإنشغالهم بقتال بعضهم البعض ، ولا ننسى الدور الذى قام به الأرمن والمسيحيين الخاضعين للترك من مد يد المعونة للصليبيين [١] . وأن كان استيلاء بيزنطة على الأناضول يعنى نهاية الوفاق مع الصليبيين .

الخلاف بين بيزنطة والصليبيين :

انتهى الوفاق البيزنطى الصليبي نتيجة لمشكلة انطاكية التى أوضحت الفارق بين وجهتى النظر البيزنطية والصليبية ، واتجه تنكرد النورمانى وجود فرى بوايون إلى قليقة فى ٢١ سبتمبر ١٠٩٧ م ، وكانت تخضع لفلارتيوس الأرمنى ثم استولى السلاجقة عليها وان احتفظ الأرمنى ببعض المدن [٢] .

أما الجيش البيزنطى الرئيسى فاتجه إلى انطاكيه حيث وصل فى ٢١ أكتوبر ، وكانت انطاكيه كما سبق أن ذكرنا تتبع بيزنطة بل عاصمة الأملاك البيزنطية فى الشام ثم انتزعها سليمان بن قتلمش ١٠٨٥ م ، وأثناء هذه الفترة كان يلى حكمها باغى سيان أحد قادة الترك الذى ولاه تتش [٣] ، ولم يستطع رضوان بن تتش استعادتها . ولقد استمر حصار الصليبيين للمدينة سبعة أشهر واستنجد باغى سيان بالقوى الاسلامية ، ولكن الخلاف بين تلك القوى أضعف شأن العالم الإسلامي ولم يجعلها تتخذ خطوات ايجابية ،

---

(١) Ostrogorsky, op. cit p378

(٢) Grousset . op. cit vol Ip43

(٣) ابن القلانسى : ذيل تاريخ دمشق ص ١٢٤

فالخلاف كان قائماً فى الشام بين الفاطميين والأتابكة والأمراء المستقلين والسلاجقة بل حاول الفاطميون التحالف مع الصليبيين . لعدم فهمهم للهدف من الحروب الصليبية ، حتى الجيوش الإسلامية التى تقدمت لنصرة المدينة كانت جيوش فردية كقوات أمير شزر[١] .

ولقد حاول بوهيمند النورمندى استغلال الأوضاع أثناء الحصار للفوز بالمدينة وخاصة بعد نشوب نزاع بينه وبين ريموند تولوز فأراد التخلص من كل أثر للنفوذ البيزنطى[٢] .

وبدأ بالتخلص من تاتيكيوس القائد البيزنطى لكى يحرم بيزنطة من أى فضل فى الاستيلاء على المدينة فأساء إلى تاتيكيوس حتى أضطره للانسحاب بدعوى احضار مؤن ، وأوهم بوهيمند بقية الأمراء الصليبيين بأن الامبراطور الكسيوس يكيد لهم ويتحالف مع السلاجقة . وزعم أن الامبراطور أخل بشروط يمين الولاء وتخلى عنهم بفرار تاكتيوس[٣] ، وعدل عن امدادهم بالمؤن واستطاع بوهيمند الحصول على وعد من الصليبيين ، بأنه من حقه الانفـــراد بالمدينة إذا كانت قواته أول من يدخل إليها ، ومالم يتقدم الامبراطور لنجدتهم ، وأخيرا سقطت المدينة فى ٣ يونية ١٠٩٨ م عن طريق خيانة أحد قادة ياغى سيان وهو فيروز الأرمنى[٤] ، واعترف الجميع بحق بوهيمند عدا ريموند الذى أصر على استدعاء الامبراطور ، واستجاب الصليبيون وأنفذوا سفارة لالكسيوس تسأله

---

(١) Ostrogorsky. op, cit p323

(٢) Grousset . Hist. des Croisadesvol Ip73

Setton . op. cit. vol 1.p313

(٣) setton . op. cit. vol I p314

(٤) Ostrogorsky op cit p324

القدوم ، ولكن ظروف الإمبراطور منعته من الحضور وبذلك اضاعت فرصته فى استرداد أنطاكية وقام الكسيوس بالاحتجاج غير أن بوهمند لم يأبه لذلك ، ولم يسع الإمبراطور إلى اتخاذ خطوة إيجابية وخاصة أنه كان هناك تقارب وتفاهم بين كلا من الإمبراطور وريموند تولوز (١) رغم أن الأخير فى البداية قد رفض أن يقسم له يمين الولاء إلا أنه سلم إلى الإمبراطور المنافذ البحرية الطبيعية لأنطاكية وهى اللاذقية ، وجالاتيا وقليقية ، فأرسل جيشاً لانتزاع قليقية ومهاجمة أنطاكية ، غير أنه لم يستول إلا على مرعش ، نظراً لأن الأرمن بقليقية كانوا يؤثرون الفرنج على البيزنطيين ، ولما اتجه الصليبيون نحو جنوب فلسطين توقفت مساعدة بيزنطة الفعلية للحملة ، بل زاد الأمر سوءاً بين الكسيوس والصليبيين ، بينما حاصر الصليبيون بيت المقدس سقطت فى أيديهم رسائل متبادلة بين الفاطميين والكسيوس .

ولقد قام الصليبيون فى الشرق الأدنى فيما بين ١٠٩٧ م — ١٠٩٩ م بإقامة أربع إمارات هى الرها وأنطاكية وبيت المقدس وطرابلس . وجميع تلك الإمارات مستقلة لا تدين بالولاء لبيزنطة ، ولقد أدى هذا لتغيير موقف بيزنطة من الحملات الصليبية ، وبدا هذا واضحاً من موقفها من حملة سنة ١١٠٠ م فلم تنس لبوهمند موقفه ، فرغم أنه أسر على يد الملك غازى دانشمند فى يوليو سنة ١١٠٠ م عقب هزيمة الجيوش الصليبية فى ملطية (٢) فإن تنكرد ابن أخيه سار على نفس سياسة خاله من العداء لليونان (٣)

---

(١) ابن الأثير الكامل حوادث سنة ٤٩١ هـ .
ابن العديم : زبدة الحلب ج ٢ ص ١٣٤ .

(٢) Camb. Hist. of Islam Vol I, p. 239 66 Ostrogorsky op. Cit. p. 323

(٣) Runciman op cit vol I p 300

السلاجقة وحملة ١١٠٠ م :

نتيجة لنجاح الحملة الصليبية الأولى فإن الغرب الأوربى وفرسانه فقد بدأت أفكارهم تتجه إلى الشرق وأراضيه، فى نفس الوقت الذى استدعت فيه أحوال الإمارات الصليبية قدوم حملة صليبية جديدة. فلقد تناقص عدد الرجال واشتدت إغارات المسلمين عليهم (١)، وفى عام ١١٠٠ م وصلت حملة إلى القسطنطينية يقودها انسلم رئيس أساقفة ميلان وجيوبرت وهيومن الأمراء، وانضم إليهم فيما بعد وليم التاسع كونت بواتييه وآلاف من اللومبارديين والفرنسيين، ولما وصلت الحملة إلى القسطنطينية تولى قيادتها ريموند كونت تولوز (٢)، ولكن أصر أفراد الحملة على الاتجاه إلى أملاك الدانشمند لإطلاق سراح بوهمند الذى أسره غازى كمشتكين فى قلعة نيكسار على البحر الأسود، وأمام إصرار اللومبارديين استجاب الإمبراطور رغم أنه أراد فى البداية استغلال تلك الحملة فى تأمين الطريق إلى سوريا. وبذلك يأمن ممتلكاته فى شرق آسيا، ولقد رحب الكسيوس بالتخلص منهم لقيامهم بأعمال النهب والسلب فى ضواحى القسطنطينية ونصحهم باتخاذ الطريق عبر نهر ضرليوم وقونية كالحملة الأولى (٣)، ولكن اللومبارديين أصروا على مهاجمة الدانشمند وأراضيه، وحدثت الموقعة الفاصلة فى أغسطس ١١٠١ م — بين أماسيا وسيواس بين غازى دانشمند وحليفه رضوان ملك حلب وبين الصليبيين وهزم الصليبيين وفر اللومبارديون مع أول اشتباك واضطر ريموند والقوات البيزنطية إلى الانسحاب ولحقت

---

(١) Runicman : op. cit vol Ip 3 1

(٢) Runicman : op. cit vol 2p. 19

(٣) Setton. op. cit vol 2p: 343

بقية الجيوش الصليبية بعد أن عانت الأمرين وغنم منها السلاجقة الكثير [1] . ويقال إن عدد القتلى تجاوز المائة وستين ألف ، ولقد حاقت بالحملة التي يقودها وليم الثاني كونت Nevers والحملة التي يقودها دوق اكوتين هزائم مماثلة على أيدى أتراك الأناضول [2] وترتبت على هذه الحملة نتائج أهمها استعادة السلطان السلجوقي لنفوذه فى آسيا الصغرى . واتخاذه قونية عاصمة له مرة أخرى وتهديده للطريق الرئيسى بين القسطنطينية والشام ، كما مد غازى الدانشمندى نفوذه إلى الفرات وأصبح يهدد الرها ، وأصبح الطريق إلى آسيا الصغرى موحداً مرة أخرى أمام الصليبيين والبيزنطيين .

ولقد ألقى الصليبيون مسئولية الهزيمة على عاتق بيزنطة فى حين اتهمتهم بيزنطة من جانبها بأنهم لم يتبعوا خطط الإمبراطور البيزنطى ، ونتج عن إغلاق الطريق أنه تحتم على الصليبين عند توجيه أى حملة أن يسلكوا الطريق البحرى ، واستفادت من ذلك المدن الإيطالية كجنوة والبندقية ، إذ أن الطريق المتاح كان وعراً متعرضاً لهجمات الترك [3] .

وإن كان البيزنطيون قد استغلوا ضعف اللاتين واستطاعوا السيطرة على قلاع طرسوس وآذنه والمصيصة [4] . واستطاع أسطولهم السيطرة على لاذيقا والمدن الساحلية إلى طرابلس .

ولقد تلى المعركة اتخاذ الإمبراطورية موقف عدائى علنى من القوى الصليبية . وقد أرسل الكسيوس إلى سلطان السلاجقة ببغداد يحثه على

---

(١) Grousset : op. cit volI p 325

(٢) سعيد عاشور : الحركة الصليبية ج ١ ص ٣٥ .

(٣) Ostrogorsky : op. cit p. 325

(٤) ابن القلانسى : ذيل تاريخ دمشق ص ١٩ .

قتال الفرنج ، ووصلت سفارته وقت وصول أهل حلب ، فاشتد أهل حلب فى حث السلطان على الجهاد ، أما تتق الله تعالى أن يكون ملك الروم أكثر حمية منك للإسلام حتى لقد أرسل إليك فى جهادهم ، (١) وتضمنت رسالة الإمبراطور البيزنطى للسلطان وللخليفة العباسى عرض التحالف بين البيزنطيين والمسلمين ، كما تضمن الاشارة من طرف خفى إلى نوايا الصليبيين . وكانت هذه السفارة تهدف إلى القيام بجهد مشترك بين بغداد وبيزنطة ضد الصليبيين ، وكان هدف الإمبراطور إضعاف كلا الجانبين وخاصة بعد أن تأكد أن لا أمل له فى استعادة أنطاكية .

آسيا الصغرى بعد الحملة الصليبية الأولى :

إذا نظرنا إلى خريطة آسيا الصغرى بعد نهاية الحملة الصليبية الأولى ، نجد أن الأوضاع لم يحدث فيها تغيرات جوهرية ، فلم يسيطر الكسيوس إلا على الجزء الغربى فضلا عن الساحلين الشمالى والجنوبى بينما سيطر الترك على الداخل ، ولقد عقد الإمبراطور اتفاقية مع قلج أرسلان ضد الصليبيين . وبهذا تفرغ قلج أرسلان للاتجاه إلى الشرق وبدأ بالاستيلاء على ملطية ٤٩٦ هـ — ١١٠٣ م من يد غازى كمشتكين ، ثم وجه جنوده إلى شرق الأناضول . وأجبرهم على الاعتراف بسلطانه ، ثم نشب صراع بينه وبين سلاجقة العراق حين اجتاح الموصل ، واشتبك فى معركة على نهر الخابور ضد جيش أرسله السلطان محمود حين لقى مصرعه كأبيه فى شوال ٥٠٠ هـ — يوليو ١١٠٧ م ولقد ترك العرش فى قونية خالياً لأن أكبر أبنائه شاهنشاه ملكشاه أخذه حاكم الموصل إلى أصفهان أسيراً وظل هناك إلى (٥٠٤ هـ — ١١١٠ م) (٢) واستغلت بيزنطة هذه الفرصة للتوسع على طول

---

(١) ابن القلانسى : ذيل تاريخ دمشق ص ١٧٩ ابن العديم : زبدة الحلب ج٢ ص ١٥٧ ابن الأثير : الكامل ج ١٠ ص ١٠١ حوادث ٤٩٦ هـ .

(٢) Camb. Hist of Islam vol I P. 239

الساحل . بل استطاعت مفاجأة جموع تركية معها نسائها وأولادها كانت تتحرك فى اتجاه وسط الأناضول وقضت الجيوش البيزنطية على كل من فيها .

وكان من الطبيعى أن يصطدم البيزنطيون بالدانشمنديين الذين زاد نفوذهم على بقيه العناصر التركية لضعف سلاجقة الروم . فسيطر غازى على وسط الأناضول واشتبك مع الفرنج والأرمن فى الجنوب ومع البيزنطيين فى الغرب ، وخاصة إمارة طرابزون فى الشمال الشرقى ، وفى قبادوقيا دخل الأمير حسن حاكمها فى ١١٠٧ فى صراع مع بيزنطة [١] . ولكن ملكشاه أكبر أولاد قلج أرسلان استطاع التخلص من أسر سلاجقة العراق ، واتخذ قونية عاصمة له ١١٠٦ — ١١٠٧م فتحالف معه الإمبراطور البيزنطى ضد حسن الذى تقدم فى اتجاه فيلادلفيا . وكان يسعى إلى الاستيلاء على أزمير ، وكان هدف ملكشاه من التعاون مع بيزنطة استرداد أراضى أسلافه التى وقعت فى يد الدانشمند . ولقد تصدى لحسن وقواته القائد البيزنطى Eustathins Philoces قائد غرب الأناضول واستطاع هزيمته واستعاد الجزء الغربى من الأناضول واحباط محاولة حسن واستنقاذ الشاطىء الإيجينى [٢] .

ولكن مالبث أن غير ملكشاه موقفه ووجه قواته ضد فيلاديفيا البيزانطية سنة ١١١٢ م ، والتحم مع القائد البينزنطى Gabras ثم اشتبك مرة ثانية فى سنة ١١١٣ م ، فقام القائد البيزنطى بهجوم سريع على بيثينا وأسوار قونية . ورد السلاجقة على ذلك بحصار القائد محمد لمـــدينة

(١) Setton : op. cit I p. 342.

(٢) punicman op-cit vol2 p. 139.

Poemarnum وقبض على قائدها البيزنطى . واتجه بعد ذلك إلى أبيدوس، وحاصر السلطان برجاله واستولى عليها . فقرر الكسيوس الخروج بنفسه لمواجهة السلاجقة ، وانتظرهم أثناء عودتهم محملين بالغنائم وفاجأهم ،واشتبك معهم قرب Gatyaeum ، ونجح فى استعادة الأسرى والغنائم .

وفى سنة ١١١٥ م ترددت الأنباء أن ملكشاه يستعد للحرب مرة ثانية وقضى الكسيوس السنة فى احتلال بيثنيا ، وفى السنة التالية قرر الإمبراطور أن يبدأ الهجوم رغم مرضه ، فاتجه جنوبا إلى قونية وانتصر البيزنطيون فى Philamelum ، واضطر ملكشاه لطلب الصلح واعترف بحدود بيزنطة التى امتدت من طرابزون إلى قليقية والمناطق غرب أنقرة[١] . ولكن تلى ذلك مقتل ملكشاه على يد أخيه مسعود بمعاونة حماه الأمير غازى كمشتكين ٤٤٩ هـ — ١١٠٥ م — « ٥٢٩ هـ —١١٤٣ م » ، وتقلصت أراضى مملكة سلاجقة الروم وأصبحت لاتتعدى ضواحى قونية وأصبحت تحت وصاية الدانشمنديين .[٢] كل هذه العوامل ساعدت حنا الثانى ابن الكسيوس الذى تولى سنة ١١١٨ م على التوسع على حساب الترك[٣] .

ضعف المملكة السلجوقية وتراجع الترك إلى قلب الأناضول :

تولى حنا الثانى (١١١٨ م — ١١٤٣ م)خلفاً لأبيه الكسيوس ويعتبر عهد حنا ومانويل هو الفترة التى بلغت فيها بيزنطة أقصى توسع وقوة وكانت نهايته بداية الانهيار للتوسع البيزنطى . ويعتبر حنا من أعظم أباطرة آل كومنين مهارة فهو قائد يتمتع بنظر ثاقب[٤] .

---

(١) Ostrogorsky op. cit p. 329

(٢) Camb. Hist. of Islam I.p. 240

(٣) أسد رستم : الروم ص ١٢٣

(٤) Ostrogorsky : op. cit p. 330

وكان يعرف كيف يحقق أهدافه ، سار على سياسة أبيه بإرادة حديدية ولكنه كان يختلف عنه حيث كان اهتمامه منصباً على الشرق فلم يضارع أباه فى الاهتمام بالجانب الأوربى، وبعدأن انتهى من مشاكله فى الغرب التى تتمثل فى الصراع مع البندقية التى احاطت تجارة بيزنطة بحلقة محكمة وهاجمت الإمبراطور فى البحر الايجينى فعقد محالفة معها ١١٢٢ م ، وفى نفس الوقت حقق نصراً فى البلقان على المجر ١١٢٢ ووضع حداً لغزواتهم وأجبر الصرب على السلم ثم اتجه إلى آسيا الصغرى ، إذ رأى أنه لابد له من تأمين حدوده واستعادة ما فقدته الإمبراطورية من أملاك وتطهير الطرق التى تجتاز الأناضول وتدعيم قواته فى المناطق التى تم الاستيلاء عليها فى الأجزاء الغربية عقب الحرب الصليبية الأولى ، وأن يمد الحد الداخلى صوب الشمال الشرقى حتى إقليم مشمطون [١] .

وكان فى هذا تهديد سافر للدانشمند وهم العدو الذى كان يمثل خطراً مباشراً على الوجود البيزنطى فى آسيا الصغرى ، فإن سلاجقة الروم لم يعد لهم بعد موت ملكشاه نفس التأثير الأول والفاعلية فى المنطقة ، وكان حنا الثانى عند توليه قد قام بالاستيلاء على مدن لاذيقا ، sozpolis [٢] ولكن الأمير الدانشمندى استغل فرصة انشغال الإمبراطور بأمر البجناك والصرب فى البلقان وبدعم من الأراتقة هزم دوق طرابزون ، وحليفه منجو شك حاكم shirau .

وأتاح النزاع الذى نشب بين مسعود وأخيه عرب حاكم أنقره وقسطمونى الفرصة أمام الأمير الدانشمندى للاتجاه إلى قونية حيث استولى على العرش ٥٣٠ — ١١٢٦ م ، فاضطر مسعود إلى الهرب إلى القسطنطينية

---

(١) Matthieu d, Edesse· p33

ostrogorsky : op cit Ip 33

(٢) Setton : op. cit vol IP· 437. Grousset : op cit vol.I p 362

حيث استقبله الإمبراطور استقبالا حسناً ولكن مسعود بمعاونة بيزنطة استطاع استرداد عرشه ، فلجأ عرت بدوره إلى قليقية ثم إلى القسطنطينية وبذلك أصبح الإمبراطور هو الحكم فى خلافات سلاجقة الروم [١] ، ومكنه هذا من استعادة قسطمونى واعترف له بالتبعية حاكما كنغرى ، وأماسيا ، وإن كان عكر عليه صفو انتصاراته هروب أخيه اسحاق حيث حيث قضى تسع أعوام يدبر ضده المكائد مع الأمراء المسلمين والأرمن ، ولقد استغل غازى الدانشمند [٢] هذه الفرصة ليتوسع على شاطىء البحر الأسود ، بل أن مسعود تقدم فى غرب الأناضول وأصبح سعود يسيطر على الجزء الجنوبى من شبه جزيرة الأناضول من سنجار إلى طوروس [٣] . أما غازى الدانشمند فكان يحكم من هاليس إلى الفرات ، والمنطقه بينهما فيحكمها أمراء مستقلون ولقد منح الخليفة وسلطان السلاجقة فى العراق غازى لقب ملك بصفته أقوى حكام الأناضول .

وفى عام ٥٢٩ هـ — ١١٣٤ م توفى الملك غازى الدنشمند وخلفه ابنه محمد ، وكان الإمبراطور قد اتجه بجهوده إلى الأرمن فى قليقية ١١٣٧ م واستطاع الاستيلاء على طرسوس وأذنه ومصيصة وهرب أمير أرمينيا ولكن قبض عليه وأرسل أسيراً إلى القسطنطينية ، وبذلك أصبح الطريق لسوريا مفتوحاً ، وحاصر الإمبراطور أنطاكية ١١٣٧ م واضطر حاكمها ريموند بواتيه لقبول الصلح مع الامبراطور .[٤] ثم حاصر حلب ولكن لم يستطع الاستيلاء عليها بسبب قدوم إمداد من قبل زنكى اتابك الموصل، واضطر الإمبراطور للانسحاب لتعرض بلاده لهجمات الدانشمندى الذى

(١) Camb. Hist. of Islam vol I p. 240

(٢) Ostrogorsky. op. cit. p. 324

(٣) Setton : op. cit p. 337

Grousset. op. cit. vol Ip. 85

(٤) ابن القلانسى ذيل تاريخ دمشق ص ٢٦٣

Setton op. cit vol 2' p. 439

حاولوا مد حدودهم على حساب الأراضى البيزنطية ، فاضطر الامبراطور السير إلى عاصمتهم نيكسار فى ٥٣٤ هـ — ١١٤٠ م وقرر الإمبراطور تطهير الأناضول منهم ، فى نفس الوقت الذى عزل فيه ثيودور جابراس دوق طرابزون ، ورحل إلى نيكسار بعد أن تكبد كثيراً من الخسائر فى شمال الأناضول وقد استمر حصار المدينة فترة طويلة تخللها العديد من المعارك بين الجانبين ولقد تسبب طول مدة الحصار فى إشاعة الفوضى والقلق فى الجيش البيزنطى ، وقام أحـــد الأمراء البيزنطيين بالهروب إلى معسكر السلطـان مسعود حيث اعتنق الإسلام وتزوج ابنة السلطان . ولقد دفع هذا بالإمبراطور لرفع الحصار والعودة عن طريق البحر الأسود إلى القسطنطينية ١١٤١ م ، ونتيجة لهذا تقدم مسعود فى الأناضول . ولقد أفاد من النزاع الذى تلى وفاة محمد الدانشمندى فى ٥٣٦ هـ — ١١٤٢ م والذى وقع بين ياغى بازان شقيق الملك محمد وبين ذى النون ابن محمد وسائر أفراد الأسرة ، فتقدم مسعود وحاصر ملطية وطرد الدانشمند من أراضيه ، واستعيدت اغلب الأناضول من الدانشمند إلى السلاجقة ، وبينما كان السلطان يمد حدوده إلى الشرق مستفيداً من النزاع بين أتابك الموصل والارانقة(١) اندفع التركمان فى غرب الأناضول عبر وادى الميندر وزحفوا على المناطق الزراعية ، وقضوا على الأمن والرخاء التجارى ، وخربت الطرق التى تربط بين المدن .

وفى تلك الأثناء توفى حنا كومنين وخلفه رابع أبنائه مانويل الذى نهج سياسة أبيه وجده فى محاولة استعادة نفوذ بيزنطة فى آسيا الصغرى(٢) . وقاد الإمبراطور جيشا كبيراً واتجه به إلى غرب الأناضول لاستئصال

---

(١) Michel le syrien p : 214
Camb Hist,of Islam vol 1 p 439

(٢) Ostrogorsky ob. cit 33e

الكيان التركى فى المنطقة ، وبعط أن طهر غرب الأناضول ، وهزم قوات السلاجقة فى اسكى شهر وحرق المدينة ، ولما سمـــع السلطان باقتراب الإمبراطور سارع بالحضور من الشرق وأعد جيوشه فى Akaray ، ولقد عسكرت الجيوش البيزنطية إلى الغرب من قونية وخربوا المناطق المحيطة بها وقتلوا الآلاف من أهلها .

وإن كان الإمبراطور قد اضطر للتراجع بعد هجوم الجيش السلجوقى وبعد أنباء قـدوم الحملة الصليبية الثانية ، واضطر الطرفان لعقد اتفاق .

الزنـكيون وسلاجقه الروم :

كان لسقوط الرها على يد عماد الدين الزنـكى أثر كبير بالنسبة لصليبي الشام وبالنسبة للعالم الغربى عامة (١) ، وكانت الرها تمثل خطراً كبيراً على خطوط

---

(١) الزنـكيون : كان اوسنقر والد زنـكى من أعظم مماليك السلطان ملـكشاه ولاه حكم حلب سنة ١٠٩٢ ولـكنه لقى مصرعه ١٩٠٤ م ثم دخل زنـكى فى خدمة جاويلى والبرسق واشتهر زنـكى بنضاله ضد الصليبيين واشترك فى حملة مودود ومنحه السلطان أمد والبصرة وواسط ، وظهر زنـكى فى أثناء القتال الذى وقع بين الخليفة المسترشد بالله وبين السلطان محمود السلجوقى نزاع صينه فى بغداد وانحاز زنـكى إلى جانب السلطان ونصره . وازداد نفوذ زنـكى حين تولى أمر الموصل سنة ١١٢٧م وقضى السنوات إلى ١١٤٤م فى نضال مستمر، واستولى على حلب سنة ١١٢٩ م وبذلك تهيأت له الفرصة للتدخل فى شئون الشام وسعى لتوحيد القوى الإسلامية فى بلاد الشام لمواجهة الصليبيين وكانت تلك القوى تتمثل فى إمارة حمص ، ثم دمشق وحماة فى الشمال ، وحوران فى الجنوب ، واستطاع هزيمة الصليبيين سنة ١١٣٨ م وفى ديسمبر سنة ١١٤٤ م استولى على الرها أول الإمارات الصليبية .

لمزيد من التفاصيل ابن الأثير الكامل حوادث ٥٢٣ هـ إلى ٥٣٩ هـ
سعيد عاشور الحركة الصليبية جـ ٢ ص ٥٩٧ .

المواصلات الإسلامية بين الموصل وحلب وبين بغداد وسلاجقة الروم فى آسيا الصغرى وسارع البابا يوجين الثالث إلى الدعوة لحرب صليبية جديدة .

واستجاب لدعوته كل من كنراد الثانى امبراطور المانيا ولويس السابع ملك فرنسا ، وعلى الرغم من أن الحملة الصليبية توافر لها كل أسباب النجاح فإنها تعتبر من الحملات الفاشلة فى تاريخ الحروب الصليبية ، ولقد افتقرت تلك الحملة لما تمتعت به الحملة الأولى من قوة روحية ودوافع .

ولقد اختلف موقف بيزنطة من هذه الحملة عن الحملة الصليبية الأولى التى كان سببها استنجاد بيزنطة بالغرب ، فإن بيزنطة فى عهد مانويل كانت قد استعادت آسيا الصغرى وأصبحت الإمارات اللاتينية حاجزة بينها وبين المسلمين (١) ، ثم حالة الضعف التى تمر بها دولة سلاجقة الروم والخلاف بين الأتراك فى آسيا الصغرى بحيث لم يعودوا خطراً إلى جانب اعتراف ريموند لأمير أنطاكية بالتبعية ، فرأى مانويل أن كل ماتفعله الحملة بالنسبة لبيزنطية جلب المتاعب والاعتداء على أراضيها والمعاناة من تصرفات الصليبيين .

فى نفس الوقت الذى تعنى فيه الحملة تدعيم اللاتين فى الشرق وإمارة أنطاكية خاصة التى هى العدو اللدود لبيزنطة . وكانت علاقة بيزنطة بالغرب متوترة ولم يكن هناك تعاطف بين مانويل وكنراد ، وازدادت العلاقات سوءاً نتيجة ما صاحب وصول الصليبيين ومرورهم بأراضى الإمبراطورية

---

(١) ابن القلانسى ، ذيل تاريخ دمشق ص ٢٢٢ / ٢٢٤ .
سعيد عاشور الحركة الصليبية ج ١ ص ٦٠٤

من مشاكل[١] حتى أن مشروع الاستيلاء على القسطنطينية نوقش بين قادة الحملة، وبذل الإمبراطور غاية جهده لسرعة نقل الصلبيين من العاصمة إلى آسيا الصغرى وأصر على طلب قسم الولاء وتسليم بيزنطة البلاد التي ستقوم الحملة بفتحها، ووعد الإمبراطور بتوفير المون، ولكن لم يقدم البيزنطيون المساعدات الكافية، ولم يشتركوا معهم في مهاجمة السلاجقة، وبذلك حال البيزنطيون دون القضاء على العائق الذي يهدد الطريق البرى للجيوش الصليبية الوافدة من الغرب. وفي نفس الوقت تطهير آسيا الصغرى من عدوهم اللدود وهم الترك[١].

عبر كنراد الثالث البسفور إلى آسيا الصغرى، ولم يتخذ الطريق الذي نصحه البيزنطيون باتخاذه وهو طريق الساحل الغربي إلى إيطاليا، والذي يخضع لسلطان بيزنطة[٢] واختار كنراد أن يشق طريقه في جوف الأناضول مخترقاً أراضي السلاجقة، ودب النزاع بين السلطان ودليلهم البيزنطي فتركهم الدليل وتخلف عنهم مما عرض الصليبيين لأسوأ النتائج ودارت في أسكي شهر بالقرب من ضرليوم معركة في ٢٨ رمضان ٥٤٢ هـ - ١١٤٧ م[٣]. هلك فيها معظم الجيش الصليبي وغنم السلاجقة الكثير، ولما وصلت لويس السابع تلك الأنباء كان قد وصل أمام أسوار القسطنطينية سنة ١١٤٧، وصدم بأنباء الصلح المنفرد الذي عقده الإمبراطور مع سلاجقة قونية، في نفس الوقت الذي طلب فيه الإمبراطور أن يقسم له يمين التبعية ويعيد له ما يفتحونه من أراضي وإلا قطع عنهم الإمداد. واتخذ الملك الفرنسي الطريق الجنوبي المحازي لساحل بحر إيجة بعيداً عن السلاجقة[٤].

---

(١) Ostregorsky . op. Cit p 339

(٢) Ostrogorsky ; op. citp. 329

(٣) Runicmar : op. cit Voi 2 p 269

(٤) Grousset : op. cit Vol. 2p 242

والتقى بفلول جيش كنراد الثالث واتجهوا إلى أزمير وافسيوس ، وكان المرور خلال أراضى وعرة وطرق خطرة ، إلى جانب الصراع بين الفرنسيين والألمان وخلافات اللاتين والإغريق .

من أفسيوس عاد كنراد إلى القسطنطينية لمرضه(١) ، واستقبله الإمبراطور استقبالا حسناً ، وأرسل مانويل رسالة إلى لويس يطلب منه تجنب الاشتباك مع الأتراك ، فقد كان الإمبراطور ملتزماً بمعاهدة مع المسلمين ، ولم يستجب لويس لنصيحة الإمبراطور فلقى هزيمة من قبل السلاجقة سنة ١١٤٨ م . ثم اتجه بعد ذلك إلى إيطاليا واتخذ طريق البحر إلى السويدية وأنطاكية ، ولما لم يتوافر العدد اللازم من السفن سلك بقية الجيش طريق طرسوس إلى أنطاكية وتعرض غالبيته إلى الهلاك(٢) ، ورفضت بيزنطة تقديم المساعدة بل عاقبت مدينة إيطاليا التى عاونتهم ، وعانت الحملة الأمرين من سوء معاملة البيزنطيين وهجمات السلاجقة ، إلى أن تم نقلهم على دفعات إلى الشام . ويقال إن الحملة خلفت فى آسيا الصغرى أعداد كبيرة تعانى من الجوع والمرض حتى أن الترك مدوا لهم يد العون وأمدوا جرحاهم بالطعام(٣) .

ولم تحقق الحملة ماهو مرجو منها فبدلا من تحطيم قوة نور الدين الذى خلف أباه عماد الدين زنكى فى تزعم حركة الجهاد إذ بها تتجه إلى دمشق ولكنها لم تنجح فى الاستيلاء عليها ، كل ما أفادته زيادة البغضاء ضد بيزنطة حتى أن لويس السابع تحالف مع النورمان ، وحمل كل الطرفين الآخر أسباب الهزيمة .

---

(١) Setton : op. cit. Vol. Ip. 399

(٢) Runicman ; op, cit , Vol. 2. p. 273.

(٣) Grousset : op. cit, Vol. 2 p. 248

أما بالنسبة للسلاجقة فقد ثبت للعالم الإسلامى أنه من الممكن مواجهة الصليبيين وهزيمتهم ، ودعمت مركز مسعود السلجوقى حتى أن الخليفة العباسى أرسل إليه التشاريف والهدايا[1] .

وأثبتت تلك المعركة أنه ليس من العسير على القوى الإسلامية إذا اتحدت أن تهزم القوات الصليبية ، وخاصة أن نور الدين زنكى سار على سياسة أبيه فى تكوين جبهة موحدة[2] وبسط سلطانه على الأمراء المسلمين فى الشام وآسيا الصغرى بالوسائل السلمية ، من ذلك ما حدث من معاهدة بين نور الدين وأمراء السلاجقة فى آسيا الصغرى وترتب على ذلك اقتسام نور الدين والسلاجقة ما تبقى من أملاك الرها ، وقد استولى مسعود على مرعش وكيسوم وعينتاب ودلوك فى حين استولى نور الدين على عزاز[3] وكان مانويل قد اشترى بقايا المملكة من وريثتها ولكنهم لم يلقوا بالا إلى اتفاقه ، وتقدم حاكم سيواس ياغى بازان فمد حدوده إلى البحر الأسود واستولى عليه ولكن فى سنة ١١٥٤ م تحالف مانويل مع مسعود سلطان قونية ضد الأرمن الذين سيطروا على عين زربه وآذنه وطرسوس وكان أرناط أمير أنطاكية قد حالف ثورس أمير قليقية الأرمنى ضد سلاجقة الروم والبيزنطيين جميعاً . [4] فى الوقت الذى اتخذ فيه مانويل من سلاجقة الروم حاجزاً وعن هـــذا الطريق استطاع السلاجقة الاستيلاء على عدد من المدن الأرمنية ، ولقد حاول السلطان الاستيلاء على بقية قليقية ولكن انتشار الطاعون فى بلاده منعه من ذلك وما لبث أن توفى سنة ٥٥٧ هـ - ١١٥٥ م .[5]

---

(١) Camb. Hist. of Islam I p.241

(٢) Grousset. op. cit II p 288

(٣) سعيد عاشور : الحركة الصليبية ج ٢ ص ٦٥

(٤) ابن القلانسى ذيل تاريخ دمشق ص ٣١٠ ، أبو شامة الروضتين ص ٧١

(٥) Runciman ; op. cit. Vol. 2p 327

على كل فانه ترك سلطنته كأقوى إدارة فى الأناضول .

خلف مسعود ابنه قلج ارسلان الثانى (٥٥١ هـ — ٥٨٨ هـ) ، (١١٥٥ م ١١٩٢) ولقد واجه فى أول عهده مشاكل عديدة فلقد ثار عليه أخيه ملكشاه ملك قسطمونى وأنقرة ، والأمير الدانشمندى ياغى بازان صاحب سيواس الذى استنجد بنور الدين فاستجاب له [١] وهاجم نور الدين البلاد التى أخذها السلاجقة من قبل من إمارة الرها وهى عنتاب دلوك سمساط ولم يسع قلج أرسلان إلا أن يتحالف مع ثورس صاحب قليقية وريجنالد أمير أنطاكية غير أنه لم يلبث أن قبل الأمر الواقع وحدث وفاق بينه وبين نور الدين . [٢]

ولما رأى الإمبراطور ازدياد قوة نور الدين سعى إلى التحالف معه ، وكما أن الإمبراطور قد خرج سنة ١١٥٩ م على رأس حملة لتأديب الأرمن وحاكم أنطاكية ريجنالد الذى طلب العفو من الإمبراطور وانضم إليه هو وحاكم بيت المقدس بلدوين للقيام بمهاجمة المعاقل الإسلامية [٣] . ولكن مانويل ارسل لنور الدين يدعوه للتحالف وكان دافعه لهذا التحالف ضد سلاجقة آسيا ، إلى جانب احتفاظه بميزان القوى فى الشرق حتى يضمن خضوع الصليبيين طالما شعروا بقوة نور الدين [٤] .

وكان دافع نور الدين وقوعه بين عدوين الصليبيين والبيزنطيين فسعى للتفرقة بينهما . وعقد معاهدة لتبادل الأسرى سنة ١١٥٩ م فسلم نور الدين من لديه من أسرى الصليبيين واستولى فى المقابل على رعبان ، وكيسوم

---

(١) Gamb. Hist. of Islamvol. .I p242

(٢) Cibb; The carcer of Nureldin p 216

(٣) ابن القلانسى : ذيل تاريخ دمشق ص ٥٠٧ ، أبو شامة الروضتين ص ١٢٣

(٤) Grousset; op. cit. Vol. 2. p. 407

وبهنا ومرعش فى يناير سنة ١١٦٠ (١) م. وهذا الاتفاق مكن مانويل كومنين من العودة إلى القسطنطينية ، ليقوم مباشرة بحملة لقتال سلاجقة الروم سنة ١١٦٠ - ١١٦١ م واستطاع ازال الهزيمة بقلج ارسلان الثانى، مما يوحى بأن الاتفاقية السابقة بين نورالدين وبين الإمبراطور البيزنطى تضمنت نصاً سرياً يقضى بتحالف الطرفين ضد السلاجقة فى آسيا الصغرى، وإن كانت راجع العربية لم تشر مطلقاً إلى مثل هذا النص ، ولم يلبث قلج ارسلان أن زار بنفسه القسطنطينية سنة ١١٦٢ م حيث قدم ولاءه للإمبراطور البيزنطى وأعلن تبعيته له وعقد اتفاقية كانت تنص على حماية الحدود البيزنطية ووعد بأن يرسل كتائب من عنده اقتال أعداء الإمبراطور فى أوربا (٢) ، وإعادة بعض المدن البيزنطية التى استولى عليها مؤخراً ، ونتيجة لهذه الهدنة أعيد فتح طريق آسيا الصغرى للحجاج (٣) وبذلك قبل أن ينقضى قرن على موقعة مازكرت اعتبر رجال البلاط البيزنطى أن قونيه أصبحت محمية تابعة لبيزنطة . (٤) . ورغم ذلك فإن ماتعرضت له دولة السلاجقة على يد البيزنطيين، عوضها عنه ماتهيأ لها من فرصة للتدخل فى منازعات الدانشمند ، فاعترف الدانشمند ذنون بسلطانهم إلى جانب أن وفاة ياغى بازان سنة ١١٦٤م كانت فى صالح قلج أرسلان فتوسع على حسابهم ، كذلك تدخل فيما يجرى على الحدود السورية الفراتية لمملكته، ولقد أفاد قلج أرسلان مثلما أفاد مسعود من الانتصارات التى حققها نورالدين على الفرنج بأن طالب بشريط من الأراضى الواقعة على سهل سوريا الشمالية

---

(١) Chalandon: los, Comnenes p480

(٢) Grousset op. cit. p. 420

(٣) Setton, op. cit. Vol. 2. 540

(٤) Setton, op; cit, Vol. 2,546 — 7

(٥) Runicman : op , cit. Vol, 2p, 355

المجاور لجبال الأناضول بالإضافة إلى المواضع الشمالية التي كانت من أملاك كونتية الرها(١) .

ومن الواضح أن نور الدين لن يسمح لهذه الدول أن تنافسه فيما له من نفوذ وسلطان فى البلاد التى يعتبرها ملكا له ومن هنا فترت العلاقة بينهما ، فى نفس الوقت الذى حرص نور الدين على إذكاء روح الجهاد عند أمراء آسيا الصغرى وخاصة لأنه تحقق لبيزنطة والصليبيين أن ما يهددهم هو نور الدين ، وكان مانويل قد عقد اتفاقية مع الصليبيين للقيام بحملة ضد مصر لاحتلالها وطرد صلاح الدين الأيوبى نائب نور الدين فيها(٢) . فأرسل نور الدين لقلج أرسلان يحثه على الانضمام إليه وقتال بيزنطية ، كما أمره بإمداده بما يحتاج إليه من قوات لقتال الفرنج نظرا لأن السلطان السلجوقى يملك طرفا كبيرا من بلاد الإسلام وأنباه أن ترك الروم وجهادهم فكتب إليه «إما أن تنجدنى بعسكر لأقاتل بهم وإما أن تجاهد من يجاورك من الفرنج»(٣) ، ولكن قلج أرسلان كان حريصاً على علاقته ببيزنطة إلى جانب تخوفه من نور الدين وبذلك بدا فى نظر العالم الإسلامى كحليف لبيزنطة . وبدلا من التعاون مع نور الدين وجه جيوشه إلى الدانشمند وتدخل فى خلافاتهم ابتداء من سنة ١١٦٤ م وانتزع قلج أرسلان أنقرة من أخيه ، واستولى على أملاك ذو النون فى قبادوقيا(٤) ، وكان من الطبيعى أن يستنجد ذو النون بنور الدين باعتباره القوة الفعالة فى العالم الإسلامى التى يستطيع اللجوء

---

(١) Baldwin ; op. cit vol, 1, p.355

(٢) ابن الأثير : التاريخ الباهر ص ١٦٠ ــ ١٦١

(٣) ابن الأثير : التاريخ الباهر ص ١٦٠ ــ ١٦١

(٤) Camb : Hist, of Islam vol I p 245

إليها(١) ، ورغم أن نور الدين بعد استيلائه على مصر لم يعد يحفل بالحدود الشمالية ، فانه حاز امتيازات إقليمية ضخمة فى هذه الجهة بمقتضى تقليد من الخليفة ، وبفضل ماحصل عليه من إمداد من قبل أتباعه وحلفائه فى الجزيرة ، وتعرضت أملاك سلاجقة الروم للغزو ثلاث مرات من ١١٧١ - ١١٧٣م(٢) من قبل جيوشه بل قام نور الدين بنفسه بغزو تلك الجهات ، واضطر قلج أرسلان للاعتراف بحكم ذو النون فى أماسيا إلى جانب قيام نائب يمثل نور الدين هناك(٣) . وكذلك استولى نور الدين على مرعش ، واضطر قلج أرسلان لدفع هذا إلى التماس الوفاق مع جيرانه المسلمين ، وعقد معاهدة سنة ١١٧٣م ولكن ابتسم الحظ لقلج أرسلان فى سنة ١١٧٤ م بموت نور الدين فأضحى من اليسير إعادة وحدة الأناضول باستثناء أرمينية لصالح السلاجقة دون خوف من المقاومة ، فأضحت يد قلج أرسلان مبسوطة فان الخوف من نور الدين منعه من التدخل فى شئون الدانشمند ، ومن مهاجمة أراضى بيزنطة .

(١ ، ٢) ابن واصل : مفرج الكروب ج ١ ص ٢٢٣

(٣) Camb. Med. Hist, vol. 4p377

الفصل الخامس

عصر القمة فى التاريخ السلجوقى

معركة ميركيفاليون :

اتجه قلج أرسلان الثانى للتوسع فى أراضى بيزنطة وشجعه على ذلك أمور منها انصراف الامبراطور البيزنطى مانويل إلى الاهتمام بالأمور السياسية فى أوروبا ، منها النزاع مع الامبراطور فردريك بربروسة ، فعمد فردريك إلى إثارة المتاعب بتشجيع قلج أرسلان على الثورة على بيزنطة والتوغل فى أراضى آسيا الصغرى سنة ١١٧٥م ، وقام مانويل بتدعيم خط الاستحكامات اللذين يؤلفهما نهرا مايندر وهرموس ، وأرسل إلى البابا يستنجد به ويدعو لحملة صليبية لتأمين آسيا الصغرى(١) .

وكان مانويل يعتمد على المركز الطيب الذى استطاع إقامته لبيزنطية فى الشرق مع اللاتين . ولقد استغل قلج أرسلان فرصة انشغال الامبراطور بأمور الغرب لتدعيم مركزه فى آسيا الصغرى فأدى هذا إلى تعجل الصراع ، فقرر الامبراطور الخروج لملاقاته فأعد حملتين سنة ١١٧٦م إحداهما قادها بنفسه ، والأخرى عهد بقيادتها إلى أحد أقربائه وهو Andronicus Vatatses ، وكان الهدف من جيش أندرونيكوس هو إعادة ذو النون السلجوقى إلى ممتلكاته(٢) . ولما سمع قلج أرسلان الثانى بذلك طلب السلام والتفاوض ، ولكن مانويل رفض الاستجابة له على أن حملة أندرونيكوس تعرضت لهزيمة ساحقة وقتل قائدها وأرسل رأسه إلى

---

(١) Ostrogorsky op cit p.339

(٢) Runicman op, cit, vol, 2, p.412

السلطان ، أما الامبراطور فعاد بجيوشه عبر ممرات فريجيا الجبلية ونصحه بعض القادة الخبراء فى الأمور العسكرية بألا يتخذ طريق الممرات ، ولكن حماس القادة الشبان حمله على اتباع رأيهم بعد أن اقنعوه بالهجوم (١)، وحشد قلج أرسلان الثانى جيشا لا يقل عن جيش مانويل من حيث العدد فضلا عن مهارة الجنود وحماسهم وفى ١٧ سبتمبر سنة ١١٧٦ م سار الجيش البيزنطى خلال الممر فأحاط بهم الترك من جميع الجهات عند Myriocopholen وسدوا جميع المنافذ وأبادوا مقدمة الجيش وقتلوا أمير أنطاكية بلدوين ، وحاقت الهزيمة ببقية الجيش وألقى السلاجقة برأس القائد Vatatses أمام الجنود البيزنطيين وفر الإمبراطور بعد أن خانته شجاعته وحاول من تبقى من الجيش أن يتبعه ولكن لم يحظ بذلك إلا عدد قليل نظرا لأن الترك سدوا جميع المنافذ ولم يسمحوا لهم بالفرار (٢). وحدثت مذبحة هائلة للبيزنطيين ، ثم أنفذ قلج أرسلان رسولا يعرض الصلح على الامبراطور الذى كان يجمع فلول جيشه فى السهل فى مقابل أن يعيد اليه قلعتى ضريليوم وسبليوم Dorylocum , Sublaem بعد نزع سلاحهما (٣) ، فبادر الامبراطور بقبول العرض ، وأرسل بصحبة الامبراطور ثلاثة من الأمراء الترك وحامية لحمايته من التركمان أثناء تراجعه للقسطنطينية . (٤)

ولم يدرك قلج ارسلان الثانى أهمية انتصاره كما حدث مع الب أرسلان من قبل، ولعل ذلك إلا أنه ركز كل اهتمامه فى الجهة الشرقية . إذا كان

Camb. Med ' Hist 'vol. Iv. p. 378 (1)
Chalardon' op. cit, vol . 2. p. 612
Diehl : Hist. of the Byzantine Empire, 114 (2)
Camb Hist. of Islam : vol, I2p. 233 (3)
Runicman op. ci',vol , 2 p 378 (4)

ما يريده هو تأمين حدوده فقط فقد استولى على ملطية سنة ١١٧٧ م ، كوتهيا ، واسكى شهر ١١٧٢ م وحاصر Denizli انطاليا . Ulubolu
واصبحت الاناضول فعلا ارض الترك . وفى أواخر القرن الثانى عشر اصبحت تطلق عليها المصادر الغربية ارض الاتراك [١] . أما مانويل فإن ما حاق به من هزيمة تضارع من الأهمية ما حل بالبيزنطيين فى معركة مانزكرت بل أن مانويل نفسه قد قارنها بمانزكرت . [٢] . ولقد أدت إلى ضياع هيبة بيزنطة أمام العالم الغربى ، حتى أن الامبراطور تسلم رسالة من فردريك بربروسا يطلب منه فيها الدخول فى طاعته ، وأدى هذا أيضا إلى انهيار سياسة مانويل فى مختلف القطاعات . وأصبح من غير المجدى أن يؤكد انتصاراته على الولايات اللاتينية فى الشرق [٣] ، أو يحقق انتصارا على المجر ، أو يحصل على أراضى فى ايطاليا . أو يتخذ سياسة هجومية فى أوربا أو الشرق الأدنى ، وجاءت هزيمة ميروكفاليون ليثبت فشل سياسته ودبلوماسيته . وفشلت كل مشروعاته الشرقية ، بل وانهار وضع بيزنطة فى العالم . فطردت بيزنطة من إيطاليا ، وأصبحت تواجه القوى الغربية ضعيفة منهكة ، حتى مشروع التعاون مع روما انتهى وصور المؤرخ البيزنطى Nicetas Ghoniates الموقف بقوله « أن اللاتين يطمعون فى ممتلكاتنا ويرغبون فى تدمير سلالتنا ، بيننا وبينهم فجوة واسعة مع الكراهية ووجهات نظرنا تختلف اختلافا تاما وطريقنا يسير فى اتجاه معاكس . [٤]

وترجع أهمية هزيمة ميروكفالين إلى النتائج التى ترتبت عليها سواء

Cnmb. H ı ist' of Islam p. 244 (1)
Ostrogorsky : oP. cit. 347 (5)
Runciman , op. cit. vol, 2, p. 414 (3)
Ostrogorsky . op. cit. p 346 (4)
Runicman, op. cit. vol. 2. p. 418

من الجانب الإسلامى أو البيزنطى وارتباطهما بما حدث من تغير الأوضاع بعد وفاة نور الدين ، فقد قضى على الجيش البيزنطى الذى أعده كل من الكسيوس وحنا وتعذر عليه المضى إلى سوريا فهزيمة سنة ١١٧٦ م كانت بالغة الأهمية بالنسبة للاتين فى الشرق ، فقد أدركوا أهمية بيزنطة بالنسبة لهم وشعروا بأن وجود بيزنطة مهم لمواجهة القوى الإسلامية النامية فى حين أن الزنكيين فى الشام الذى تنازعوا الوصاية على الصلح مع إسماعيل بعد وفاة نور الدين لم يشعروا بأهمية تلك المعركة بالنسبة لمستقبل اللاتين فى الشرق .(١)

وتعتبر تلك المعركة بداية الانهيار التام لدعاوى بيزنطة فى السيطرة على الأناضول وإيذانا بعودة سياسة دولة سلاجقة الروم ، واتجه السلاجقة إلى أقاليم الفرات وخاصة بعد وفاة مانويل كومنين ١١٨٢ م ، وماتلى وفاته من اضطرابات أضعفت بيزنطة فلم يعد بوسعها مواجهة ضغط العناصر التركية النازلة على حدودها ، وما لدينا من وثائق قليلة فانها تكفى لأن تدل على أن ميروكفاليون ليست فحسب مظاهرة واضحة لقوة السلاجقة الحربية ، بل أن الدولة السلجوقية شرعت فى إعداد نظم إدارية ، وفى تنمية مظاهر الحضارة الإسلامية وفى إثارة النشاط الاقتصادى (٢) وإيجاد قانون منظم فكان هذا نواة الوحدة السياسة التى اكتملت فى القرن التالى على أن هذه الحقبة فى التوسع كانت فترة لازمة . وهذا الازدواج استمر طوال تاريخ سلاجقة الروم .

---

(١) حاول الامبراطور فى سبتمبر عام ١١٧٦ م التحالف مع بلدوين ملك بيت المقدس لمهاجمة صلاح الدين فى مصر ولازالة آثار هزيمة ميروكيفاليون وأرسل اسطولا لعكا ولم يلق البيزنطيون استجابة وكانت هذه آخر محاولة من جانب مانويل .

(2) Hearsey, op. cit. p. 184

وكان اهتمام السلاجقة بفرض سيطرتهم على الغزاة والتركمان وخاصة الدانشمند أكثر من اهتمامهم بعلاقتهم مع بيزنطة واهتمامهم فى هذه الفترة موجه للشرق .

وبدأت منذ سنة ١١٨٥ م ولسنوات عديدة حركة تركمانية واسعة بدأت من أعالى الجزيرة ، وانتشرت إلى أرمينية ثم إلى حدود جورجيا ، ومنها إلى قباد وقيا السلجوقية ثم امتدت إلى قليقية وشمال الشام ، وكان زعيم تلك الحركة شخص يدعى رستم لا توجد عنه تفاصيل واضحة بالإضافة إلى أن التركمان فى شرق الأناضول تأثروا ببنى عمومتهم فى إيران حضاريا وثقافيا .(١) .

وكان قلج أرسلان قد تقدمت به العمر وأراد ارضاء ابنائه وخشى من تضارب الأطماع وقيام صراع عند وفاته أو استغلال البعض لتلك الظروف فبدأ بتوزيع مملكته بينهم فقسم المملكة إحدى عشر قطاعا وزعها على أبنائه التسعة وشقيقه وابن أخيه وذلك فى عام ١١٨٦ م ، غير أن الحقد لم يلبث أن دب بين الأخوة ، وترتب على ذلك أن جرى الاستعانة بالتركمان بقيادة رستم ، فاستعان بهم قطب ملك شاة أمير سيواس أكبر أبناء قلج أرسلان ، فقد أراد أن يلى أمر السلاجقة بعد أبيه والاستئثار بالأمر دون أخوته ، فارغم اباه على أن يجعله قسيما فى الحكم .

وفى أثناء ذلك وصلت طلائع الحملة الصليبية الثالثة التى كان من قادتها فردريك بربروسيا حليف قلج أرسلان(٢) ، وكان أبناء قلج أرسلان الباقين مشغولون فى التوسع على حساب بيزنطة ، فملك توقات سليمان واتجه إلى البحر الأسود وفتح سمسون ، وحاكم أنقره مسعود فتح Bola وكيخسرو

(1) Camb Hist, of Islam vol. I p. 244

(2) Setton op. cit. vol. I. p. 48

اتجه إلى وادالمنيدر كل هذه العوامل جعلت بيزنطة تبحث عن حليف ولم تجد غير الالتجاء إلى صلاح الدين . (١) .

السلاجقة والحملة الصليبية الثالثة :

كان الوضع فى الحملة الصليبية الثالثة يختلف عما عهدنا مع الحملات الصليبية السابقة فان العلاقات بين الأطراف فى المنطقة تغيرت تغييرا جذريا ، فبعد وفاة نور الدين استقل صلاح الدين بمصر ، وتزعم حركة الجهاد ومضى بها خطوات بعدة وأخذ تفويضا من الخليفة العباسى بحكم البلاد من الفرات إلى النيل وتفرغ ابتداء من سنة ١١٨٦ م لقتال الصليبيين واستولى على أهم المعاقل الصليبية . وفى معركة حطين فى رمضان ٥٨٣ هـ — يوليو ١١٨٧ م هزم الجيش الصليبي وقبض على ملك بيت المقدس وقادته (٢) ، وكان من الطبيعى أن يثير سقوط بيت المقدس على يد المسلمين العالم الغربى بأجمعه والبابوية خاصة ، فطالبت البابوية ملوك الغرب بالإسراع لنجدة المسيحيين فى الشرق واستجاب لهذه الدعوة ريتشارد قلب الأسد ملك انجلترا وفيليب أغسطس ملك فرنسا وفردريك بربروسا إمبراطور ألمانيا(٣) .

وكان الموقف البيزنطى قد تغير تجاه الحملات الصليبية فاذا كانت الحملات وجدت أباطرة بيزنطيين على استعداد للتعاون مع الصليبيين رغم
" ضا على الحملات الصليبية أولا لأنها اعتادت نهب الأراضى
الدن ، وثانيا لأن قادتها لم ينفذوا شروط يمين

Camb, H

٥. هـ، أبو شامة :الروضتين جـ٢ ص ٧٤، ٧٥

Runciman :

الولاء الذى اعتاد الأباطرة البيزنطيون أخذه عليهم باستعادة كل المدن التى كانت خاضعة من قبل لبيزنطه فالوضع بعد وفاة مانويل تحول إلى عداء سافر صريح بين الجانب البيزنطى حكومة وشعباً وبين اللاتين الغربيين حتى انتهى الأمر بتحالف بيزنطة مع صلاح الدين ضد الحملات الصليبية[١] .

وفى المقابل قام الغرب ممثلا فى الامبراطور فردريك الثانى بالتحالف مع سلاجقة الروم فى آسيا الصغرى ، وبعد أن كان غرض الحملة الصليبية الأولى تطهير طريق آسيا الصغرى من سلاجقة الروم وإعادته لبيزنطة ، إذ بسلاجقة الروم يتحالفون مع فردريك ويمهدون له الطريق إلى بلاد الشام لحرب صلاح الدين الذى كان على عداء معه واشتبك معه فى قتـــال سنة ١١٨٠م[٢] .

ونجد أن ما مر ببيزنطة من تطورات بعد وفاة مانويل أدى إلى التقارب بينها وبين الأيوبيين وأدى إلى اتخاذ موقف سلبي مما حدث للاتين على يد صلاح الدين . فبعد وفاة مانويل خلفه سنة ١١٧٢م على العرش ابنه الكسيوس الثانى وقامت بالوصاية عليه أمه اللاتينية التى كان يكرهها الشعب والارستقراطية[٣] ، وإلى جانب أن مركز بيزنطة كان منهارا سواء فى الداخل أو الخارج وجرت عدة محاولات لاغتيال الامبراطور . فبدأ التغيير واضحا فى خطط السياسة البيزنطية حين أرسل الامبراطور الكسيوس كومنين الثانى سنة ١١٨١ م مبعوثا إلى القاهرة لعقد صلح مع صلاح الدين ولكن قامت ثورة تزعمها أندرونيكوس كومنين ونجح فى الاستيلاء على العرش

---

(١) أبو شامة : الروضتين ج ٢ ص ١٥١ — ابن شداد : النوادر السلطانية ص٢٠٦

(٢) Ostrogorsky : op. cit p.351

(٣) Ostrogorsky' op cit. 352

والسيطرة على الملك الطفل وتبع ذلك قيامه بمذبحة للاتين . وما ارتكبه من جرائم دفعه إلى أن يلتمس حليفا فى الشرق وخاصة أن التقت أهدافهما وهى استئصال الدول اللاتينية فى الشرق إلى جانب تعرض أندرونيكوس إلى الهجوم من القوى الغربية ولذلك أرسل أندرونيكوس فى سنة ١١٨٥م سفارة لصلاح الدين يستعيد ما بينهما من صداقة(١) ويعرض قيام تحالف . وكان من شروطها أنه إذ جرى فتح فلسطين يجرى اقتسامها على أن ينال البيزنطيون بيت المقدس والمدن الساحلية ما عدا عسقلان ، وإذا جرى الاستيلاء على آسيا الصغرى فلابد من إضافتها حتى أنطاكية وأرمينيا إلى الامبراطورية الشرقية . ولاشك أن أندرونيكوس مقابل هذه المساعدة وعد بأن يساعد المسلمين فى نضالهم ضد اللاتين فى سوريا(٢) ، ويبدو أن هذا المعاهدة حازت القبول لدى الجانب الإسلامى ولكن أندورنيكوس طرد من العرش فى ١٢ سبتمبر ١١٨٥ م قبل أن يصله رد صلاح الدين ، ولقد رحب الامبراطور الجديد إسحاق أنجليوس بمحالفة صلاح الدين لتعرض عاصمته لهجوم النورمان ، فأقر المعاهدة بعد أن راجعها وعدلها صلاح الدين فيما بعد. وبعد فتح بيت المقدس أرسل صلاح الدين سفارة إلى إسحاق تعلنه بما حققه وأرسل إسحاق سفارة جددت المحالفة مع صلاح الدين وأخبرته بما حدث فى الغرب من الدعوة للحروب الصليبية(٣)

---

(١) لم يكن التقارب على المستوى السياسى فقط ، بل على المستوى الشخصى إذ أن أندرونيكوس سبق أن نفى إلى بغداد ودمشق وتوثقت صلاته بصلاح الدين ونور الدين، وكذلك جاء إلى بلاط صلاح الدين كل من الكسيوس أنجلوس وأخاه اسحاق .

(٢) Diehl. Od. cit. p.134

Ostrogorsky op, cit. p.135.

(٣) أبوشامة الروضتين ج٢ ص ١٥١

Crousset, op. cit, vol, 3p.135

Crousset op. cit, vol. 3,p.135

فحاول صلاح الدين توثيق علاقته باسحاق كيما يضمن مساعدته وأراد أن يثير المتاعب لمن يمر بأراضيه من رجال الحملة وانفذ سفارة من عنده لعرض معاهدة من نصوصها سجن من فى القسطنطينية من اللاتين الذين وعدوا بالاشتراك فى الحملة الثالثة ، بل أنه وافق أيضا على مقاومة كل جيش يحاول اجتياز مملكته . وفى ١١ مايو ١١٨٩ م أرسل فردريك أسقف مونستير وبصحبته عدد من القادة الألمان ليخبروا إسحاق بقرب وصول بربروسة إلى القسطنطينية والسماح له باجتياز الأراضى البيزنطية عبر البسفور إلى الشاطىء الأسيوى وإمدادهم بالمؤن ، ولكن إسحق [١] قبض على السفارة والراجح أنه تم بناء على إلحاح من صلاح الدين ، وأرسل مبعوثين من قبله إلى صلاح الدين للتصديق على المعاهدة فى سبتمبر ١١٨٩ م وهو على مرج عيون بالشام وجرت مناقشة ما سوف تلجأ إليه بيزنطة مستقبلا فى إخضاع سلطنة الروم فى قونية المتحالفة مع بروسيا [٢] ولعل بيزنطة كانت تزعم الاستيلاء على أرمينيا الصغرى وإنطاكية ، وإذا خشى صلاح الدين بربروسة لم يتردد فى أن يبذل لإسحاق من الأراضى ما ليس بحوزته مقابل تدمير الجيش الألمانى . [٣]

ولقد سعى إسحاق لعرقلة الحملة بكل الوسائل ، وفى المقابل لم يتردد فردريك فى مهاجمة أراضى بيزنطة فى نيش وصوفيا ، وفليوبوليس واضطر إسحاق لإطلاق سراح السفارة فى ٢٠ أكتوبر ١١٨٩ م ، وتقدم فردريك فى أراضى بيزنطة واستولى على إدرنة بل أنه أعد خطة لحصار القسطنطينية، ولم ييأس إسحاق من الحصول على مساعدة المسلمين حتى فبراير ١١٩٠ م

---

(١) Ostrogorsky. op cit, p. 360

(٢) Ostrogorky. op. cit P. 360

(٣) ابن واصل : مفرج الكروب ج ٢ ص ٣٢٧

أبو شامة : الروضتين ج ٢ ص ١٥٩

حين حلت به الهزيمة . ووافق على معاهدة إدرنة التى تقضى بالسماح للامبراطور الألمانى بشراء المؤن من الأسواق والعبور إلى آسيا الصغرى وأن يقدم من الرهائن مايكفل السلوك الطيب من قبل البيزنطيين(١) ، ولقد أرسل إسحاق رسالة لصلاح الدين يستنجد به فى محاولة أخيرة ١١٩٠ م ويذكره باتفاقهم السابق ، وتنفيذه للاتفاق باثارة المتاعب فى وجه فردريك . (٢)

وغادر فردريك بربروسة أراضى بيزنطة واجتاز آسيا الصغرى حيث حليفه قلج أرسلان الثانى الذى أبدى استعداده لمساعدة الإمبراطور وفق تعهداتهم السابقة عن طريق مده بالادلاء وبالمؤن ، وحماية حملته أثناء سيرها . ولكن لم يرضى التركمان بهذا وحرصوا على مهاجمة الجيش المسيحى فاصطدم الجيش مع فرع من التركمان هم تركمان أوج(٣) . ثم مع جيش قطب الدين وملكشاة أولاد قلج أرسلان بالقرب من اسكى شهر وانضم إليهم رستم بعساكره التركمان . ولكن لحقت بهم الهزيمة ، وكان فردريك يريد الوصول إلى سوريا عبر قليقية وأمام هذا التهديد اضطر إلى أن يتجه لقونية وأبدى قلج أرسلان استعداده للتفاوض(٤) . ولكن أولاده رفضوا التعاون مع الصليبيين فاشتبك معهم قطب الدين فحلت به الهزيمة هو والتركمان واضطر للتراجع واستولى فردريك على المناطق المحيطة بقونية وعلى أسواقها وخربها ، وارسل قلج ارسلان يعرض الصلح على الامبراطور بعد فتح ابواب المدينة ، فوافق(٥) وعقد اتفاقية نصت على التعاون بين

---

(١) Punicman op. cit, vol. 2 186

Ostrogorsky, op. cit, p. 361

(٢) أسد رستم الروم ص ١٧٢

(٣) Settos, op. cit, p. 114

(٤) أبو شامة الروضتين ج٢ ص ١٥٤ ابن شداد النوادر السلطانية ص ١٩٢

(٥) المقريزى : السلوك ج ١ قسم ١ ص ١٤

كلا الطرفين ضد الأيوبيين واقتسام أملاكهم ، وأمنه فردريك على أراضيه وأوضح له أن هدفه هو بيت المقدس وصلاح الدين ، وأمدهم قلج أرسلان فى الفترة التى أقاموها بالمؤن والعتاد ، بل أرسل معهم عدد من الأمراء كرهائن ليرشدوهم إلى الحدود بينهم وبين أرمينيه .

وفى نفس الوقت الذى أرسل إسحاق لصلاح الدين رسالة تحدث فيها عن جهوده تجاه الصليبيين استقبلها أخوه العادل ووفقا للقاضى الفاضل رفض صلاح الدين آخر الأمر كل طلبات البيزنطيين وفى مايو ١١٩٢ م أرسل إسحاق سفارة أخرى ردد فيها طلباته إلى جانب طلب إعادة قطعة من الصليب المقدس فرفض الطلبات وأرسل الصليب . (١) وانتهت العلاقات بين الإمبراطورية البيزنطية وصلاح الدين عند هذا الحد ، وبذلك فشل تحالف البيزنطيين والمسلمين ضد اللاتين كما فشل تحالف السلاجقة مع الألمان . (٢) وقد ضمن إسحق رأيه فى نتيجة هـــذا التحالف فى رسالته لصلاح الدين ، أن النتيجة الوحيدة التى نجمت عن صداقتى لك ، إنما جرت على كراهية الفرنج وجميع أجناسهم (٣) . وكان للتحالف البيزنطى الإسلامى أثر كبير فى مجرى الأحداث بالنسبة لبيزنطه فلم تغير المحالفة مع ما كان لها من أثر من وضع الامبراطورية المنهار . أما النتائج السيئة للتحالف مع المسلمين على سمعة بيزنطة فقد تعددت ، واستغلها اللاتين للتشهير ببيزنطه فى سائر أنحاء أوربا ، فقد بعث فردريك بربروسة أثناء اجتيازه تراقيا إلى ابنه هنرى يطلب إليه أن يحث البابا على أن يدعو لحرب صليبية ضد البيزنطيين ، وما حدث من حرص رتشارد قلب الأسد

Runicman : op. cit vol 3. p 29 (1)

Grousset :op. cit. vol. 3. p. 625 (2)

(٣) أبو شامة : الروضتين جـ ٢ ص ١٧٨

وفيليب أغسطس والحملات الصليبية المتأخرة عن اتخاذ الطريق البحرى[1] كان شديد الارتباط بعلاقات إسحاق مع المسلمين ، ولا شك أن ذكرى هذه السياسة تأثر بها رجال الحملة الصليبية الرابعة التى هاجمت القسطنطينية .

ولقد ترتب على فشل التحالف مع صلاح الدين تغيير سياسة بيزنطة نهائيا واتخذت صورة التعاون مع الدول الصغيرة فى الغرب كجنوة وبيزا[2] والنورمان فى صقلية عند أطماع الامبراطور هنرى السادس التى أخذت فى الازدياد .

أما بالنسبة للتحالف السلجوقى الألمانى فقد انتهى بمصرع فردريك بربروسه وكانت من نتائجه إضعاف الجانب السلجوقى وزيادة حدة الخلاف بين أفراد البيت السلجوقى[3] ، فهزيمة قطب الدين أضعفت قواته ، وبما أنه كان يسيطر على أبيه وعلى العاصمة قونية فقد دخل فى منازعات مع أبيه وأخواته ، واستطاع والده الفرار من الاعتقال الذى فرضه عليه قطب الدين وطاف الرجل الشيخ بأولاده الواحد بعد الآخر يلتمس المأوى ، فأواه أخر الأمر ابنه غياث الدين كيخسرو الذى جعل له السلطنة من بعده ، ومات قلج أرسلان فى سنة ١١٩٢م وهو فى السابعة والسبعين من عمره[4] .

---

(١) Runicman: op. cit. vol. 3, p 65

(٢) Ostrogorsky, op. cit. P.388.

(٣) Camb. Hist. of Islam vol. 1 p. 244

(٤) وفيها مات قلج أرسلان بن مسعود بن قلج أرسلان بن سليمان صاحب قونية ، وقد تغلب عليه ابنه قطب الدين صاحب سيواس واقصرا وزاد فى أن حجر عليه ، وكان موته فى شعبان وتولى قونية بعده ابنه غياث الدين كيخسرو قلج أرسلان :

المقريزى : السلوك جـ١ قسم ١ ص ١١٣ . أبو الفدا . المختصر جـ٣ ص ٨٤

وفى البداية نشب صراع على العرش بين قطب الدين وغياث الدين كيخسرو وانتصرفيه كيخسرو ،ولكن أخاهم الثالث استطاع طرد كيخسرو من قونية سنة ١١٩٦ م ، ودفعه هذا إلى أن يلتمس الملاذ فى الأراضى البيزنطية(١) ، وأعاد سليمان الثانى الوحدة إلى البلاد السلجوقية على حساب اخوته ، ولقد استغل البيزنطيون فترة النزاع الداخلى فى دولة السلاجقة لمهاجمة التجار الأتراك على البحر الأسود ولكن سليمان استطاع إلحاق الهزيمة بالقوات البيزنطية وفرض الجزية على الكسيوس الثالث.

وفى سنة ١٢٠١ م قام ملك أرمينيا ليو الثانى باجتياح الحدود التركية فتصدى له السلطان الذى قام بدوره بغزو أراضى أرمينيا ، واستولى على امارة أرزروم التى كانت فى حوذة أسرة Saltukids ومنها هدد المسيحيون فى طرابزون وجورجيا فقد قام أهل جورجيا بتهديد الطرق إلى فارس وتقدموا إلى أرزورم وفى سنة ١٢٠١ م أعانه مجوشك والأرانقة ، ولم يجد من الحكمة إضافة أرزورم مباشرة إلى أملاكه لجعل حكمها لأخيه مغيث الدين طغرل شاه فى مقابل حصوله على إقطاع مغيث الدين وظلت أسرة منجوشك فى أرزنجان ، غير أنه تضاءل شأنها منذئذ حتى أصبحت من توابع ركن الدين سليمان ، ولقد اتجه السلطان بعد ذلك إلى جورجيا ولكنه فوجىء بجيوش القبجاق وأهل جورجيا قرب Surikamish وتراجع السلطان بعد أن حلت به الهزيمة وفقدعدد كبير منجنوده كأسرى وأعد حملة ثانية لمهاجمة جورجيا بعد استيلائه على أنقرة منمسعود ولكنه توفى سنة ٦٠٠ هـ — ١٢٠٤ م قبل إتمام مشروعه (٢) .

---

(١) Setton : op. cit. vol. 2. p.114

(٢) Camb. Hist. of. Islam vol. I.p. 248

أبو الفدا المختصر ج ٣ ص ٨٤

وتولى بعده أخوه كيخسرو الثانى ، وكان قد تولى عرش قونية فترة قبل سليمان ولكن استطاع سليمان عزله والاستيلاء على العرش فالجأ إلى بيزنطة ولما عاد من منفاه أصبح بفضل مساعدة قبيلة أوج التركمانية ومساعدة الدانشمند الوارث الوحيد لكل المملكة التى ظلت متماسكة فى قبضة يده ويد ابنه من بعده ، ومع أن الصراع يدل على ضعف نظام الملكية السلجوقية فإن توسع السلاجقة والتركمان لم يتوقف بل ازداد واستغل ضعف أحوال بيزنطة فيما بعد سنة ١٢٠٤ م للتوسع على حسابها فى آسيا الصغرى ، ولقد خطط عملياته الحربية على أساس الاحتياجات الاقتصادية والتجارية ولقد استقرت الإدارة السلجوقية فى عهده نتيجة لتوسع التركمان فى المعاقل اليونانية فأصبحت Sozonolis التى كانت إقطاعا لكيخسرو نواة لإقليم جرى تنظيمه [١] .

وفى تلك الأثناء وصل التركمان إلى الساحل الممتد شرقا من الشاطىء المواجه لجزيرة رودس ، حتى أطراف إيطاليا وحينما نشبت الاضطرابات فى الدولة البيزنطية فى عهد إسحق أنجليوس أعلن أمراء الحدود Akrtia التمرد ، بل إنهم انتقلوا إلى المعسكر المعادى فأعلنوا الولاء للترك كى يحصلوا على إمدادات عسكرية ومادية ، وقد حصل كيخسرو على لاأزيقا بهذه الوسيلة [٢] . وقد حل مكانها بلدة Denazle أصبحت منطقة تهدد كل

= وذكر المقريزى أن ابن سليمان قلج أرسلان حكم فترة بعد والده إلى أن عاد غياث الدين واستولى على العرش ، ومات ركن الدين سنة ستمائة وقام بعده فى قونية قلج أرسلان ابن ركن الدين ، وعند ذلك عاد كيخسرو إلى بلاده « المقريزى » السلوك جـ١ ص ١٢٣

(١) Camb. Hist. of, Islam vol. I,p248

Setton, op. cit. vol. 2.p.147

(٢) المقريزى السلوك جـ١ ص ١٨١

سار عز الدين إلى بلاد الأرمن وحاصر جابان وهزم عندها جيوش الأرمن ، ورجع =

المانيدر فى الشمال و م تعد ضوريليوم يونانية ، ولم يعد البيزنطيون يبسطون سلطانهم إلا على ساحل البحر الأسود دون أن يسيطروا على شيء من الأراضي الداخلة ، بل أن الترك إستطاعوا فى منتصف هذا الساحل أن يصلوا إلى البحر ، والواضح أنهم احتلوا سمسون لفترة وجيزة وقطعوا طريق الاتصال بين طرابزون والقسطنطينية .

العلاقات البيزنطية السلجوقية بعد سقوط القسطنطينية :

كان هذا الحدث الهام فى تاريخ عالم العصور الوسطى له دوافعه ومبرراته ولم يكن مفاجئة للعالم الغربي ، فقد ساءت علاقة بيزنطة بالغرب منذ الحملة الصليبية الأولى وحكم الكسيوس كومنين وازدادت فى عهد خلفائه وتحولت إلى عداء سافر فى عهد أسرة انجليوس . إذ أضعف بيزنطة مانشب بداخلها من حروب داخلية ثم حملاتها الفاشلة على البلقان[١] ، وبازدياد تدهور وضع الصليبيين فى سوريا وفلسطين ، والفشل النسبي الذى حاق بالحملة الصليبية الثالثة اشتد الاهتمام بالأمبراطورية البيزنطية ، فما جرى من مخاصمات سياسية ، وماوقع من مناوشات تجارية ، وماحدث من الانشقاق بين الكنيستين الشرقية والغربية[٢] كل ذلك خلق وضعاً جعل اشتراك الغرب فى القيام بهجوم على الامبراطورية البيزنطية أمراً وشيك الوقوع ، على أن

= إلى قيصرية قبل أن يستولى على قلعة جابان ، ثم طلب لأرمى الصلح وأجابه رسل عزالدين » .

(١) لم تكن الحرب الصليبية الثالثة بالنسبة لفردريك إلا ستارا لأطماعه وخطب لابنه وريثة مملكة صقلية تمهيدا لاتحاد ألمانيا وصقلية تحت حكم أسرة واحدة . وأعد هنرى السادس ابن فردريك حملة صليبية جديدة لفتح القسطنطينية والاستيلاء على الأمبراطورية البيزنطية قبل المضى إلى سوريا وفلسطين ولم يسع الامبراطور البيزنطى الكسيوس الثالث أنجليوس ١١٩٥ - ١٢٠٣ إلا المبادرة بالتسليم بمطالب هنرى وانتمى إليه ، مملكة قبرص وأرمينية الصغرى .

(٢) Nic' Choniates : History p. 631 « Boar 1835 »

القوات الصليبية لم يوجهها للافادة من متاعب بيزنطة سوى البندقية ومطامعها . فما كان من تمزق الأمبراطورية وضعفها هيأ الفرصة لتفوق البندقية البحرى فى القرن الثالث عشر الميلادى ، فلم تكن الحملة الرابعة مفاجئة للدوائر الدبلوماسية فى الغرب ، وكانت أحوال بيزنطة الداخلية شديدة الملاءمة لهذا الهجوم ، ففى عهد إسحاق أنجليوس انهارت الإدارة البيزنطية ، وفقدت القسطنطينية توازنها الاقتصادى ، ودب الفساد فى جهازها الحكومى . وشبت الثورة فى بعض أراضى الأمبراطورية ولا سيما بلغاريا . واستغل الكسيوس أنجليوس شقيق الامبراطور الفرصة فاستولى على العرش بعد أن عزل إسحق واعتقل ابنه الذى استطاع الفرار إلى زوج شقيقته فيليب فى ألمانيا (١) .

أما الأسباب المباشرة للحملة الصليبية الرابعة فقد تعددت ولكنها ترجع أساسا إلى مطامع البندقية . وتغلب المصالح الاقتصادية على ما عداها من الدوافع الدينية فقد كانت الحملة موجهة إلى بيت المقدس ومصر حيث يحكم الأيوبيون وكانت للبندقية علاقات تجارية مع العادل الأيوبى من مصلحتها المحافظة عليها (٢) . فضلا عما تعرضت له مصالح البندقية التجـــارية فى القسطنطينية من مناهضة ، أثار مخاوف البندقية ، وأدركت أنه لا سبيل للمحافظة على امتيازاتها إلا بالقضاء على حكومة القسطنطينية فحرصت على تحويل اتجاه الحملة عن مصر إلى بيزنطة (٣) .

وكانت البندقيه قد تعهدت بنقل الحملة ومدها بالمؤن فى مقابل ١٨٥ ألف

---

(١) Villehardouin : La Conquete de Constantinople p 52

Runicman. op. cit. vol 3. p 111

Setton op. cit. vol. 2. p. 158

(٢) Vasiliev. op. cit p. 453

(٣) Grousset op cit, vol. 3, p 171

مارك ، ونصف ما يجرى فتحه من البلاد ، ولكن عجز الصليبيون عن دفع القسط الأول فحولت البندقية الحملة إلى مدينة زارا البيزنطية ، رغم إصدار البابا قرار حرمان على كل من يعتدى على أرض مسيحية ، واستدعى الكسيوس كومنين ابن إسحاق ليضفى على الهجوم صفة الشرعية واغتنم رجال الحملة فرصة قلة الأقوات وطلبوا أن تكون وجهة الحملة القسطنطينية والتى هذا الطلب استجابة من مونتفرات قائد الحملة ، ولم تلبث أن سقطت القسطنطينية فى أيديهم ، فلم يكن الجيش الامبراطورى قد استعاد قوته بعد هزيمة ميروكيفالون وكانت غالبيته من المرتزقة ، وولى الكسيوس الرابع وأباه اسحق ، وما لبث أن قتل الكسيوس على يد اليونان الذين اعتبروه خائنا[١] ، وعاد الصليبيون لمحاصرة القسطنطينية ولقد استنجد البيزنطيون بأعدائهم القدامى السلاجقة . ولكن السلاجقة لم يمدوا للبيزنطيين يد العون بل وجدوها فرصة سانحة لإزلالهم[٢] . فإن تدمير بيزنطة يعنى ترك أيديهم مطلوقة فى آسيا الصغرى بلا منافس بل قد يستطيعون استغلال هذا الوضع لصالحهم بالتوسع فى بقايا الممتلكات البيزنطية .

ولا شك أن للحملة الصليبية الرابعة نتائج بالغة الأهمية سواء بالنسبة للعالم الإسلامى أو بيزنطة . فالدولة البيزنطية كانت تعتبر معقل الحضارة المسيحية فى الشرق لبضع قرون ، ودل سقوطها فى أيدى اللاتين على زوال الروح الصليبية وتغلب المصالح الاقتصادية والشخصية والسياسية عند الصليبيين[٣] . فضلا عن حرمان الصليبيين بالشام من قوة كانت تساندهم ،

---

(١) Runciman : oP. cit. vol. 3 p. 125

(٢) ابن الأثير . الكامل : جـ١٢ حوادث س ٦٠٠ ، ٨

(٣) Runciman, op. cit. vol. 3 p. 139-140

Grousset , oP. cit. vol. 3 p. 175

على أن اللاتين فى الشرق قد أبدوا سرورهم حينما أصبحت القسطنطينية بأيدى الغرب ، وبذا لاتخضع الحمـــلات الصليبية لتحكم الأباطرة البيزنطيين(٧) ، ولقد كانت هذه بداية النهاية بالنسبة لبيزنطة لم تعد الامبراطورية بعد بعثها إلى ما كانت عليه . فما حدث سنة ١٢٠٤ م من تفكك بيزنطة وانقسامها إلى إمارات عديدة ، كان فى الواقع بداية لتدعيها وتدهورها ثم زوالها آخر الأمر على يد العثمانيين ، ولقد أدرك البيزنطيون بعد فوات الوقت أن ما تعرضوا له من الضرر من قبل اللاتين المسيحيين يفوق ما تعرضوا له على يد السلاجقة .

ولقد ترتب على سقوط القسطنطينية وقيام مملكة اللاتين ١٢٠٤ — ١٢٦١ م تقسيم الامبراطورية فلم تعد بيزنطة إمبراطورية بمعناها ، وحدودها السابقة . بل أصبحت مجموعة من الدويلات اتخذت أسماء مختلفة وتعددت وتضاربت القوى المسيطرة عليها بين لاتينية ويونانية .

فشملت إمبراطورية اللاتين بالقسطنطينية التى تولى حكمها بلدوين كونت فلاندرز الذى أصبح إمبراطوراً ، وإمارة أخيا فى شبه جزيرة المورة ، ودوقية أثينا وطيبة فى وسط بلاد اليونان .

وامتد سلطان البنادقة إلى الجزائر البيزنطية فى بحر إيجة وأيونيان وجزيرة كريت وبعض المواضع الساحلية الداخلية ، إلى جانب ثلاثة أثمان القسطنطينية وسيطرت على الطرق التجارية ولا سيما تلك التى تربطها بمصر .

أما البقايا اليونانية البيزنطية فقد اتجهت إلى آسيا الصغرى فتولى ثيودور لاسكارس فى نيقية ، والكسيوس كومنينوس فى طرابيزون . وميخائيل

---

(١) Ostrogorsky : op. cit. p. 380

الأول أنجليوس دوكاس كومنينوس أبيروس وبذلك تجاورت السلاجقة مع اليونان[1]، إذ كانت نيقية هى العاصمة السلجوقية قبل الحملة الصليبية الأولى وأصبحت الآن نواة إحياء الامبراطورية البيزنطية وكان من الطبيعى أن تتداخل العلاقات بين هذه الدويلات فى القرن الثالث عشر.

ولكن نلاحظ أمراً هاماً هو أن العلاقة فى هذه الفترة كانت ذات طابع مميز فلم تعد بيزنطة دولة ذات سلطة إدارية موحدة بل دويلات مختلفة لكل منها حاكم مستقل فعلاقة السلاجقة بكل إمارة منها مختلفة عن الأخرى وتراوحت تلك العلاقات بين التحالف والعداء السافر طبقا للظروف والاحتياجات.

ولابد للتعرض لكل منها على حدة لتكمل الصورة.

السلاجقة وإمبراطورية نيقية:

مؤسس هذه الدولة هو ثيودور لاسكارس الذى يمت بصلة القرابة لكل من أنجليوس وكومنين ولقد رشح لتولى العرش البيزنطى بعد مصرع الكسيوس الثالث ولكنه رفض وهرب إلى آسيا الصغرى حيث لحق به عدد من نبلاء بيزنطة العسكرين والمدنيين، وبعض رجال الكنيسة وحكم ثيودرر فى ١٢٠٤ م — ١٢٢٢ [2]، وإن كان وضع الدولة الجديدة بالغ الخطورة، فمن الغرب تعرضت للضغط من قبل الامبراطورية اللاتينية بالقسطنطينية التى حاول حكامها الهجوم على نيقية مرتين، وفى ١٢٠٧ م

---

(1) Setton : op cit . vol. 2. p. 161

Runicman : op. cit . vol . 3. p 123 - 125

Grousset : op cit . vol 3. 175

(2) Setton op cit vol 2 p 205

اضطروا لعقد معاهدة لمدة عامين لانشغالهم بمشاكل Kaloian البلغاري(١) ولكن اللاتين لم يكونوا الخطر الوحيد الذي يهدف ثيودر بل كان هناك خطراً أشد في الشرق وهم السلاجقة(٢) وفي البداية تحالف غياث الدين كيخسرو مع ثيودور لاسكارس ضد كومنين في طرابزون فقد هددوا الطرق إلى البحر الأسود والمتوسط . وأغلقوا مخارج ميناي . سنوب وسمسون ، كما طهر الأتراك مخارج البحر الأسود عن طريق هزيمة دافيد كومنيين سنة ١٢٠٦ م . ولكن وجود لاسكارس حال دون توسع الأتراك نحو بحر إيجة ، وعن طريق وساطة البندقية وقع السلطان غياث الدين كيخسرو الأول(٣) معاهدة سرية مع إمبراطورية اللاتين سنة ١٢٠٩ رداً على التحالف الذي عقده الامبراطور ثيودور لاسكارس مع ليو الثاني حاكم ارمينيا الصغرى الذي كان خطر للسلاجقة يتهدده هو الآخر . ولقد وجد السلاجقة دافعا أساسيا للصراع مع إمبراطورية الناشئة . حين لجأ إلى قونية الكسيوس الخامس(٤) امبراطور بيزنطة السابق بعد مكوثه فترة طويلة في أوربا ، فطلب غياث الدين ثيودور بالتنازل عن العرش لالكسيوس بصفته الوارث الشرعي ،(٥) وكان من الطبيعي أن يرفض ثيودور ، ودارت معركة عنيفة حول إنطاكية على نهر الميناندر ، وكانت قوة الامبراطور البيزنطي متواضعة ومكونة من ثمانمائة من الفرنجة المأجورة ، ولكن استطاعت تلك القوات إلحاق الهزيمة بالسلاجقة

(1) Ostrogorsky : op· cit· p 311

(2) ... hist. of Islam. vol. I. p 245

(3) Ostrogorsky. op. cit . p. 380

Vasiliev : op. cit· vol. 2p. 507

(٤) كان الكسيوس أنجيلوس قد مات وتولى خلفا له الكسيوس الخامس أثناء الحملة الصليبية ١٢٠٤ ولكن عزله اللاتين .

(5) Setton : op. citvol2 p· 208

Vasliev : op citvol 2 p 507

سنة ١٢١١ م وسقط السلطان قتيلا (١) وقبض على الامبراطور الكسيوس الذى قضى بقية حياته فى دير فى نيقية ، ومع أن المعركة لم يترتب عليها تغيرات إقليمية هامة فى جانب ثيودور لاسكارس فإنها أحيت الأمل فى نفوس اليونان فى آسيا وأوربا واعتبرا نيقية نواة وحدتهم المقبلة لاستعادة القسطنطينية وهذا النصر أثار مخاوف هنرى فعاد إلى مهاجمة الامبراطورية من جديد فى آسيا الصغرى واستطاع الانتصار فى معركة فى نهر Rhyndacus سنة ١٢١١ ، ولكن كلا الطرفين كان منهكا فعقدا معاهدة ١٢١٤ م فى نيفيوم ، وضعت خريطة حدود بينهما فأخذ اللاتين الشمال الغربى من آسيا الصغرى إلى أدوماتيوم فى الجنوب . أما المنطقة الباقية وتمتد إلى حدود السلاجقة تركت لامبراطورية نيقية التى دعمت نفسها ، فى حين أن الامبراطورية اللاتينية منذ ١٢١٦ م قد سارت إلى الضعف (٢) .

أما بالنسبة للسلاجقة فإن الهزيمة دفعتهم إلى توطيد سلطانهم على السواحل فى الشمال والجنوب وتجديد سياسة الفتح والتوسع على حساب البلاد الإسلامية الواقعة إلى الجنوب الشرقى .

فقد أضاف ابن كيخسرو عز الدين كيكاوس الأول (١٢٦١ — ١١٢٢) الذى سار على سياسة أبيه التوسعية سينوت على البحر الأسود وهى معقل يصلح أن يرتكن إليه السلاجقة حربياً وتجاريا . ولقد دعى التجار الأتراك إلى الإقامة فى المنطقة والنهوض بتجارتهم وطرد من إيطاليا

---

(١) يذكر المقريزى أن تلك المعركة مع الأرمن حلفاء الروم عند بلدة خونا وفيها قتل غياث الدين كيخسرو بن قلج أرسلان السلجوقى صاحب قونية ، وقد حدث ذلك فى أوائل السنة وهو يواقع الأرمن حلفاء الروم عند بلدة خونا من أعمال أذربيجان : المقريزى السلوك ج ١ ص ١٧٢ .

(2) Vasilev : op. cit. vol. 2 p. 513

حاكم قبرص الذى انتهز فرصة خلافه مـــع أخيه كيقباذ على العرش واقتحم المدينة (١) .

أما أخوه علاء الدين كيقباذ الأول (١٢٢٠ — ١٢٣٧ م) الذى كان عصره أزهى عصور أسرته فقد مـد ممتلكاته على الشاطىء الجنوبى للأناضول حتى الساحل المواجه لجزيرة قبرص إلى دروب قليقية وأقام مقره الرئيسى فى موضع أسماه العلايا (العلائية) . واستولى على مدن ساحل شبه جزيرة القرم التى انحازت إلى طرابزون بعد سقوط القسطنطينية فى أيدى اللاتين سنة ١٢٠٤ (٢) ولقد اهتم علاء الدين بأمر البحرية ، وأعد أسطولا قوياً هاجم كريميا فى ٦٢٢ هـ — ١٢٢٥ م فى نفس الوقت الذى أرسل فيه جيشا لأرمينيا فى الشرق وشمال إيطاليا وإلى هيثوم التابعة للسلاجقة . والتركمان الذين احتلوا أخيل أوجدوا أساس إمارة كرمان التى عرفت فيما بعد .

ولقد كانت سياسة السلاجقة تقوم على التحالف مع العناصر المختلفة فى آسيا الصغرى ثم ضربها بعضها ببعض ليحوز السلاجقة فى النهاية الكسب على حساب جميع القوى الموجودة . فانصرف كيخسرو الأول وكيكاوس الأول وكيقباذ الأول إلى تأمين حدودهم ، فانحازوا إلى الفرنج بأنطاكية لمناوأة قليقية وإلى اللاتين والبنادقة بالقسطنطينية لمناهضة اليونان فى نيقية وتراسلوا مع البابوية ، ورحبوا بالبعثات التبشيرية اللاتينية ، وذلك لمحاولة

---

(1) Camb Hist. of Islam P.247

Ostrogorsky : op. cit, p. 378

(٢) ذكر كل من المقريزى السلوك ج ١ ص ص ١٣٩ وأبو الفدا المختصر ج ٣ ص ٨٤ أن عز الدين كيكاوس « ظفر السلطان عز الدين كيكاوس بن كيخسرو بن أرسلان صاحب بلاد الروم بالاشكرى ملك الروم ولكن الذى سقط ليس تيودور إنما هو دافيد كومنين حاكم طرابزون .

انتزاع رعاياهم اليونان بكل ما يربطهم ببيزنطة من صلات .

إمارة طرابزون :

لم تنشأ تلك الإمارة نتيجة لسقوط القسطنطينية فقد قامت فى إبريل سنه ١٢٠٤ على الشاطىء الجنوبى للبحر الأسود والفضل فى إنشائها يعود لالكسيوس ودافيد كومنين أحفاد أندرونيكوس [1] . فبعد عزل أندرونيكوس الأول أرسل الكسيوس ودافيد وهم أطفال صغار إلى بلاد جورجيا حيث تولت رعايتهم الإمبرطورة تمارا Thamara سنة ١١٨٤ — ١٢١٢ م وساعدتهم على الاستيلاء على طرابزون فى ابريل ١٢٠٤ م ومن هناك استطاع دافيد الأخ الأصغر المغامر التقدم فى اتجاه الغرب على طول الشاطىء واحتلوا سنوب واستطاع أن يضم بافلجونيا وباونيا وهرقليا ، ولكن اصطدم مع مملكة نيقية ومع ثيودور لاسكارس فى أسيا الصغرى وخاصة أن دافيد بعد سقوط القسطنطينية اعترف بتبعيته لحاكم القسطنطينية اللاتينى فاشتبك مع ثيودور بدعم من حلفائه اللاتين ولكن لما ترك لمصادره الخاصة لم يستطع المضى طويلا فى الصراع [2] .

فى نفس الوقت اشتبك دافيد مع السلطان غياث الدين كيخسرو فى سنة ١٢٠٦ م نتيجة لتوسعه فى البحر الأسود وإغلاق مداخله ، ولقد تحالف السلطان مع ثيودور لاسكارس وانتهى الأمر بهزيمة دافيد واستيلائهم على سنوب ، وسقط دافيد أسيرا فى يد عز الدين كيكاوس

---

(1) Ostrogorsky op cit. p 371
Milier ; Trebizond p. 28,
Vasilicv, The Fondotjon' of , Empireof
Trebizond, p, 28,«speclum 1933»
(2) Ostrogorsky ; op' cit, p. 263

ابن غياث الدين الذى قتله وقبض على الكسيوس كومنين (١) وثبته على العرش كتابع لسلطنة السلاجقة ، وتعهد بدفع الجزية ، ولقد ترتب على استيلاء السلاجقة على سنوب نتائج بعيدة المدى فقد تضاءلت المملكة إلى شريط ضيق من الأرض واقتطعت من آسيا الصغرى ، وقد أدى هذا لمنع اتصالها المباشر بإمبراطورية نيقية ، ورغم أن هذه الإمارة لها أهمية تجارية كبيرة فإنها لم يكن لها تأثير كبير على تطور الأحداث فى مستقبل بيزنطة ولم تشارك تلك مشاركة فعلية فى أحياء الإمبراطورية وعلى كل فقد تجدد التحالف بين طرابيزون والسلاجقة فى عهد ثانى أباطرتها وهو أندرونيكوس الأول ، ولكن ما لبث أن نشب خلاف بينهما نتيجة للجوء إلى إحدى سفن طرابيزون المحملة بالجزية من إحدى الولايات وهى ولاية كرميان ، وعلى ظهرها أحد الأرخونات وعدد من النبلاء ، وتعرض لعاصفة شديدة ألجأتها إلى ميناء سينوب ووفقا للمعاهـــدة التى عقدها أندرونيكوس مع علاء الدين كيقباذ ، قام هيثوم حاكمها الذى يدين بالتبعية للسلاجقة بالاستيلاء على السفينة وشحنتها وبحارتها ، كما أرسل السفن لنهب خيرسون وكريميا ، وحين وصلت الأنباء طرابيزون ، حشد أندرونيكوس أسطولا وجهه إلى سينوب حيث استولى على جميع السفن الراسية فى الميناء .

وكان من الطبيعى الا يتقبل علاء الدين (٢) هذا الوضع فأعد أسطوله واتجه إلى طرابيزون وسارع أندرونيكوس بتحصين المدينة والطرق

---

(1) Miller; The Trebizond p'19 - 20
Vasilev; The Foundation p. 29

المقريزى : السلوك جـ١ قم ١ ص ١٧٩ ـ أبو الفدا ـ المختصر جـ ٣ ص ٨٤

(٢) علاء الدين كيقباذ بن غياث الدين كيخسرو كيقباد

زامباور : معجم الأنساب والأسرات الحاكمة فى التاريخ الإسلامى ترجمة د . زكى محمد حسن حسن أحمد محمد جـ ٢ ص ١٦٣

المؤدية لها . وحاصر غياث المدينة من جهة البحر وحاول الإمبراطور أندرونيكوس التفاوض وعقد معاهدة سلام [١]

ودعي وفد سلجوقي لرؤية المدينة وتحصينها ، ولكن هبت عواصف دمرت معسكر السلاجقة ووقع السلطان في الأسر ، فاستقبله أندرونيكوس بحفاوة بالغة وأجلسه بجانبه ، وبعد أن استشار أندرونيكوس مجلسه ، تقرر إرسال السلطان إلى بلاده ، وتجدد الاتفاق السابق بين طرابيزون وقونية مع رفع الشروط الخاصة بالتبعية والجزية والخدمات الحربية ، ولكن فترة الاستقلال هذه كانت قصيرة المدى فقد تنازع جلال الدين خوارزم شاه السيطرة مع السلطان السلجوقي على غرب آسيا وعقد اندرونيكوس اتفاقه مع جلال الدين الذي أصبح جاراً لطرابيزون ولكن عند هزيمته في خلاط سنة ١١٢٣ م كلفت هذه الغلطة أندرونيكوس جميع الامتيازات التي حصل عليها في اتفاقه مع علاء الدين ، وعادت طرابيزون تابعة لسلطان قونية في سنة ١٢٤٠ م [٢] .

أما الدولة البيزنطية الثالثة في آسيا الصغرى فكانت أبيروس التي أنشأها ميخائيل أنجليوس . وفي البداية اعترفت بالتبعية لنيقية وتحالفوا ضد اللاتين واستطاعت صد قوات سالونيكا . وامتد نفوذ حاكمها من الأدرياتيك إلى البحر الأيجيني واتخذ لقب باسليكوس ولم تكن لتلك الدولة علاقات مباشرة بالسلاجقة . وبذلك قامت على أنقاض القسطنطينية ثلاث

---

(1) Miller ; Trebizond 19,
Vasiliev; The Foundation' p 26
Camb, Med' Hist' Vol 4, p. 514

(2) Miller op. cit' p. 20 - 25
Camb.Hist, of Islam vol I , p. 247

نذكر أن الحروب في عام ١٢٢٨ كانت نتيجة لتحالف أندرونيكوس مع جلال الدين خوارزمشاه .

إمبراطوريان اثنتان أغريقيتان وواحدة لاتينية مستضعفة واقعة فى وسط يونانى يكن لها الكراهية تحيط بها المتاعب الاقتصادية والدينية والسياسية تقلص حجمها فلم يتعد العاصمة وما يحيط بها من أراض ، فى حين تولى نيقية قائد ماهر هو حنا الثالث Vatatsa ١٢٢٢ — ١٢٥٤ م الذى نهض بها من ولاية صغيرة إلى دولة قوية واستغل ضعف اللاتين وأخطاء أعوانه من البلغار واليونان وقام خليفته ميخائيل باليولوجس بإحياء الإمبراطورية البيزنطية والقضاء على مملكة اللاتين (١) .

ولقد استغل السلاجقة الصراع الدائر بين العناصر اليونانية واللاتينية وفترة السلام التى نعموا بها بعد سقوط القسطنطينية وتفككها لتوجيه قواتهم إلى جيرانهم المسلمين .

السلاجقة والقوى الإسلامية :

كانت سيادة السلاجقة بصفة عامة فى الفترة من سقوط القسطنطينية إلى ظهور المغول فى آسيا قائمة على أساس علاقة ودية مع الفرنج وحياد مع اليونان وعداوة لإخوانهم المسلمين ، واتجهوا فى هذه الفترة للتوسع صوب الجنوب الشرقى ، وهذه السياسة سبق أن طبقوها فى بداية القرن الثانى عشر ، وتخلوا عنها أثناء الخصومات الأسرية التى نشبت ، وبدلا من أن يستغلوا الصراع بين القوى البيزنطية القائم فى آسيا الصغرى لصالحهم إذ بهم يتجهون إلى الشام والجزيرة حيث ساد الصراع بين أمرائها والاضطراب والخلاف فاشتركوا فيه وعملوا على زيادة حدته ، فاستغلوا الخلافات فى الدولة الأيوبية بعد صلاح الدين لصالحهم وضد أعدائهم من المسلمين فى آسيا الصغرى والشام ، واتخذ كل من كيخسرو وكيكاوس سياسة التحالف مع الظاهر غازى صاحب حلب ضـــد ليو الثانى ملك أرمينيا الصغرى ،

(1) Ostrogorsky : op. cit, 305,
Setton: op. cit vol. 2 p. 214.

وكان غازى الأيوبى يأمل من وراء هذا التحالف أن يجد فيه الحماية من عمه العادل الأول ، وعند وفاة الظاهر سنة ١٢٢٦ م [١] أراد كيكاوس أن يساند إبناً آخر لصلاح الدين وهو الأفضل الذى كان يتولى سميساط منذ سنة ٦٢٧ هـ — ١٢٣٠ م إقطاعا من السلاجقة [٢] ، وكان يرشحه لأن يتولى حكومة حلب ، غير أنه لم يستطع إلى ذلك سبيلا [٣] ، بسبب ظهور الأشرف بن العادل [٤] ، واستطاع بفضل التحالف مع الأشرف أن ينتزع من مودود الأرتقى صاحب آمد وحصن كيفا كل مايملك من حصون واقعة وراء الفرات وتمتد إلى جنوب أذربيجان فأضاف إلى أملاكه أذربيجان سنة ١٢٢٨ م وبعد ثلاث سنوات من وفاة أميرها بهرام شاه وفى غمرة هذه الأحداث ظهر عامل جديد فى سياسة غرب آسيا هو الخوارزميين بقيادة جلال الدين خوارزمشاه ، وفى البداية لم يظهر السلطان السلجوقى العداء لجلال الدين خوارزمشاه الذى لم يهدد سوى أرزروم التى يعادى صاحبها كيقباذ [٥] ، وسوى أملاك الأشرف الشمالية الشرقية ، مثل خلاط على بحيرة آن غير أن الأمور لم تلبث أن تغيرت حينما ظهر أن جلال الدين يستعد لغزو الأناضول بعد أن دانت له أخلاط ، ولقى التأييد من جهان شاه صاحب أرزوم الذى صار من أتباعه .

واستطاع كيقباذ أن يحرض الأشرف الذى قام بنفسه بقيادة الجيش

---

(١) ابن واصل : مفرج الكروب ج ٢ ص ١٨١

(٢) أبو الفدا : المختصر ج ٣ ص ١٢٤

(٣) المقريزى : السلوك ج ١ ص ٢٣٨

(٤) حدث خلاف بين الأفضل وكيكاوس لاستيلاء كيكاوس على تل باشر ورفضه تسليمها له وفقا لاتفاقهم

(٥) أبو الفدا : المختصر ج ٣ ص ١٢٤

المقريزى : السلوك ج ١ ق ١ ص ٢٣٨

وانضم إليه فى حلب فضلا عن السلطان الأيوبى الكامل [١] ، وقرر أن يرسلوا إمداداً .

واجتمعت القوات فى سيواس ونجحت القوات المتحالفة فى إنزال الهزيمة بالخوارزمية فى سنة ١٢٣٠ م فى غرب أذربيجان [٢] .

وفر جلال الدين بعد أن قتل رجاله وإذ تورط بهرامشاه فى تحالفه مع الخوارزمية ، وحل به ماحل بهم من الهزيمة ففقد أرزروم التى أضافها كيقباذ إلى بلاده فأصبحت أملاك كيقباذ تتاخم أطراف أذربيجان [٣] ، وأضاف أيضا أملاك منجوشك [٤] .

وإذا كانت بلاد الكرج وجورجيا ساندت الخوارزمية ، فإن ما حدث من تهديد السلاجقة لهم أرغمهم وحلفائهم حكام طرابيزون اليونان على أن يتخذوا سياسة المسالمة نحو كيقباذ .

ولما لم يكن هناك دافع حقيقى للتعاون بين الأيوبيين والسلاجقة فقد تصادمت أطماعهم على ملكية خلاط والرها وحران التى سعى سلطان السلاجقة لضمها [٥] ، إلى جانب أن بعض الأمراء السوريين أنبأوا الكامل فى سنة ١٣٣١ م أن السلاجقة فى آسيا الصغرى يمرون بفترة ضعف ، وأن البلاد ليس بها من يدافع عنها ، فاتجه الكامل إلى الأناضول وبعد أن اجتاز الجبال الواقعة فى شمال الشام توجه صوب الشمال الشرقى حيث دعاه صاحب

---

(١) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٦ ص ٢٧٣

(٢) فيها قدم رسول السلطان علاء الدين كيقباذ السلجوقى صاحب الروم على الملك الكامل ، وأخبره بأنه جهز خمسة وعشرين ألفا إلى أذربيجان ، وعشرة آلاف إلى ملطية المقريزى : السلوك ج ١ قسم ١ ص ٢٣٨

(٣) المقريزى : السلوك ج ١ قسم ١ ص ٢٤٧

(٤) أبو الفدا : المختصر ج ٣ ص ١٥٤ ، أبو المحاسن النجوم الزاهرة ج ٦ ص ٢٧٣

(٥) المقريزى : السلوك ج ١ قسم ٢ ص ٢٤٨

خرتبرت ، غير أن الحليفين الظاهر والكامل تعرضا لهزيمة ، وذلك أن القوى الأيوبية فى شمالى الشام خشيت من ازدياد نفوذ السلطان الكامل لو استطاع القضاء على سلاجقة الروم وضم الأناضول . فقد بلغهم أن السلطان قال لبعض خدامه « أن صار لنا ملك الروم فإنا نعوض ملوك الشام والشرق بملك الروم بدل ما بأيديهم ، ونجعل الشام والشرق مضافا إلى ملك مصر [١] فاتفقوا على الملك الكامل ، وكتبوا إلى علاء الدين كيقباذ سلطان السلاجقة ووعدوا بالانضمام إليه وخذلان الكامل وسيروا الكتب ولكن تلك المراسلات وقعت فى يد الكامل ، فاضطر للتراجع [٢]، وأخذ علاء الدين قلعة خرتبرت ، وست قلاع أخرى كانت مع الملوك الارتقية وضم إليه حران ، والرها سنة ٦٣٢ هـ ١٢٣٥ م وبذلك امتدت أملاكه إلى ما وراء نهر الفرات . ولكن لم يلبث أن استردها الكامل دون تعب ثم حاصر أمد .

ولما مات علاء الدين كيقباذ الأول سنة ٦٣٤ هـ — ١٢٣٧ م خلفه ابنه غياث الدين كيخسرو وبعث ملوك الشام رسلهم إلى السلطان الجديد يعزونه فى أبيه ، ويحلفونه على ما اتفقوا من مخالفة الكامل [٣]. ولكن شغل غياث الدين بالخلاف الذى نشب بينه وبين الخوارزمية الذين فروا إلى الجزيرة . غير أن ما حدث من وفاة الأشرف ثم الكامل هيأ له أن يشترك فى التحالف مع أمراء الشام والجزيرة ضد الصالح أيوب بن الكامل والخوارزمية [٤] فدخل أمد التى تعتبر أمنع المعاقل فى ديار بكر وحاصر ميافارقين الواقعة وراء دجلة فامتدت حدود السلاجقة إلى نفس الحدود التى كانت للدولة البيزنطية من قبل ، بل أنها فى اتجاهها نحو الجزيرة قد

(١) المقريزى : السلوك جـ١ قسم ٢ ص ٢٤٨

(٢) المقريزى : السلوك جـ١ قسم ٢ ص ٢٤٩

(٣) المقريزى : السلوك جـ١ قسم ٢ ص ٢٥٤

(٤) أبو شامة : الذيل على الروضتين ص ١٨

تجاوزت حدود بيزنطة السابقة وهى تطابق منازل التركمان، ولقد خطب باسمه فى سنة ٦٣٨ هـ على منبر دمشق [١] .

ولقد بلغت دولة سلاجقة الروم فى زمن كيقباذ الأول اقصى اتساع. ورغم تزايد الخطر المغولى فى مستهل حكم كيخسرو الأول فقد بلغت المملكة الذروة فى القوة العسكرية ، وفى التوسع الاقليمى يحيط بها أتباع أو حلفاء من كل جانب : المسلمون فى حلب والجزيرة ، المسيحيون فى طرابيزون وقبرص الذين اعتادوا أن يرسلو إليها امدادا كلما طاب إليهم ذلك . وكانت هذه أيضا هى الفترة التى اكتملت فيها نظم الدولة ونضجت الحياة الاقتصادية والحضارية وشاهدت البلاد حركة إنشائية ضخمة وإقامة العديد من المدن والمساجد والمدارس ولقد عرف كيقباذ فى التاريخ السلجوقى باسم كيقباذ العظيم .

ولكن الحقيقة أن دولة سلاجقة الروم كانت تخفى وراء واجهتها القوية ما كان ينخر فى داخلها من عوامل الضعف. على حين أن الخطر المغولى بدأ يلوح فى الشرق إذ أن المغول قد بدؤا فى ارتياد أملاك السلاجقة فى أواخر أيام كيقباذ الأول ، ولكن ما حدث من مشاكل داخلية فى الدولة المغولية هيأ لكيخسرو فترة من الراحه لم تستمر طويلا .

---

(١) المقريزى : السلوك جـ ١ قسم ٢ ص ٣٠٨

Camb. Hist. of. Islam Vol. I p. 246

الفصل السادس

انهيار دولة سلاجقة الروم

الغزو المغولى :

المغول وآسيا الصغرى :

اجتاح المغول كل شرق أوربا والشرق الأدنى(١) فخضعت روسيا للغزاة لمدة قرنين من الزمان ، واستولوا على Silesia بوهيميا ، مورافيا ، المجر وحوض الدنوب ووصلوا إلى شاطىء الأدرياتيك ثم اخضعوا شبه جزيرة البلقان وأراضى السلاف فى الجنوب وأجبروا بلغاريا على دفع الجزية ، فى نفس الوقت الذى غزت فيه جيوشهم الشرق الأدنى ، وشعر سلاجقة الروم وامبراطورية نيقية ، وطرابزون أن هناك خطرا يتهدد وجودهم فسعوا للتحالف ضد الخطر المشترك سنة ١٢٤٣ م ، وإن لم تستطع آسيا الصغرى التى قاست من الحروب والصراعات داخلها أن تقاوم عدواً امتد نفوذه من الباسفيك إلى قلب أوربا .

---

(١) المغول : ليس هناك معلومات واضحة عن المغول فى الفترة السابقة جنكيزخان ولكن ما عرفة هو أنهم كانوا يقطنون المنطقة الممتدة من سد الصين جنوبا إلى بحيرة بقال شمالا وكان مستواهم الحضارى على درجات مختلفة وقد ذكر الصينيون ثلاث أنواع من التتار ، التتار البيض ، التتار السود ، والتتار المتوحشون بارتولد ص ١٥٢.

ذكر أبو الفدا : المختصر جـ ٣ ص ١٤١ فقرة عن أصل المغول وظهور جنكيزخان

ولكن منذ القرن الثانى عشر ظهر المغول كقوة حربية هائلة حين استطاع زعيمهم جنكيزخان أن يجعل نفسه سيدا مطلقا على جميع قبائل المغول فى آسيا، فضلا عن قبائل الأتراك فى مناطق السهوب الأسيوية، ذلك أن جنكيزخان استولى على الصين فيما بين سنتى ١٢١٠ — ١٢١٦ ثم اتجه بعد ذلك غربا فاخضع تركستان الشرقية ثم أتراك خوارزم سنة ١٢٢٠ م ولم ينتصف القرن الثالث عشر حتى كانت جيوش المغول مستولية على فارس ومعظم جنوب روسيا وأطراف أوربا الشرقية.

ولقد بدأ ارتياد التتار للأراضى الإسلامية منذ أوائل القرن السابع الهجرى فيذكر المقريزى فى عام ٦١٦ هـ — ١٢٠٠ م «كان ابتداء خروج التتر من بلادهم الجوانية إلى بلاد العجم (١)» لقد استطاع التتار خلال سنوات قليلة الاستيلاء على العديد من المدن الحصينة والتوغل فى قلب العالم الإسلامى دون أن تستطيع أن تتصدى لهم أى قوة فملكوا سمرقند، همذان، قزوين، فرغانة، الترمذ، خوارزم، مرو، نيسابور، طوس، هراة غزنه، وفى ٦٢١م ضموا قم وشاشان فى العراق العجمى. وفى ٦٢٨م هزموا جلال الدين خوارزم فى ميافارقين ووصلوا لأربل (٢) ودخلوا أراضى آسيا الصغرى ٦٢٩ م واستولوا على أرمينيا وخلاط واستنجد الخليفة المستنصر العباسى بالقوى الإسلامية فى مصر والشام «سير عدة رسل يستنجد بالأشرف فى مصر ويستنجد العربان وأخرج الأموال فوقع الاستخدام فى جميع البلاد لحركة التتر» (٣).

لقد رأى السلطان كيقباذ أنه لا أمل له فى صد المغول فسعى لمهادنتهم

---

(١) المقريزى : السلوك جـ ١ قسم ١ ص ٢٢٨
(٢) ابو الفدا : المختصر جـ ٣ ص ١٤١
(٣) المقريزى السلوك جـ ١ قسم ١ ص ٢٤٢

ليضمن سلامة أراضيه ، فعقد مع الخان الأعظم أوغدى Ogedei معاهدة سلام ، وفى عهد ابنه غياث الدين كيخسرو الذى خلفه سنة ٦٣٤ هـ — ١٢٣٦ م بدأ الدور الفعلى للدولة السلاجقة ولقد ساعدت الأحوال الداخلية وحالة الضعف التى كانت تعانيها المملكية السلجوقية فى عهد كيخسرو على سهولة فتح البلاد فعهده يعتبر بداية النهاية لسلاجقة الروم .

فلقد ترك السلطان تدبير أمور الدولة لرجل يدعى سعيد الدين كوبك كان قد عاونه فى تولى العرش ، ثم أحكم السيطرة عليه واستغل نفوذه فى التخلص من أعدائه ، مما أوجد حالة من عدم الاستقرار إلى جانب قيام الفتن والاضطرابات ، كانت أخطرها فتنة بابا الرسول (١) .

فنتيجة للفتح المغولى (٢) هاجرت أعداد كبيرة من التركمان إلى الأناضول كما حدث فى الهجرة السلجوقية الأولى . وظهر بينهم رجل يدعى النبوة يسمى بابا إسحاق يدعو إلى الزهد والتقشف ، ويقدح فى السلطان غياث الدين كيخسرو وحاشيته لانغماسه فى الترف ، ولقد بشر التركمان ببداية عهد جديد وحمل أتباعه على أن يقولوا « لا إله إلا الله ، البابا رسول الله (٣) وانتشرت الثورة فى مرعش ، خلاط ، البستين ، ملطية ، ثم وصلت إلى سيواس وأماسيا ، واستطاعت جيوش السلطان هزيمته وقتله ، ولكن التركمان الذين اعتقدوا فيه تتبعوا الجيش السلطانى ، واضطر السلطان إلى الهروب من قونية ولكن جيش أرزروم استطاع هزيمتهم قرب klrsh bir سنة ١٢٤٠ م فى الوقت الذى بدأت فيه جيوش المغول تتوغل فى آسيا الصغرى .

وفى سنة ٦٣٥ هـ — ١١٤٢ م بدأ الفتوح المغولى لدولة سلاجقة

---

(١) Enc. Isl. Art. Kaikhusraw
Gamb. Hist. of Islam p 249

(٢) المقريزى : السلوك ج ١ قسم ٢ ص ٣٠٢

(٣) المقريزى : السلوك ج ١ قسم ٢ ص ٣٠٢

الروم باستيلائهم على أرزروم وفى العام التالى سنة ١١٤٣ م حدثت الغزو الكبرى وكان كيخسرو الثانى مشغولا فى حروبه فى ديار بكر فسارع بالعودة وحشد كل ما استطاع جمعه من قوات بلغت ثمانين ألفاً ، وكانت القوات تتألف من عناصر مختلفة بل كانت تضم فرنجا من الذين انضموا إليها أثناء صراعها مع نيقية [١] . أما الجيش المغولى فكان يقوده بيجونوين وكان تعداده ثلاثين ألفاً مقاتل والتقى المغول فى kosedagt بالقرب من سيواس فى محرم سنة ٦٤١ هـ — يونيو ١٢٤٣ م ، ورغم أن السلاجقة قاتلوا قتالا مستميتا إلا أن الهزيمة حاقت بهم وتقدم المغول من سيواس إلى قيصرية التى خربوها . واضطر السلطان للفرار وتخلى عن معسكره بكل ما يحويه من كنوز وتحف وهرب إلى أنطاليا ومنها فر والتجأ إلى سرديس ثم القسطنطينية ، أما وزيره مهذب الدين فقد كان أشد مراسا منه ، إذ توجه إلى القائد المغولى بانجو ثم سارا معاً إلى الأمير المغولى باطوخان [٢] ، وحصل من الأمير المغولى على معاهدة صلح تقضى باستمرار بقاء دولة السلاجقة مقابل أن تؤدى الجزية وترسل الامداد كلما طلب إليها ذلك ، وقدم التتر بلاد الروم ، وأوقعوا بالسلطان غياث الدين كيخسرو ابن كيقباذ بن كيخسرو بن قلج أرسلان ، وهزموه وملكوا بلاد الروم وخلاط وآمد ، فدخل غياث الدين فى طاعتهم . على مال يحمله إليهم ، وملكوا أيضا سيواس وقيسارية بالسيف وقرروا على صاحبها فى كل سنة أربعمائة دينار . ففر غياث الدين منهم إلى القسطنطينية [٣] .

عاد كيخسرو إلى قونية وحرص على الانتقام من الأرمن الذين سلموا أمه للغزاة ، بعد أن لجأت إليهم أثناء التتر والمغول . وهزيمة سنة ١٢٤٣م

---

(١) رشيد الدين الهمذانى جامع التواريخ ج ١ ص ٢٣٩

(2) Howorth : Hist of Fhe Mongols vol. 3. p. 11

(٣) المقريزى السلوك ج ٢ ق ٢ ص ٣١٢

تبدو كمعركة خسرها ، ولكنها من الناحية الواقعية كانت إيذانا بنهاية دولتهم . فهذه البقية من مملكة السلاجقة التي أراد لها المغول البقاء تحت سيطرتهم كانت بالغة الضعف من الداخل تمزقت تحت ضغط الخلافات الداخلية والصراعات الأسرية والغزو الخارجي الذي لم يستطع السلاجقة تحمله (١) ، وكانت المعركة بداية لعملية طويلة الأمد من أجل سيطرة المغول في آسيا الصغرى (٢) .

الوحيد في منطقة آسيا الصغرى الذي لم يتأثر بالغزو المغولي بل استفاد من ضعف جيرانه كان يوحنا فتياتزيس حاكم نيقية (١٢٢٢ — ١٢٥٤م) الذي أفاد استراتيجيا واقتصاديا . فإن السلاجقة نتيجة لحاجتهم للسلع التجارية لجأوا إلى حنا لشرائها بأثمان مرتفعة من الذهب .

أما من الناحية الاستراتيجية فقد أفاد حنا من الاخطار التي أحاطت بأعدائه من اللاتين والأغريق والبلغار والسلاجقة لصالحه ، لقد مكنه ضعف السلاجقة من ترك آسيا الصغرى والاتجاه إلى البلقان ، فحارب البلغار وانتصر عليهم واستعاد الأراضي التي سبق لحاكمها أن أخذها من الأغريق ، وكذلك انتصر على امبراطورية الأغريق الغربية سنة ١٢٤٦م ومد أراضيه إلى تراقيا ووصل صربيا ومقدونيا واستولى على سالونيكا سنة ١٢٤٦م وولى على الجزء الأوربي اندرونيكوس Palaeoloyns وحكم ابنه ميخائيل الامبراطور المقبل من سيراس وملنيك ابيروس تابعا له ، وحاول الاتحاد مع الامبراطورية الألمانية والبابوية (٣) .

وعند نهاية حكم فيتاتزيس تضاعفت أراضي نيقية وأصبحت آمنة سواء

(١ Vasiliev: op. cit p. 530
Ostrogorsky: op. cit. p. 393
(2) Setton op' cit Vol. 2, p. 225
Ostogorsky, op. cit. 393
Vasiliev, op. cit. Vol. 2 p. 476

فى آسيا الصغرى أو البلقان فأعداؤها السابقون بعضهم اختفى من الوجود كممالك اللاتين فى الغرب أولم يعد يمثل خطرا كبقايا مملكة ابيروس أو بلغاريا ، أما مملكة اللاتين فى القسطنطينية فقد تقلصت ممتلكاتها إلى الأراضى المحيطة بالقسطنطينية وتحيط بها أملاك فيتازيس من جميع الجهات ولقد عاد حنا للاهتمام بأمر حدود آسيا الصغرى وكان دافعه لهذا أن القبائل التركية التى اتجهت إلى آسيا الصغرى نتيجة للضغط المغولى اندفعت بجموع هائلة إلى المقاطعات البيزنطية بحثاً عن مأوى ، فأعاد نظام الأكراتين ولكن جعلهم تحت إشراف وسيطرة الحكومة المباشرة ، ولقد اعتبر المؤرخ George Pachymeres أن إعادة هذا النظام أعظم ماقام به حنا من منجزات [١]، ولقد استخدم بعض عناصر الكومان الذين انضموا لبيزنطة تحت ضغط التتار فوطنهم فى تراقيا ومقدونيا وادى المنيادر فى فريجيا .

مملكة سلاجقة الروم كامارة تابعة للمغول :

نتيجة لهزيمة سنة ١٢٤٣ م سيطر المغول على دولة سلاجقة الروم سيطرة تامة وتدخلوا فى إدارة الدولة ، والخلافات الأسرية ، وكان الخان فى الأردو هو صاحب الكلمة الأخيرة فى مملكة سلاجقة الروم وكان يمثله فى المملكة شحنة أو قائد تترى يقيم بصفة دائمة فى قونية .

وبعد وفاة غياث الدين كيخسرو سنة ٦٤٣ هـ — ١٢٤٦ م أصدر الخاقان كيوك يارليغ بأن يتولى أبناء السلطان الثلاثة وهم عز الدين وركن الدين وعلاء الدين المملكة مشتركين وظهرت أسماء الثلاثة على النقود ، ولكن مالبث أن نشب خلاف بين عز الدين وركن الدين على العرش فى الوقت الذى أرسل الخان يطلب إليه المثول بين يديه فسار إلى سيواس ولكن بلغه أن هناك مؤامرة تحاك من عدد من الأمراء لعزله

(١) Ostrogorsky op. cit p 393

وتولية أخيه ركن الدين ، فسارع بالعودة إلى قونية وقبض على أخيه ركن الدين وأرسله إلى أماسيا . وقرر أن يرسل أخاه الأصغر علاء الدين كيقباذ عن طريق البحر الأسود وبلاد القفجاق مصطحبا معه سيف الدين حاكم أماسيا وواحد من كبار قادته ، واعتذر للخان [١] فى رسالته بأن مدبر مملكته جلال الدين قرطاى قد مات [٢] ، وأن البيزنطيون قد يهاجمون البلاد أثناء غيابه فذكر فى رسالته للخان « إنى قد سيرت أخى علاء الدين وهو سلطان مثلى وأنا لم يمكننى المجىء بسبب أن أتابكى ومدبرى جلال الدين قرطاى قد مات وظهر لى أعداء من ناحية الغرب فإذا كفينا شرهم جئت المرة الأخرى [٣] » ، ولكن الحزب المؤيد لركن الدين زور رسالة من عز الدين إلى قرطاى ورفاقه فأمرهم بأن يسلموا علاء الدين وما معه من هدايا إلى قاضى القضاة شمس الدين والأمير سيف الدين جاليش الذى يحمل الخطاب والذى سيصحب الأمير إلى بلاد التتار ، وأخذوهم إلى القائد باتو وأخبروه بأن طرنطاى أصيب بالجنون ، ولا يستطيع المثول بين يديه وأنه ساحر يريد أن يسم الخان منجو ، فأمر باتو بتفتيش أمتعتهم فوجدوا بها بعض الأعشاب مما زاد شك باتو فأمر أن يذهب الجميع إلى الخاقان علاء الدين ومن معه وطرنطاى ، ولكن مات علاء الدين فى الطريق وأجرى الخاقان استجوابا لمعرفة من كان له يد فى وفاة علاء الدين الذى يشك فى وفاته مسموما [٤] ، وفى تلك الأثناء استطاع ركن الدين الفرار من سجنه وقرر الخان تقسيم المملكة بينهما مناصفة ، فيصير من نهر سيواس إلى حد بلاد الأشكرى لعلاء الدين كيكاوس ، ومن سيواس إلى تخوم أرزن الروم

---

(١) بعض المراجع تذكر أنه كيوك خان Howorth.op. cit vol .2p,380 فى حين يذكر بيبرس الدوادار زبدة الفكرة ج ٩ ص ١ أنه منكوخان

(٢) ابن العبرى : تاريخ مختصر الدول ص ٤٦١

(٣) ابن العبرى تاريخ مختصر الدول ص ٤٦١

(٤) Howerth Hist. of the Mongols Vol. 3, P. 48

D,ohsson : Histoire des Mongolsvol, 3p, 73.

من الجهة الشرقية المتصلة ببلاد التتار لركن الدين قلج أرسلان أخيه (١) ، ولكن بعد الاتفاقية حاول ركن الدين مهاجمة قونية فهزم وأخذ أسيرا إلى قلعة Davatu وفى العام التالى ١٢٥٥ م تضايق منكوخان من عدم إرسال عز الدين الجزية وأرسل إليه يطلب تسليم بعض القلاع التى استحسنها فى موغان (٢) ، ولكن السلطان رفض فأرسل إليه الخاقان جيشاً يقوده بنجو ، وخجانوين وهزم السلاجقة ودخل المغول قونية وهرب عز الدين إلى العلايا(٣)، ومنها ذهب إلى ثيودر لاسكارس الثانى الذى خلف حنا فيتازيس (١٢٥٤ — ١٢٥٨ م) ولكن ثيودور خاف انتقام المغول ونصحه بالعودة إلى وطنه، وفى نفس الوقت أرسل ثيودور سفارة للمغول ، واستقبل سفرائهم فى بلاطه لكى يضمن سلامته من سادة آسيا الصغرى .

ولقد عاد عز الدين إلى بلاده وأرسل يبدى خضوعه لهولاكو (٤) ويشكو بانجونوين وأنه قد أزاحه عن ملكه فأمر هولاكو أن يتقاسما المملكة هو وأخوه ركن الدين ، ولقد انحاز إلى كل منهما جماعة من الأمراء فكان مما انحاز إلى السلطان عز الدين طرنطاى الأتابك وشمس الدين يوتاش والطغرائى ومما انحاز إلى ركن الدين سيف الدين طرنطاى صاحب أماسية ومعين الدين سليمان البرواناه (٥) .

---

(١) الأشكرى المقصود به هنا ثيودور لاسكارس الثانى ولقد أطلق المسلمون على كل أباطرة بيزنطة منذ سقوط القسطنطينية لقب الأشكرى وأول من أطلق عليه ثيودور لاسكارس الأول حاكم نيقية .

(٢) بيبرس الدودار : زبدة الفكرة ج ٩ ص ٦

(٣) Howorth op Git· vol. 3p. 184

(٤) بيبرس الدرادار: زبدة الفكرة ج ٩ ص٦ العلايا بلد صغيرة فى أنطاليا

(٥) معين الدين سليمان الداوناه : البراوناه بمعنى الحاجب وهو يطلق على الوزير الأكبر ولقب بالصاحب ، وكان أباه قد ذهب لتجربة حظه فى بلاد الروم فتبناه وزير مالية السلطان =

فى هذا الوقت كانت قوات المغول تتقدم لفتح الأراضى الإسلامية فقد أوفد منكوخاقان هولاكو إلى الشرق ، فسقطت فى يده قلاع الباطنية ١٢٥٦ م ثم اتجه إلى الخلافة العباسية حيث استولى على بغداد ٦٥٦ هـ — ١٢٥٨ م وقتل الخليفة المستعصم بالله ثم تقدم المغول إلى بلاد الشام ولم تستطع بقايا الأيوبيين مقاومتهم فخضعت لهم الأراضى الإسلامية من آمد وديار بكر إلى غزة . ولقد صاحبت القوات السلجوقية المغول فى فتحهم للمدن الإسلامية فى بلاد الشام ، فحين عزم هولاكو على المسير إلى حلب استدعى عز الدين وركن الدين لمصاحبته « لما عزم هولاكو على المسير إلى حلب وعبر الفرات استدعاهما فسار إليه وحضرا معه أخذها »(١) وكانت القوة الوحيدة التى تصدت للمغول هى قوة حكام مصر من المماليك ، وعند عين جالوت فى رمضان ٦٥٨ هـ — سبتمبر ١٢٦٠ م لقى المغول هزيمة ساحقة على يد السلطان سيف الدين قطز المملوكى ، وتلك الهزيمة جعلت المد المغولى يقف عند حدود وأنقذت العالم الإسلامى من خطرهم . ولكن رغم التعاون الظاهرى بين عز الدين والمغول فإن عز الدين كان لا يأمن جانبهم فسعى للتحالف مع بيبرس البندقدار سلطان مصر الذى خلف قطز ١٢٦٠ — ١٢٧٧ م وقد أعانه على ذلك نائبه شمس الدين يوتاش ، فراسل بيبرس ووعد بتسليم نصف مملكته وأعطاه اختيار توزيع تلك الإقطاعات على من يريد ، وأمر بيبرس جنوده أن يسيروا إلى دمشق وحلب

= السلجوقى علاء الدين كيقباذ وزوجه ابنته وأصبح وزيرا وأثر ترك الوزارة لابنه سليمان الذى عرف بالپروانا وأعطى له سينوب كاقطاع من ركن الدين

Enc· of Islam Art· Meinal Din· sulman ·

Quatremere : Hist. des. sultan Mamloukp. 57-64

(١) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة جـ ٧ ص ٧٧

المقريزى : السلوك جـ ١ ص ٤٣٠

أبو الفدا : المختصر حوادث سنة ٦٥٨

ليساعدوا عز الدين « قدم الأمير شرف الدين الجاكى ، والشريف عماد الدين الهاشمى من عند صاحب الروم وهـو السلطان عز الدين كيكاوس ابن كيخسرو ، ومعهما رسل المذكور وهما الأمير ناصر الدين نصر الله ابن كوخ رسلان أمير حاجب والصدر صدر الدين الأخلاطى . وكتابه المتضمن أنه ترك نصف بلاده للسلطان « وسير دروجا فيها علائم بما يقطع من البلاد لمن يختار السلطان ويؤمره »[١] واستغل البرواناه الفرصة وأبلغ التتار بأمر المراسلات ، فأمر هولاكو بخلع عز الدين ، وقرر عز الدين الذهاب إلى هولاكو ، ولكن بلغته أنباء أن ركن الدين ووزيره البرواناه والقائد المغولى بيان نوين سائرين إليه ويريدان القبض عليه وأخذه إلى بلاد المغول ، والتقى الجيشان عند موضع يسمى يلد ورزاع ، وتأويله جبل النجم ، فهزم ركن الدين من التتار ، وعاد إلى أرزنكان فاقاموا بها وأرسلوا إلى هولاكو يستمدون منه مددا فأرسل إليهم قوات لمساعدتهم ، وفى نفس الوقت أرسل إلى عز الدين يستدعيه فأبى ، ولكن استطاع ركن الدين بمساعدة قوات التتار الاستيلاء على قونية . وهرب عز الدين إلى القسطنطينية إلى بلاد ميخائيل باليولوجوس الذى تولى عرش القسطنطينية فى ١٥ أغسطس سنة ١٢٦١ م بعد قضائه على مملكة اللاتين وهزيمته لبلدوين الثانى ملكهم[٢] ، ولجأ عز الدين إلى هناك بصحبة أخواله كرخيا وكركديد

(١) المماليك : اعتمد سلاطين بن أيوب على المماليك وهم من الرقيق الأبيض من بلاد ما وراء النهر والقفجاق وتضخم نفوذهم فى عهد الصالح أيوب ، ولجهودهم يعود الفضل فى الانتصار على حملة لويس التاسع ، وفى ٢ مايو عام ١٢٥٠ م تخلص المماليك من تورنشاه وبوفاته انتهى حكم الأيوبين فى مصر وتولت الحكم شجرة الدر عام ١٢٥٧ م وتعتبرها بعض المراجع أول سلاطين المماليك وتزوجت عز الدين أيبك وتولى عرش سلطنة المماليك ثم تخلصت منه بالقتل ثم قتلت هى الأخرى وتولى المنصور على ابن أيبك الذى عزله قطز

سعيد عاشور : والحركة الصليبية ج٢ ص ٧٨ - ١

المقريزى : السلوك ج ١ ص ٤٧٠ — العينى عقد الجمان فى تاريخ أهل الزمان ج ١ ص ٤٧٢

(٢) بعد وفاة ثيودور لاسكارس خلفه ابنه حنا الرابع ولكن استطاع ميخائيل باليولوجس =

وعدد من الأمراء ، وكانت أم عز الدين مسيحية ابنة كاهن أغريق[1] ولذلك أستقبل فى القسطنطينية بترحاب ، هرب السلطان عز الدين منهزماً إلى الأشكرى بالقسطنطينية وصحبته أخواله كرخيا وكركديد وهما على دين النصرانية وثلاثة نفر من أمرائه وأخلى البلاد فملكها ركن الدين واستولى عليها سوى الثغور والسواحل التى بأيدى التركمان[2] ، وبذلك أصبح ركن الدين الحاكم المنفرد لدولة سلاجقة الروم ، وإن كانت القبائل التركمانية قد رفضت الاعتراف بسلطانه ، واعترفوا بسلطان المغول بصفتهم حكام مستقلين فأرسل عدداً من أمرائهم وهم محمد بك، وأخوته الياس بك وصهره على بك قريبه سونج يطلبون فرمان بتقليد وشحنه يقيم عندهم وكتب لهم فرمان بالبلاد التى بأيديهم وهى طنغزلو وخوناس وطلمانى وما حولها[3].

= أن يصل إلى الحكم ويصبح امبراطور مشاركا ١٢٥٨م . ومن اللحظة الأولى سعى لاستعادة الامبراطورية فبدأ بالقضاء على الفتن فى الداخل متمثلة فى ثورة أخيه حنا حيث انضم اليه جيش من الكومان والسلاجقة واستطاع ميخائيل هزيمته فى ١٢٥٩ م والاخطار الخارجية المتمثلة فى امارة ابيروس أو فردريك ابن مانفرد حاكم صقلية . وكانت الخطوة التالية الاتجاه إلى القسطنطينية فعقد محالفة مع جنوه فى مقابل حصولها على مزايا تجارية نكاية فى البندقية حليفة اللاتين ، واستطاع بسهولة دخول العاصمة فى ٢٥ يوليو سنة ١٢٦١م بلا معارضة وهرب بلدوين الثانى وفى ١٣ أغسطس توج ميخائيل امبراطورا وبذلك عادت بيزنطة دولة موحدة ، ولكن فترة حكم اللاتين تركت فى جسد الامبراطورية جراحا لا تلتئم ، جعلت بيزنطة الجديدة لا تتمتع بميزات ومقومات الدولة القديمة ، فهى محاطة بالأعداء من كل جهة ، والمدن الايطالية تتحكم فى المياه البيزنطية ومستعمراتها فى قلب الامبراطورية وفى معظم الجزر فى شرق البحر المتوسط ، وهناك اغريق تحت حكم اللاتين ، وشمال البلقان سيطر عليه المملكتان البلغار والصرب وتوسعتا على حساب بيزنطة ، ولكن فى هذا الوقت لم تكن لديهم قدرة لاتخاذ خطوة ايجابية ضد بيزنطة ، ولكن كانتا على استعداد للانضمام لأى عدو لبيزنطة من دون الغرب ، كل هذا دفع ميخائيل باليولوجس إلى ترك أمر حدودها الشرقية فى آسيا الصغرى والاتجاه الغرب .

Ostrogorsky op. cit. p. 40.

(1) Enc. of Islam Art. kaikaus

(٢) بيبرس الدوادار زبدة الفكرة جـ١ ص ٦٤

(٣) القلقشندى : صبح الأعشى جـ ٥ ص ٢٦٦ — ٢٦٩

ولقد اشتهر من طوائف التركمان تلك ست طوائف أولاد قرمان ، بنو حميد ، بنو ايدين ، بنو منتشا ، بنو اورخان .

وقد وجد عز الدين فى القسطنطينية كل ترحاب فأكرمه ميخائيل وأقبل عليه وعلى من معه من الأمراء ولكن أمراء عز الدين حاولوا تدبير مؤامرة وقتل ميخائيل والاستيلاء على العرش البيزنطى ، وطلبوا منه كتمان الأمر عن إخواله كرخيا وكركديد ، فاستدعى عز الدين خاليه وأخبرهما بما عزم قواده عليه وطلب منهم إبلاغ الإمبراطور بذلك ومنعه من الخروج إلى الميدان ذلك اليوم ، فتوجها إلى ميخائيل وأخبراه فقبض عليهم وعلى عز الدين الذى أرسله هـو وأولاده إلى قلعة Anios من القلاع الغربية [١] ، أما المتآمرين فقد سمل أعينهم . وجمع الأمبراطور غلمانه وحاشيته وجند عز الدين وعرض عليهم الاختيار بين اعتناق المسيحية أو سمل أعينهم « أمر أن يجتمع كل من يلوذ بهم من الجند والغلمان والعامة والحاشية فجمعوا فى الكنيسة الكبرى جميعاً وحضر البطاركة وعرضوا عليهم دخول دين النصرانية ، فنهم من تنصر فسلم ومن أبى إلا البقاء على إسلامه فكحل [٢] » .

ولقد ظل عز الدين معتقلا إلى سنة ثمان وستين وستمائة حين أرسل منكوتمر خان القيجاق جيشا استولى عليها وأطلق سراح عز الدين [٣] وأحضره إلى القرم حيث تزوج إحدى بنات بركة خان وبقى هناك لوفاته سنة ٦٧٨ هـ — ١٢٧٧ م [٤] « تفكر الخان منكوتمر بن طغان ، ملك التتر

(١) Enc of Islam Art kaikâus

(٢) Enc. of Islam Art. Kaikaus

(٣) بيبرس الدوادار : زبدة الفكرة ج ٩ ص ٩٩

(٤) المقريزى : السلوك ج ١ قسم ٢ ص ٥٨٨

بلاد الشام على الأشكرى ملك القسطنطينية فبعث الخان جيشاً من التتر حتى أغاروا على بلاده، وحملوا عز الدين كيقباذ بن كيخسرو [١].

أما دولة سلاجقة الروم فقد سيطر عليها ركن الدين منفردا بعد فرار عز الدين، ولكن الحاكم الحقيقى كان البرواناه الذى أحكم سيطرته على السلطان ولكن البرواناه خاف أن يثور عليه سيدة الأسمى، فأثار المغول عليه بدعوى عصيانه، واستولى على السلطة وقتل التتار ركن الدين برنز قوس سنة ٦٦٤ هـ - ١٢٦٦ [٢] م وتولى ابنه غياث الدين كيخسرو بوصاية البرواناه وهو لم يتجاوز الرابعة، وبذلك انفرد البرواناه بأمر المملكة السلجوقية وإن كان التتار قد أقاموا معه مقدما منهم هو صمغار ومعه حامية تركية.

معركة ابلستين :

توفى هولاكو سنة ٦٦٣ هـ - ١٢٦٥ م وخلفه ابنه ابغا ولقد استمر على سياسة أبيه العدائية تجاه العالم الإسلامى وكان من الطبيعى أن يصطدم بالدولة المملوكية وهى أقوى دولة إسلامية فى المنطقة ولم ينس المغول ما حاق بهم على يد الجيش المملوكى فى عين جالوت، وحاولوا الثأر عن طريق مهاجمة المماليك فى الشام فهاجموا البيرة سنة ٦٦٣ هـ ١٢٦٥ م ولكن ردتهم جيوش بيبرس ولما ثبت لهم قوة الجيوش المملوكية حاول إبغا إجبار بيبرس على عقد صلح عن طريق التهديد ولكنه لم يجدى فعاود الهجوم على البساجرد ثم على عينتاب والعمق، ولما شعر ابغا أن محاولته الهجومية لم تجدى سعى للصلح ثانية فأرسل ٦٧٠ هـ - ١٢٧٢ م

(١) Howorth: op. cit. Vol3, 258

(٢) المقريزى : السلوك جـ ١ قسم ٢ ص ٥٢٢ . وكان موت ركن الدين خنقا بالوتر ، وذلك أن معين الدين البرواناه اتفق مع التتر المقيمين معه على قتل ركن الدين خنقوه .

سفارة كان يصحبها رسول البرواناه ، حضر إليه رسل البرواناه ، النائب بالروم ورسل صمغار مقــدم التتار المقيم بها ، فجهز الأمير فخر الدين إياز المقرى والمبارز الطورى أمير طبر صحبة رسلهما بهدية إليهما وإلى إبغا فدخلا قيسارية واجتمعا بصمغار والبرواناه وأرسلا إليهما الهدية وأبلغوهما جواب الرسالة وتوجها إلى الاردوا واجتمعا بأبغا وأرسلا إليه هديته[١]، ومع ذلك فإن تلك المفاوضات لم تأت بنتيجة مرضية بالنسبة لأبغا وانقضى الأمر بغير اتفاق[٢].

جدد المغول هجماتهم على البيرة ٦٧٣ هـ[٣]، فى الوقت الذى وصل فيه عدد من أمراء السلاجقة الثائرين على البرواناه ، اختلفت أمراء الروم على البرواناه ، فقاومته جماعة من قيسارية[٤] ، كان منهم الأمير سنان الدين موسى بن طرنطاى ونظام الدين أخو محى الدين الأتابك ، ضياء الدين محمد ابن الخطير والأمير سيف الدين جندر بك صاحب الابلستين وعدد آخر كبير ، وحرضوه على محاربة البرواناه وحلفائه المغول[٥]. فاستجاب لهم وفى ٢٥ رمضان ٦٧٥ هـ — ١٢٧٦ م خرج السلطان بجيوشه بصحبة الأمراء الروم ثم اتجه إلى الشام وقطع الدربند ووصل إلى الجبال المشرفة على صحراء هونى من بلد ابلستين[٦] حيث عسكر المغول بقيادة تتاوون والسلاجقة برآسة معين الدين وأخاه ولقد نظموا أنفسهم فى أحد عشر طلبا ، كل يزيد عن ألف فارس وعزلوا عسكر الروم وجعلوه طلبا منفرداً لئلا يكون

(١) بيبرس الدوادار : زبدة الفكرة ص ١١٨

(٢) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة حـ ٧ ص ١٥٨

(٣، ٤) المقريزى السلوك ص ٦٢١

(٥) رشيد الدين فضل الله الهمذانى : تاريخ جامع التواريخ جـ ٢ ص ٦١

(٦) رشيد الدين : جامع التواريخ — المقريزى السلوك جـ ١ قسم ٢ ص ١٣٦ بيبرس : زبدة الفكرة ص ١٠٦

عظام ا عليهم (١) . ووضح تفوق المماليك فسارع معين الدين البروانه بالفرار وأخذ السلطان غياث الدين معه ونخر الدين الوزير وكان بقيسارية وتوجه بهم إلى توقات ، كانت إقطاعا له .

وحاقت الهزيمة بالمغول ولم ينج منهم إلا القليل وكان من بين القتلى تاون مقدم التتار (٢) وأمر السلطان بقتل من أسر من التتار وإن كان قد عفى عن بعض أمرائهم ، وأبقى على من أسر من أمراء الروم وأعيانهم ومنهم أم البروانا ه ، وابنه مهذب الدين على وابن ابنته (٣). واتجه بيبرس بعد ذلك إلى قيسارية ، وأرسل البروانا ه يهنأه فدعاه السلطان للحضور (٤) ولكن البروانا ه طلب إمهاله خمسة عشر يوما وكان هدفه أن يصل إبغا الذي كان البروانا ه قد استحثه على القدوم بنفسه ليدرك الظاهر بيبرس وهو ببلاد الروم . ولما تأخر البروانا ه عن الحضور يأس السلطان من أمره ولقد راسل السلطان أولاد قرمان وحكام وامراء التركمان ودعاهم إليه وكان يلي دولة بن قرمان محمد بن قرمان (٥) ولقد ورد رده عند وصول السلطان إلى دربند فذكر المقريزى جمع التركمان وحضر فى عشرين ألف فارس وثلاثين ألف راجل متركشة للخدمة (٦) ، وترك السلطان قيسارية الثمن وأبلغ إبغا بما حدث لجيوشه فى أبلستين ، فتوجه هناك حيث رأى القتلى مكدسة أجسادهم ووجد أن جميعهم من المغول وعدد قتلى الروم قليل فغضب على البروانا ه إلى جانب أن أحد أمراء السلطان بيبرس وهو أيبك الشيخى

---

(١) المقريزى : السلوك جـ١ قسم ٢ ص٦٢٨

(٢) المقريزى : السلوك : جـ ١ قسم ٢ ص ٦٢٩

(٣) بيبرس : زبدة الفكرة جـ ٩ ص ١٤٠

(٤) المقريزى : السلوك جـ ١ ص ٦٣١

Enc. Islam Art karaman Oghlu

(٥) المقريزى : السلوك جـ ١ قسم ٢ ص ٦٣٣

(٦) رشيد الدين : جامع التواريخ ص ٦٣

قد فر من عسكر السلطان وتوجه إلى إبغا، لأن بيبرس قد ضربه على وجهه وأطلعه على أن البرواناة هو الباعث للملك الظاهر على الحضور إلى بلاد الروم بتكرار كتبه وتوارد رسله [1]، فتحقق ظن إبغا على خيانة البرواناة فأمر بنهب بلاد الروم وقتل المسلمين منها فتفرقت عساكره تنهب وتفتك وتقتل فقتلوا من المسلمين خلقا لا يحصون كثرة ولم يتعرضوا إلى نصارى البلاد وامتدت غاراتهم مسافة سبعة أيام، ويقال أن عدد القتلى بلغ خمسمائة ألف.

سار إبغا مع السلطان غياث الدين صاحب الروم ووكل بالبرواناه من يحفظه ولما وصل الأردو استشار أمرائه فى أمره فقوم أشاروا بقتله وقوم أشاروا بإبقائه على البلاد ليحفظ نظامها ويحضر خراجها ولكن أمر إبغا بقتله فقتل وعدد من أصحابه ٦٧٦ هـ . ١٢٧٥ م .

ولقد كان لمعركة إبلستين نتائج عظيمة الأهمية: أهمها أن دولة السلاجقة لم تعد مملكة مستقلة إنما أصبحت ولاية تابعة للمغول يتولاها أحد قادتها كنائب عن الخان فى الأردو، فأرسل إبغا الخواجة شمس الدين [2]. وانتقلت الإدارة الداخلية للبلاد إلى يد المغول، وسرح الجيش السلجوقى، وأصبح الجند الذين فقدوا وظائفهم مصدر قلاقل وشغب، وفرض المغول على الشعب كثيراً من الضرائب التى لم تكن موجودة من قبل كضريبة التمغة [3].

---

(١) بيبرس : زبدة الفكرة ص١٤٢ وذكر بيبرس : فى التحفة الملوكية ص ١٦٩ أن الأمير معين الدين سليمان قد كاتب السلطان وناوضه من الاتفاق وفاتحه فوقع المقدم أبطاى المذكور قاصد من قصاده ومعه كتاب الملك الظاهر.

(٢) بيبرس الدوادار : زبدة الفكرة ص ١٦٦ — رشيد الدين الهمذانى : جامع التواريخ ص ٦٣

(٣) رشيد الدين : جامع التواريخ جـ٢ ص ٦٥

(٤) رشيد الدين : جامع التواريخ ص ٦٥

وخلال السنوات القليلة التالية تضاءل حجمها وانقسمت إلى أمارات صغيرة بل لم يعد حكامهم لهم الحق فى حمل لقب سلطان ففى ٦٧١ هـ — ١٢٨٣ م عزل السلطان أحمد تكدار سلطان المغول غياث الدين كيخسرو وأرسله إلى أرزنجان . وولى مسعود بن السلطان عز الدين كيكاوس فاستقر بها ليس له منها إلا الاسم والحكم كله فيها للتتار وشحانيهم ، فلما جلس آرغون فى السلطنة دس إليه وهو فى ارزنكان من خنقه بوتر فات[1]، ويذكر المقريزى أن مسعود بن عز الدين لم يكن له أى حول ولا قوة تجاه المغول بل عانى من الفقر كما عانى شعبه «مسعود بن عز الدين كيكاوس ابن كيخسرو بن كيقباذ كيخسرو بن قلج أرسلان بن سليمان بن قطلومش ابن أرسلان بيغو بن سلجوق وهو آخر من سمى بالسلطان من السلجوقية ببلاد الروم، افتقر وانكشف حاله ومات قريب سنة ثمان عشر وسبعمائة»[2] ونلاحظ أن المراجع البيزنطية والإسلامية لم تعد تشير إلى سلاجقة الروم أو ممتلكاتهم فقد أصبحوا ولاية لا تختلف عن أى ولاية تركمانية فى المنطقة.

الإمارات التركمانية فى آسيا الصغرى :

ولكن هذا لا يعنى نهاية الوجود التركى فلقد بدأت عناصر تركية أخرى من الغز تنتشر فى المنطقة على نطاق واسع وتغزو قلب شبه الجزيرة ، ولقد ساعد على ذلك تغيير سياسة بيزنطة فى عهد ميخائيل باليولوجس تجاه آسيا الصغرى ، فانهيار السلاجقة دفع الأمبراطور إلى الانتقال باهتمامه من الحدود الشرقية إلى جبهة أخرى فاتجه إلى الغرب ، حيث تجدد الصراع فى البلقان وحتم عليه تركيز قواته فى الجانب الأوربى ،

---

(١) بيبرس الدوادار : زبدة الفكرة ج٢ ص ٢٧٥

(٢) المقريزى : السلوك ج ١ قسم ٢ ص ٢١٨

Runciman, The fall of constantinople p 30

وكانت موارد الامبراطور المالية والحربية غير كافية لحماية أراضيها فى آسيا فانهارت فى عهده فرق الحدود من الأكراتين التى أعاد إحياءها حنا فيتا تزيس ولم يعودوا يحصلون على أجر ، ووجدا أنفسهم بلا دعم من الدولة وخاصة فى منطقة الحدود المشتركة مع السلاجقة ، فانتقلوا إلى المناطق الشرقية ويشير أحد المعاصرين للأحداث إلى أن « الفرس » والأتراك اجتاحوا الأراضى ولا توجد قوة تصدهم فالنظام الإقطاعى الذى أقامه آل باليولوجس أسرع بإسقاط نظام الحدود الذى أقامه حنا فيتا تزيس .

كل هذه العوامل ساعدت قبائل الأتراك على التوغل فى أراضى بيزنطة وبدأت فترة جديدة فى تتريك المنطقة بظهور الإمارات التركية المستقلة على نطاق واسع نتيجة للضغط المغولى وبدأوا توسعهم على نطاق كبير من أذربيجان إلى قلب آسيا الصغرى وانتشروا على شاطىء البحر الأسود ووصلوا إلى كليكيا . وكانت الدولة السلجوقية الخاضعة المغول تسيطر على قلب الأناضول والسهول المجاورة ، ولكن القوات التركمانية كانت تتمركز بالقرب من الحدود فى الجبال ، وفى البداية اعترفوا بالولاء للسلاجقة ولكنهم دأبوا على الثورة والخروج عليهم بل ومساعدة الخارجين عليهم ، وكان يصحب تلك الجموع التركمانية عدد من الدراويش والشيوخ لجأوا إلى تلك المناطق بدافع دينى وهو قتال الكفار والجهاد فى سبيل الله ، ولقد كان هؤلاء الشيوخ قد هربوا من تركستان وأذربيجان وفارس تحت ضغط المغول وأمكنهم تحويل التركمان الشامانيين إلى الإسلام ، ولقد أضفى هذا على فتوح التركمان لبيزنطة طابعاً جديداً وهو طابع الجهاد الدينى واتخذ التركمان لقب غازى [١] .

وهذه الإمارات تعتبر تطويرا لإمارات الحدود التركية التى نشأت

(١) تخذوا لقب غازى تشبها بالغزاة فى نظام الثغور فى العصر الإسلامى الأول

مع قيام الدولة السلجوقية فى مواجهة الحدود البيزنطية، ولقد تركز أمراء الحدود فى عدد من المناطق أولها فى الجنوب فى مواجهة قليقيا حول العلايا وإنطاليا لصد غزوات الأرمن والقبارصة [١] . وفى الشمال على حدود إمارة طرابزون وعلى طول شاطىء البحر الأسود وهؤلاء ينقسمون قسمين قسم استقر فى الشرق حول سمرنا وسمسون وبافارا [٢] والآخر فى الغرب حول قسطمونى وسنوب . ولقد استقر أمراء الحدود الغربيين فى قرا حصار، دلنى ، وكوتهيا دانليزى على الحدود الغربية التى تمتد من قسطمونى إلى خليج Makri فى الجنوب ، وكانت الدولة السلجوقية تمثل فى كل منها بقائد أو أمير وكانوا يتوارثون الإمارة . وكان أمراء الحدود فى الغرب هم أكثرهم أهمية على الإطلاق وفى ٦٥٩ هـ — ١٢٦١ م تولى أمرهم نصرة الدين حسن وتاج الدين حسين أولاد الوزير السلجوقى فخر الدين على وسيطروا على المنطقة بين كوتهيا واسكى شهر [٣] وكانت عاصمتهم قلعة قراحصار ، وكان اعتماد إمارات الحدود تلك على قوات التركمان وعلى قادتها الذين حملوا لقب غزاة ولقد مارس الغزاة نوعاً من الاستقلال الذاتى على قواتهم ، ومع ضعف الدولة السلجوقية وازدياد الضغط المغولى هاجرت القبائل التركمانية واستقرت فى المنطقة بين هضبة وسط الأناضول والسهل الساحلى حيث يوجد المرعى صيفا ، ولقد اتخذت تلك الإمارات الدولة السلجوقية كنموذج لها . وكان للحضارة السلجوقية تأثير كبير على مدنهم كا كوتهيا وقراحصار واسكى شهر وقسطمونى وإن كانت المصادر السلجوقية فى فترة سيطرة المغول قد بدأت تصفهم

---

(١) Camb. Hist. of Islam Vol. Ip. 252

(٢) Enc. Isl Art karman.

(٣) Camb Hist of Islam Vol. Ip. 268

(٤) Ostrogorsky op cit,p.381

كثيرى شغب وقطاع طرق ولقد لعبت تلك الإمارات دورا هاما فى الأناضول وفى الصراع بين أمراء السلاجقة ، فلقد ناصروا عز الدين على قوة أمراء الحدود ولقد اضطر البرواناه والمغول آنذاك لمسالمة التركمان ويقال أن فرق من التركمان لحقت بعز الدين فى بيزنطة (١) . ولقد استغلت تلك الإمارات فرصة الاضطرابات والصراعات فى كلا الجانبين السلجوقى والبيزنطى للاستقلال والتوسع فى آسيا الصغرى وأقدم تلك الإمارات أسرة بنى قرمان Karaman Oyhuli قامت على أراضى أرمناك وقسطمونى فى جنوب آسيا الصغرى فى أواسط القرن السابع الهجرى ومؤسسها قرمان ابن نور صوفى المتوفى ٦٦٠ — ١٢٦٠ (٢) م وتولاها بعده ابنه محمد بك ويذكر القلقشندى أنه كان يتولاها معه الياس بك وصهره على بك وقريبه سونج (٣) . ولقد رفضوا الاعتراف بسلطان ركن الدين بعد فرار عز الدين ٦٦٠ هـ وراسلوا هولاكو حيث اعترفوا للمغول بالتبعية المباشرة ، ولكن بعد معركة ابلستين انضموا إلى جانب بيبرس ، وأحضروا عشرين ألفا من التركمان لمناصرته (٤) .

وفى نهاية ٦٧٥ هـ — ١٢٧٦ م استولوا على قونية وقرروا التركية كلغة رسمية بدلا من الفارسية ، ولكنهم هزموا على يد السلاجقة واضطروا للعودة إلى كرمان ، وإن كانوا استطاعوا استعادة قونية فى ٧٣٦ هـ — ١٣٣٥ م حيث أقاموا فيها دولة قوية (٥) .

---

(١) Hearsey City of Constantinp. 227

(٢) Baynes : Byzantium p47

(٣) Ostrogorsky op cit p. 438

Hussey : The Byzantine worldp.79 .

(٤) Camb. Hist of Islam Vol Ip. 296

(٥) القلقشندى : صبح الأعشى ج ٥ ص ٢٢٦ - ٢٢٩

Enc. of Islam Art karman,

وإمارة منتشا فى الجنوب الغربى من آسيا الصغرى وتاريخ إنشائها يقارب تاريخ قيام مملكة قرمان(١). فقد كان حاكمها منتشا بك يدين بالولاء لعز الدين كيكاوس الثانى وقد بدأ توسعه على حساب بيزنطة فترك الشاطىء الجنوبى واتجه إلى كاريا حيث اتخذها مركزا لعملياته ثم انضمت إليه قوات تركمانية وسيطر على كل إقليم كاريا وتقدم فى ١٢٧٨ إلى وادى Buyuk فى الميندر وأخضع مدن برين ، ملطية ومجدون(٢) وتقدم ١٢٨٢ إلى ترالس ونيش ولقد أكمل ساس بك ابنه سياسة الفتوح وإن كان أضعف من أبيهم قيام مملكة الاستبار فى رودس وإمارة كرميان فى المنطقة بين Denizli وكوتهيا وعاصمتها كوتهيا ويخضعون لأسرة Alishir وكانوا من مؤيدى سلطنة السلاجقة وأعانوا كيخسرو الثالث والوزير فخر الدين على ضد الثائرين عليهم ، ولكن نبذوا الولاء للسلاجقة بعد تولية المغول لمسعود الثانى وانضم إليهم الطبقات التى ضاقت بعبء الضرائب وانتهت الحرب سنة ١٢٨٩ م بانتصار يعقوب بك ابن الشير الذى بلغت المملكة تحت سلطانه أقصى اتساع ووجه قواته ضد بيزنطة وإمارة أيدين التى كونها محمد بك ابن ايدن الذى أرسله يعقوب لفتح وادى المنيدر فكون إمارة وكانت أكثر الإمارات الأسيوية اجتياحا للشاطىء الأوربى، ولقد اتحدت ضدها فى الشمال أمراء صاروخان ورئاستهم فى مريسيا أو مغنيسيا ثانى عاصمة لأمبراطورية نيقية وأمراء سهل تروى ، وعلى البحر الأسود إمارة غازى جاليبولى فى سنوب، والإمارة التى أنشأها Eshiefaghla ، وأخرى أنشأها القاضى برهان الدين وإمارة قراصيا وولاية جنداوغلى فى قسطمونى ، وإمارة دلغادر فى مرعش وابلستين ، ورمضان فى اذنة وقليقية.

---

(١) المقريزى : السلوك جـ٢ قسم ١ ص ٦٢٣
القرمانى : أخبار الدول وآثار الأول ص ٢٤٠

(٢) Camb Hist of Islam vol I p.265

ودويلة الشاة السوداء ، والشاة البيضاء فى شرق الأناضول (١) ثم الإمارة العثمانية فى بيثينيا واستطاعت قبيلة Tzane التركية عبور جبال البحر الأسود وإقامة إمارة هناك ، المنطقة الوحيدة التى لم يحتلها الترك كانت شرق البحر الأسود حيث طرابزون . ولقد دفعت تلك الأوضاع التى تعرضت لها آسيا الصغرى وأراضى بيزنطة الأسيوية خاصة الغرب بإرسال حملة صليبية ضدها ولكن قيام حرب المائة عام جعلتهم يتركون هذا المشروع جانبا .

التوسع التركى فى أراضى بيزنطة :

ساعدت ظروف بيزنطة الداخلية الإمارات التركمانية على التوسع على حساب أراضيها الأسيوية ، فلقد ترك ميخائيل باليولوجس لخلفه أندرونيكوس الثانى ١٢٨٢م-١٣٢٨م تركة مثقلة بالمشاكل فرغم نجاح سياسته الداخلية (٢) فإنه ترك لخلفه من المشاكل الخارجية والصراعات الكثيرة سواء فى البلقان أو مع الغرب وأصبحت بيزنطة دولة من الدرجة الثانية ، ومجرد رابطة فى العلاقات بين الأطراف فى المنطقة بل إن الرابطة بين العاصمة والولايات أصبحت واهية . وازدادت سلطة كبار الملاك فى نفس الوقت الذى زاد فيه العبء على الطبقات غير القادرة ، واعتمدت الدولة على الجند المأجورين وعلى أسطول جنوة ، وكلف هذا مالية الدولة أعباء لا تقدر على تحملها . فاضطر أندرونيكوس لتخفيض أعداد الجيش فأصبح الجيش فى نهاية القرن الثالث عشر لا يتجاوز عدده بضعة آلاف . وهذا يوضح فشل القوات البيزنطية فى صد القوات التركمانية وخاصة أمراء منتشا

(١) Ostrogorsky ; op.cit. p. 438

(٢) Runicman : op cit p 26

(٣) Ostrogorsky : op. cit p 433

(٤) Camb Hist. of Islam. vol 1 p266

وإيدن الذين اشتبكوا معها برا وبحرا ، ولم تستطع منعهم من احتلال غرب الأناضول ولقد حاول أندرونيكوس تدعيم موقف امبراطوريته المنهار عن طريق عقد معاهدات سلام ومصاهرات مع الغرب[١] ، ومع حاكم الصرب ولكن جيوش الصرب في عهد داسان استمرت في تغلغلها في أراضي الأمبراطورية ، ثم تدخلها في الصراع بين البندقية التي تسيطر على الجزء الجنوبي من البحر الإيجيني وجنوة التي يمتد نفوذها على الجزء الشمالي من الأرخبيل وعلى بحر مرمرة وبونتس وقد تورطت الأمبراطورية في الاشتراك في هذا الصراع ١٢٩٤ م وانتهت الحرب بينهما بالحصول على مزايا اقتصادية على حساب الأمبراطورية بل استولى أحد القادة الجنويين على خيوس ١٣٠٤ م

فالأمبراطورية كانت تسير في طريق الانهيار داخلياً بأزماتها الاقتصادية ونظامها الحربي المتداعي ، وخارجياً بسبب تكتل الأعداء ضدها في نفس الوقت الذي ظهر فيه خطر الترك في آسيا الصغرى ، وهذا يوضح سرعة وسهولة توغل الأتراك في قلب الأمبراطورية وفي سنة ١٣٠٠ م أصبح كل آسيا الصغرى في يد الترك ولم ينجوا من المد التركي إلا عدد قليل من المدن والقلاع كنيقية ، نيقوميديا ، بروسا ، سارديس ، فلادلفيا ، مغنيسيا ، وبعض الموانى كهرقليا . بونتس ، فوكيا ، سمرنا وقسم القادة الأتراك المدن بينهم وتحول غرب آسيا إلى ولايات تركية سقطت فيما بعد

---

(١) رغم نجاح سياسة ميخائيل الداخلية واستعاده القسطنطينية فان سياسته الخارجية لم تلاق نفس النجاح لمواجهته العديد من المشاكل في البلقان بسبب البلغار ، وسيطر الايطاليون على الطرق البحرية ، ومجهودات جبارة استطاع استعادة جزء من البلوبنيز ولكن الجزء الأكبر ظل في يد الفرنج وتساليا وابروس واكريتيون خاصة ليت انجليوس
Ostrogorsky op' Cit' p. 4?9.

سعى اندرونيكوس لعقد مصاهرات ليضمن حلفاء لجانبه فتزوج ابنة مونتفرات ليضم سالونيكا ، وحاول أن يزوج ابنه ميخائيل التاسع حفيدة بلدوين الثاني ولكن قوة الإفرنج في المنطقة ضعفت بسبب الصراع بين ابيروس وتساليا .

بسهولة فى يد عثمان مؤسس الدولة العثمانية، وبذلك نرى أن بيزنطة ما كادت تتخلص من خطر الأتراك السلاجقة الذين اغتصبوا أراضيها فى بداية القرن الحادى عشر حتى ظهر فى أوائل القرن الرابع عشر خطر أشد وطأة هو العثمانيون ، وإذا كان السلاجقة فى عنفوان قوتهم لم يستطيعوا الوصول إلى القسطنطينية فإن الأتراك الجدد كانوا على عكس ذلك . فقد استطاع العثمانيون أن يضموا صفوفهم ويقيموا دولة موحدة توسعت على حساب بيزنطة لا فى آسيا الصغرى فحسب، بل فى أوربا ، وأخيراً أسقطت القسطنطينية العاصمة التى استمرت لإحدى عشر قرنا مركزاً قويا يحمى العالم المسيحى والغرب الأوربى .

---

(1) Ostrogorsky : op. cit. p 439 .
Baynes : Byzantium 78 .
Hearsey. op. cit 70

الفصل السابع

العثمانيون

أصل العثمانيين :

من بين الإمارات التركية التى انتشرت على حدود بيزنطة واتخذ أمرائها لقب الغزات كانت إمارة صغيرة أقيمت فى النصف الثانى من القرن الثالث عشر على مناطق الحدود الممتدة فى الاتجاه الشرقى من بيثنيا إلى أوليمبوس(١). ومؤسسها أرطغرل مات فى سنة ١٢٨١م وخلفه ابنه عثمان مؤسس الأسرة العثمانية ولقد وردت قصص عديدة عن أصل العثمانيين ونشرت حوليات مختلفة عن أصل السلالة العثمانية بعضها ارخ فى العهد العثمانى بل بعض من تملقوا العثمانيين فى القرن الثامن عشر ذكروا أنهم من سلالة النبي ، وأشارت بعض الحوليات إلى قائمة ذكر فيها احدى وعشرين إسما من سلالة عثمان ونسبوه إلى الخان بطل الأتراك Oqhuz وإلى إبنه جوك ألب وحفيده شمندور . وذكر فى حوليات أخرى أنه كان أحد أربعة وعشرين ابنا كانوا لاوغز ، والسلطان محمد الفاتح حاول التوحيد بين شطرى شعبه التركى والاغريقى بادعائه أن أسرته من سلالة آل كومنين الذين ارتحلوا إلى قونية واعتنقوا الإسلام وتزوجوا من أميرات تركيات من السلاجقة ولا يوجد دليل قاطع على صحة أى من تلك النظريات ولكن

---

(١) Hearsey : op. cit p. 220
Ostroyorsky : op. cit p. 448
Gaston Gillard : op Cit 10
Norman Itzkowitz : The Ottoman Empire p276

المؤرخين أثبتوا أن أرطغرل هذا لم يكن رئيس قبيلة وإنما قائد فرقة من الغزاة وينتمى لعشيرة صغرى من قبيلة kayi (١) ، واستطاع بمعاونة التركمان أن يشق طريقه إلى حدود بيزنطة وأقام إمارة هناك ، ولما كانت إمارات الحدود لا تكتفى بحدودها وإنما تعتمد على التوسع ، ورأى عثمان أن قدراته لا تتناسب مع صغر إمارته فقرر أن يتوسع على حساب جيرانه ولدينا تفصيلات قليلة عن الفترة الأولى من تاريخ عثمان ولكن هناك نص فى مسجد بروسا فى عهد أورخان ابن عثمان يذكر أنه « ابن السلطان سلطان الغزاة غازى الغزاة بطل العالم (٢) » وهذا دليل على أن عثمان بسط سلطانه على غالبية الغزاة آنذاك ، وكان عثمان يشترط على من يدخل فى خدمته أن يكون غازيا .

التوسع العثمانى فى أراضى بيزنطة الأسيوية :

امتدت الأراضى التى يسيطر عليها عثمان من اسكى شهر إلى السهول المجاورة لنيقية وبروسا وأصبحت إمارته أقوى الإمارات فى المنطقة وشعرت بيزنطة بتهديد تلك القوة النامية فقرر الأمبراطور تركيز اهتمامه وقوته فى الجانب البحرى لمنع توسع العثمانيين فى أراضيه الأوربية . فى حين أن عثمان كان يخشى أن يتوقف المد العثمانى بسبب إغلاق البيزنطيين لطريق البحر ، وخاصة لتفوق بيزنطة البحرى ، فمعنى هذا انحصاره فى منطقة محدودة ، وربما يؤدى هذا بدوره إلى ترك أتباعه له للبحث عن أراضى جديدة (٣) .

(١) Camb. Hist. of Islam Vol Ip 268

(٢) Hussey, The Byrantine World p 79
ostrogorsky : op. cit. p. 43?

(٣) Runicman op cit. p.23
Hussey : Byzantine World, p. 80
Itzkowitz. op cit. 226

وبدأ عثمان بالتوسع فيما جاوره من أراضى بيزنطة فهاجم نيقية وأرسل الأمبراطور جيشا بقيادة Muzalon لتحرير المدينة ولكن عثمان هزم الجيش البيزنطى فى بافيوم وقام مواطنى تلك المدن من المسيحيين بتركها واللجوء لنيقوميديا . وفى سنة ١٣٠١ م استقروا فى شمال جبال الأولمبس. ولقد أثار هذا اهتمام بيزنطة وجزعها ، فبيزنطة تخشى احتلال آخر ممتلكاتها فى الشاطىء الأسيوى والتى على مرأى من العاصمة نفسها ، فبفقد تلك الأقاليم تعتبر بيزنطية قد فقدت آسيا الصغرى إلى الأبد .

ولقد حاول أندرونيكوس الثانى محاولات يائسة لإنقاذ ما يمكن إنقاذه فحاول التحالف مع غازان خان وبعد وفاة الأخير ، تحالف مع الكختوخان ولكن لم تجدى تلك السياسة[١]. بل اشترك فى الهجوم على بيزنطة أمراء كرميان ومنتشا وايدن . واضطر الأمبراطور لطلب المساعدة من اللان فى مقابل وعد باستقرارهم داخل الأمبراطورية[٢] ، فجاءوا فى حوالى عشرة آلاف نفس بأولادهم ونسائهم ، وتحت قيادة ابنه ميخائيل التاسع تقدمت جيوش آللان فى آسيا الصغرى ولكنها لقيت هزيمة كبرى على يد العثمانيين ٧٠١ هـ — ١٣٠١ م . وفى تلك الأثناء عرض روجر وتلور قائد الكتلان خدماته وخدمات رجاله ضد الترك[٣] ، وقبل الأمبراطور العرض بكل ارتياح ووصل القسطنطينيه ١٣٠٣م حيث استقبله الأمبراطور بالترحاب وكان يصحبه ٦٥٠٠ من رجاله ووعد بمنحهم مرتب أربع شهور وكذلك منحه لقب قيصر .

(1) Camb Hist of Islam Vol I p. 168

(٢) نفس السياسة التى انتهجها الأمبراطور ثيودسيوس الأول .

(3) Setton ; Catalan Domination p 125
Ostrogorsky op cit p 348

ومع بداية عام ١٣٠٤ عبر الكتلان إلى كوزيكوس وتقدموا إلى فلادلفيا التى يحاصرها الترك واستطاعوا هزيمة الأتراك، ولقد أثبت انتصاره هذا أمرا هاما أن بيزنطة لو تيسر لها القوات الكافية والإمكانيات المتاحة لأمكن لها أن تقضى على قوة الأتراك الناشئة ولكن بيزنطة آنذاك لم يكن لديها لا القوات ولا المال ، وترك الكتلان حرب الترك وهاجموا مغنيسيا البيزنطية ، ولقد ارتاح الأهالى البيزنطيين برحيلهم بعيداً وقد شغلوا الأمبراطورية بعشر سنوات من الحروب وخلال تلك السنوات بدأ العثمانيون يعبرون الدردنيل واستطاعوا بسط سلطانهم على مناطق جديدة بل عاون عثمان أمراء Aydin الأتراك فى الاستيلاء على أفسوس واستولى هو على الممتلكات البيزنطية فى المنطقة من Zangarus إلى Iteb-lu وقد تبع مغادرة الكتلان للمنطقة حروب أهلية داخلية فى بيزنطية وكانت سياسة العثمانيون قائمة على عدم الاستيلاء على المدن الحصينة إلا فى حالات نادرة لعدم توافر أدوات حصار كافية ولكن كان يسترقون أهل المناطق المجاورة ويقطعوا عن المدينة إمدادها .

وسعى عثمان لاتخاذ عاصمة تكون ذات موقع حصين تتوسط فتوحه فحاصر مدينة بروسا وهى مدينة بطبيعتها حصينة فى الانحدار الشمالى لجبال الأوليمبوس ويستطيع عن طريقها مهاجمة شاطىء بحر المرمرة ولقد استطاعت المدينة المقاومة لمدة عشر سنوات [1] . ولما لم يرسل الأمبراطور أى قوات لإنقاذها سقطت سنة ١٣٢٦ م وعثمان على فراش الموت .

---

(١) استولى محمد بك على برجى وسمرنا أيضا وأصبح أقوى أمراء فى غرب الأناضول وأخذ صاروخان بك مغنيسيا فى ١٣١٣ وقراصيا بك Balikesir

Runicman. oP. cit p32 —Camb. Hist of Islam vol. Ip 259

Laiou: The Provisiong of Constantinople p 111

التوسع العثماني في الجانب الأوربي من بيزنطة :

توفى السلطان وترك عدداً من الأبناء أكبرهم أورخان وكان وفقاً للتقاليد التركية يشاركه في العرش أخاه علاء الدين ولكن علاء الدين تنازل عن حقه لأخيه أورخان الذي يعتبر عهده من الفترات الهامة في تاريخ إمارة آل عثمان.

وفي عهده استقرت الإمارة العثمانية في آسيا الصغرى وامتدت سلطات السلطان فشملت غالبية إمارات الغزاة. وبعد ضمه قراصيا أصبحت حدوده تمتد من Edremid إلى كوزيكوس ووجد العثمانيون أنفسهم في مواجهة الشاطىء الأوربي.

في نفس الوقت الذي قام أندرونيكوس الثالث بعزل جده ١٣٢٨ (١) وتولى عرش القسطنطينية ودخلت العلاقات البيزنطية التركية طورا جديدا فلقد اتجه العثمانيون للجانب الأوربي خاصة في عهد الإمبراطور كنتاكوزينوس Cantacozenus . في البداية حاصر اورخان نيقية سنة ١٣٢٩ وحاول أندرونيكوس الثالث وحناوزيره بذل آخر محاولة لصدهم فأعدا قوة تعدادها ألفي رجل لرفع حصار المدينة ، ولكن باءت جهودهم بالفشل وسقطت المدينة في أيدى العثمانيون بعد معركة Pnilarere ودخل أورخان المدينة في مارس سنة ١٣٣١ . وفي السنوات التالية سقطت نيقوميديا . وفي سنة ١٣٣٧ لم يبق في آسيا الصغرى إلا بضع مدن متناثرة هنا أو هناك فلادلفيا وهرافليا على شاطىء البحر الأسود واصبح من السهل عليه أن يحتل كل المناطق المؤدية للبسفور، ويبسط سيطرته على شاطىء بيثنيا وزاد

---

(1) Camb, Hist of Islan. Vol. I p. 269

Itzkowitz : op. cit p. 276

سلطانه على حساب القبائل التركية المجاورة ثم اتجه فى هجومه إلى الشاطىء الأوروبى . (١) .

بينما كان العثمانيون يهاجمون الجزء الشمالى من البحر الإيجيى، كان أمراء السلاجقة فى الإمارات الساحلية فى آسيا الصغرى يهاجمون الجزء الجنوبى وكان هجومهم مركز على اللاتين حكام تلك الامارات ، ولم يكن له تأثير كبير على بيزنطة التى تحتل أملاكها مناطق صغيرة فى شواطىء تراقيا وآسيا الصغرى وفى هذه الظروف لم يكن غريبا أن يتفاهم السلاجقة والبيزنطيين فالسلاجقة كانوا أعداء للعثمانيين واللاتين على حد سواء كالبيزنطيين ، وكان أندرونيكوس ووزيره كانتاكوزينوس قد حاولا إعادة بسط نفوذ بيزنطة فى البحر وبناء أسطول جديد. وفى سنة ١٣٤٩ خرجت البحرية الامبراطورية لمهاجمة الأمارة التى تملكها أسرة زكريا الجنوية التى اعترفت فى البداية بسيطرة البيزنطيين ثم عادت ونقضت إعترافها ولكن أغلب الجزر عادت مرة ثانية إلى الامبراطورية وظلت فى حوزتها إلى سنة ١٣٤٦ . وبمساعدة السلاجقة أخضعت الامارة الجنوية فى فوكيا التى مالبثت أن اعترفت بسيادة بيزنطة كذلك أنقذت بيزنطة لسبوس من الخضوع للقوى الغربية .

وفى ١٥ يونيو سنة ١٣٤١ توفى أندرونيكوس الثالث (٢) ، وكان ابنه حنا التاسع لايتجاوز التاسعة من عمره وكان وزيره حنا كنتاكوزينوس هو الحاكم الحقيقى خلال عهد والده وكان من الطبيعى أن يسعى لتولى العرش البيزنطى ولكنه وجه بمعارضة قوية تزعمتها الإمبراطورة أنا سفوى والبطريرك حنا كاليكس ولكن المعارضة الفعلية جاءت من صديقه السابق

Runicman : op. cit p 37 (1)
Hussey op. cit p 80
Ostrogorsky op cit. p 463 (2)

الكسيوس الكوكوس وأعلن حنا كنتا كوزينوس نفسه امبراطورا مشاركا فى ٢٦ اكتوبر ١٣٤١ م.

واعتمد حنا كنتا كوزينوس فى ذلك على المساعدة العثمانية ولم يتردد فى إعطاء ابنة زوجته ثيودورا إلى السلطان وأرسل السلطان فى مقابل ذلك ستة آلاف مقاتل ليحاربوا فى تراقيا واقد لامه كثير من معاصريه لدعوته عمر واورخان وفتح الباب أمام العثمانيين فى أوربا ولقد ساعدت الحروب الأهلية العثمانيين على شق طريقهم فى أوربا حيث تنافس البيزنطيون على كسب ودهم ، ففى نفس الوقت كان أفراد البيت الحاكم فى القسطنطينية قد بذلوا مساعى للحصول على مساعدات الأتراك ولكن مساعيهم لم تحقق نجاحا . (١)

واقد توج كنتا كوزينوس فى ٢١ مايو ١٣٤٦ إمبراطورا فى إدريانوبل وأصبحت الإمبراطورة آنا محدودة السلطات. ولقد نجحت الإمبراطورة أخيرا فى عقد تحالف فى ١٣٤٦م مع الأتراك السلاجقة وقدم ٦٠٠ سلجوقى من إمارة صاروخان لمساعدتها وبدلا من مهاجمة كنتا كوزينوس هاجموا بلغاريا بل فى طريق عودتهم نهبوا المنطقة حول القسطنطينية .

وفى عام ١٣٤٧ م فتحت أبواب القسطنطينية لكنتا كوزينوس وتوجه البطريرك وعاد الوفاق بين حنا كنتا كوزينوس والأتراك مرة ثانية واتحدا ضد الصرب (٢) ولكن الأتراك كانوا سلاحا ذو حدين فبدأت تستقر أعداداً كبيرة منهم فى تراقيا . وعند وفاة أورخان ١٣٦٢ م أصبح الأتراك سادة غرب تراقيا وأدى هذا إلى ازدياد العداء والكراهية فى القسطنطينية ضد كنتا كوزينوس وتجمع الناس حول الإمبراطور الشرعى

---

(1) Ostrogorsky op. cit. 472

(٢) Runicman op. cit, p. 80

حنا الخامس بن ميخائيل وكان كنتا كوزينوس قد منح إبنه مقاطعة أدريانوبل في[1] سنة ١٣٥٢م ولكن استولى عليها حنا الخامس بواسطة دعم البندقية المالى وأستسلمت القسطنطينية للإمبراطور الشرعى وسارع كنتا كوزينوس لطلب مساعدة الترك وتعرضت المدن البيزنطية لإجتياح الفرق التركية واستعان حنا باليولوجس بالصرب والبلغار ولكن أورخان أرسل عشرة آلاف جندى لمساعدة حليفه تحت قيادة إبنه سليمان وانتصر كنتا كوزينوس بفضل مساعدة الترك وتراجع الجيش البلغارى حين علم بتقدم العثمانيين وهزم حنا الخامس وجنوده وأعلن كنتا كوزينوس نفسه إمبراطورا سنة ١٣٥٣م ولكن وضعه الفعلى كان أعلى من Despot وأقل من إمبراطور.

أما النتيجة الفعلية للصراع فهى استقرار الترك فى أوربا ابتداء من سنة ١٣٥٢ واستولوا على قلاع Tzympe قرب جاليبولى فى مارس ١٣٥٤ وبعد ذلك احتل سليمان بن أورخان جاليبولى نفسها ولم يكن هناك جدوى من استعطاف كنتا كوزينوس للسلطان أومناشدته باسم الصداقة أن يجلوا عن الأراضى التى إستولى عليها ولم يكن فى استطاعته أيضا دفع مقابل للجلاء عن تلك المدن لحالة بيزنطة آنذاك[2] ولم يكن هناك أمل فى تخلى العثمانيين عن الأراضى التى ستفتح أمامهم طريق تراقيا، وبدأ الشعب فى القسطنطينية يشعر بخطر الترك الفعلى وحملوا كنتا كوزينوس مسئولية كل ما حل بهم وبدأ مركز كنتا كوزينوس يصبح غير مستقر، وأخذ حنا

---

(١) Camb. Hist. of Islam Vol Ip274

(٢) Ostrogorsky : op. Cit. p 477

C mb. Hist. of Islam V.l. I p. 2-4

تذكر أنهم استولوا على Hexamilion

Hussey o. cit. p. 80

الخامس يتقرب من أعدائه السابقين وهم الجنوية فطلب معاونة أحد القراصنة الجنويين ويسمى فرانشيسكو ماتيوز وهو صاحب سفينتين ، ووعد حنا الخامس بمساعدته لاستعادة عرشه مقابل زواجه من اخته ماريا ومنحه جزيرة لسبوس كمهر . وبالفعل فى نوفمبر ١٣٥٤ م اتخذ طريقه إلى القسطنطينية وانتصر على حنا كنتاكوزينوس وأجبره على دخول الدير باسم الراهب يوسف وظل به ثلاثين عاما حيث تفرغ لكتابة التاريخ[١]

وتلى ذلك هزيمة ابنه ماتيوز على يد الصرب وقبض عليه وسلم لحنا الخامس واعتلى حنا العرش منفردا[٢] عام ١٣٥٧ ولكن ظلت المورة فى يد ابن كنتاكوزينوس مانويل .

العلاقة بين بيزنطة والبابوية :

سارت أحوال بيزنطة من سيء إلى أسوأ حتى أن بيلو السفير البندقى فى القسطنطينية ذكر أنه أخبر الدوق داندلو ... دوق البندقية فى ٦ أغسطس سنة ١٤٤٤ م ، أن بيزنطة يهددها الأتراك وأن جنوده مستعدة للخضوع لأى قوة سواء كانت قوة البندقية أو حكام الصرب أو ملك هنغاريا[٣]. وفى ابريل سنة ١٣٥٥ نصح السفير مارينو فاليرو الجمهورية بمساعدة الإمبراطورية فإن الوضع اليائس الذى أصبحت فيه الإمبراطورية يجعل من السهل سقوطها فى يد الأتراك وأصبح السؤال الذى يثار الآن هل ستسقط الإمبراطورية على يد الأتراك : أم القوى المسيحية، وبعد وفاة دسان حاكم الصرب القوى لم تعد هناك أى قوة فى البلقان يمكن أن تتصدى للترك وكان الأتراك قد استقروا نهائيا فى تراقيا .

(١) Greasy « Edwards » Hist. of the Ottoman p. 40

(٢) Runicman ; op. cit, p80

(٣) Runicman : op. cit p. 80

Jorga: Latins et Grecs p 22

وكمحاولة لحماية بيزنطة من الخطر الذى يتهددها لجأ الإمبراطور إلى الوسيلة المعتادة وهى فتح باب المفاوضات الخاصة بالاتحاد مع كنيسة روما وهى الورقة التى لعب بها آل باليولوجس بمهارة ولكن كان هناك اختلاف بين الموقف فى الماضى والموقف الآن فأثناء حكم ميخائيل الثامن كانت الإمبراطورية مهددة بقوى غربية وكان البابا يستطيع أن يمارس عليها ضغطا قويا أما حنا فكان يواجه أعداء لا يمكن الضغط عليهم إلا بقوة السلاح . فبعد فشل محادثات ليون التى تمت مع روما أهملت فكرة الاتحاد لمدة أربعين عاما ، ولقد سبق أن اتجه أندرونيكوس الثانى أثناء الحرب الأهلية إلى نفس الخطوة وتكررت المحاولة فى عهد الإمبراطورة آنا وفى الساعات الحرجة التى أحاطت بحكم كنتاكوزينوس ولكن بدون أى نتيجه محسوسة ومع ذلك سعى حنا الخامس للعمل على تحقيق هذا الاتحاد بإيحاء من أمه الكاثوليكية وفى ١٥ ديسمبر ١٣٥٥م أى فى السنة التالية لتوليه العرش أرسل خطابا إلى أفنيون يوضح فيه نواياه الطيبة تجاه البابوية وطلب من البابا خمس سفن كبرى و ١٥ سفينة نقل وألف من المشاة وخمسمائة من الفرسان وتعهد فى مقابل ذلك أن يجعل شعبه يهتدى إلى العقيدة الكاثوليكية فى مدى لا يزيد عن ستة شهور وتعهد بتقديم الضمانات اللازمة للبابوية التى تثبت استعداده لتنفيذ القـــرار وتعهد بإرسال ثانى أبنائه مانويل وكان لا يتجاوز الخامسة أو السادسة ليتعلم فى البلاط البابوى [١] بل زيادة على ذلك تعهد بأنه إذا لم يستطع تنفيذ وعده أن يتنازل عن العرش لابنه مانويل تلميذ البابا [٢] فإن كان ما يزال صغيراً فإن العرش يؤول للبابا بوصفه أبيه بالتبنى ، ومع ذلك فإن انسونت

Ostrogorsky : op. cit. p.473 (١)

Runciman op cit p. 80 (٢)

السادس لم يأخذ هذه العروض مأخذ الجد . وعلى أى حال فإن إجابة البابا على حنا الخامس لم تحتوى على أى إشارة لعرضه بخصوص إبنه مانويل بل تجاهل ذلك ولكن أرسل رداً ودياً يشيد بمشاعر الإمبراطور مع رسله واضطر الامبراطور لإخبار البابا بأنه لن يستطيع إجبار شعبه على قبول الاتحاد مالم يكن الرسل مصحوبين بقوات حربية وبحرية ، وإذا لم تكن هناك معاهدة فورية فإن شعبه لن يستجيب لتوجيهاته .

ولقد لقى هـذا العرض معارضة شديدة فى القسطنطينية (١) وظهر حزب قوى معارض للاتحاد وكان برأسه البطريرك كالستوس فقد كانت البطريركة أكثر حرصاً على حقوقها من الإمبراطور ، وإذا كانت الامبراطورية بدأت تفقد معقلا بعد الآخر فإن الكنيسة البيزنطية استعادت نفوذها السابق وخاصة فى روسيا وبين شعوب البلقان وإن كان هناك حزب يؤيد الاتحاد ويمثله رجل البيان ديمتريوس (٢) .

---

(١) Runieman, op cit, p 80

(٢) Ostrogorsky, op cit, p 473

Baynes op. cit, p, 44

الفصل الثامن

استقرار العثمانيين فى البلقان

فى هذه الفترة دخل العثمانيون مرحلة جديدة فى تاريخهم فقد انتهت مرحلة الغزو الأولى باستقرارهم فى أراضى بيزنطة الآسيوية وسيطرتهم على إمارات الغزاة وبدأت مرحلة جديدة متمثلة فى غزوهم للجانب الأوربى من أراضى بيزنطة وتوغلهم ثم استقرارهم فى البلقان وإخضاعهم لإمارات الصرب والبلغار ثم تهديدهم الوجود والكيان البيزنطى متمثلا فى عاصمته القسطنطينيه والفضل فى هذا يرجع لاثنين من سلاطين العثمانيين وهما مراد الثانى وبايزيد الأول .

ولقد اتجهت أنظار العثمانيين منذ عهد أورخان إلى العاصمة القسطنطينية فظهرت القوات التركية على حدود القسطنطينية فى عام ١٣٥٩ م ، ومع ذلك فإن الإمبراطورية المرهقة كانت مستعدة للمقاومة ولم يكن هناك آنذاك خطر مباشر يتهددها فأسوار القسطنطينية ما زالت حصينة (١) .

ولكن تراقيا التى عانت من الحروب سقطت مدينة بعد الأخرى وفى عام ١٣٦٧ م سقطت ديموتيكس ، وفى العام التالى أدريانوبل .

وانتصارات السلطان أورخان فى الشاطىء الآسيوى والأوربى شجعت غيره من الأتراك على الانضمام إلى الغزاة والاستقرار فى الأقاليم المفتوحة وعند وفاة أورخان أصبح الأتراك سادة غرب تراقيا (٢) وسعى العثمانيون لتثبيت نفوذهم على بقية العناصر التركية لضمان وحدة قواتهم وعدم الدخول فى صرعات جانبية فأخضع السلطان إمارتى صاروخان

Ostrogorsky : op, cit' p. 473 (١)

Baynes ; op cit p, 44

Baynes op, cit, p 47 (٢)

وقراصيا فى الشمال الغربى فى نفس الوقت الذى ضعفت فيه قوة كرميان واستطاع السلطان تثبيت حكمه فى أقشهر وأنقرة وكان العدو الوحيد الباقى له إمارة Aydene التى أغلقت أمامه باب التوسع فى الجنوب الغربى أما عن الأوضاع الداخلية للسلطنة وموقفه تجاه البلاد المفتوحة فإن أورخان كان قائداً عظيما وإداريا ممتازاً وساعده فى ذلك وزيره علاء الدين فاهتم بنشر تعاليم الاسلام فاذا أخذت مدينة بالفتح لم يكن للمسيحيين أى حق تجاه السلطنة ، وخمس السكان كانوا يستعبدون فيرسل الرجال للعمل فى الأراضى المفتوحة والأولاد يعدون ليدخلوا فى الجيش(١) . أما إذا استسلموا يسمح لهم بالاحتفاظ بكنائسهم وشعائرهم وكانت الضرائب التى تفرض عليهم أقل ، والبعض اعتنق الاسلام لينضم للطبقة الحاكمة ، وقد كان من عادة العلماء إقامة مدرسة وجامع فى كل مدينة مفتوحة . وفى سنة ٦٧٢ هـ — ١٣٦٢ م توفى أورخان .

مراد الثانى والصراع الداخلى فى القسطنطينية :

خلف مراد أورخان وكان أخاه الأكبر سليمان قد مات قبل وفاة أورخان بشهور وأم مراد إغريقية ابنة أحد الأكراتيين ، أما أخاه غير الشقيق إبراهيم فقد تخلص منه مراد بالقتل وهلال بن ثيودورا مات ميتة طبيعية وبذلك آمن ألا ينازعه فى العرش منافس . ولقد كان مراد قائداً ممتازاً وسياسياً ماهراً فاهتم بأمر البلقان ولم يوجه نشاطه للاغريق فقط بل ضد اسلاف فى الجنوب أيضاً فقد كانت الأحوال فى البلقان مضطربة بسبب المشاكل الاقتصادية (٢) والصراع الداخلى فاستولى لالاشاهين على

---

(١) Ostrogorsky . op cit. p. 4 73

(٢) Hearsey op. cit p. 223

فليبوبوليس ووطد مركزه هناك وأصبح بيلر اى (حاكم) وجعل السلطان مقره فى Didymotichus وفى ١٣٦٥م ثم انتقل إلى إدريانوبل[١]، أما السلطان فشغل أول عهده بالشاطىء الآسيوى وبالقضاء على بعض الأمراء الذين أثاروا له المتاعب[٢] وقد استغل البيزنطيون هذه الفرصة لاستعادة بعض ممتلكاتهم فى تراقيا لكن حين عاد السلطان إلى المنطقة سنة ١٣٦٥م لم يجد صعوبة فى استعادتها وأصبحت القسطنطينية وما جاورها معزولة فيما عدا المنطقة المجاورة للبحر ، كذلك جميع ضواحيها الآسيوية أصبحت فى أيدى الترك ، ولقد شعرت البندقية وجنوه بالخطر ولكنها لم تتخذ أى خطوة فعلية غير إبداء الرغبة فى التحالف الذى لم يتحقق ، وسعت بلغاريا لإنقاذ نفسها عن طريق التسليم للفاتحين وشعرت بيزنطة أنها تقف فى الميدان منفردة لعدم نجاح التحالف مع روما ونظرت حولها سعيا لحليف فلم تجد غير الصرب فذهب البطريرك كالستيوس وقابل أرملة دشان للتفاوض ، وفى نفس الوقت سعى للتحالف مع جنوه والبندقية ولم تجد المحادثات مع مدن إيطاليا البحرية. وفى خريف ١٣٦٥ تم إعداد حملة صليبية أعدها ملك قبرص ولكن كانت وجهتها مصر .

وفى ربيع ١٣٦٦ سافر الإمبراطور إلى المجر ليطلب المساعدة ، ولكن لم تجد توسلاته بل أغار المجريون على بعض ممتلكاته ، وأثناء عودته منعه البلغار من العودة إلى القسطنطينية رغم أن ابنه أندرونيكوس كان متزوجاً أميرة بلغارية فإنه لم يفعل الإبن شيئا لإنقاذ أبيه، ولكن تدخل كونت سافوى

---

(١) Runicman : op. cit . p . 89

(٢) Baynes : oP. cit p 47

Hussey : op, cit, p, 81

Greasy . op. cit pg4

قريب الإمبراطور (١) وظهر على رأس جيش صليبي فى المياه البيزنطية واستطاع استعادة جاليبولى من الترك ثم أجبر البلغار عن الإفراج عن الإمبراطور وإعادة سيمبريا وسوتربوس وبذلك عاد لبيزنطة وجودها فى الشاطىء الشرقى فى البحر الأسود .

وكان حاكم سافوى يرى أن حملته جزء من مخطط صليبي يهدف للاتحاد مع كنيسة روما والقيام بعمل مشترك ونصح حنا الخامس بالتوجه لروما للتحالف مـــع البابوية ولكن قوبل هـذا الإجراء بمعارضة كبيره فى القسطنطينية . ورغم ذلك فقد سافر الإمبراطور ١٣٦٩م ووصل إلى روما عن طريق نابولى وكان يصحبه عدد من الأشراف ولم يكن معه أى ممثل دينى فقد عقد رجال الدين فى القسطنطينية مجمع دينى أعلنوا فيه الاختلاف بين الكنيستين ورفضوا أن يصحبوه أو يشتركوا معه فى المفاوضات بل أرسل البطريرك بيلوسيوس الذى تولى بعد كالستيوس دعاه لنشر المذهب الأرثوذكسى خارج نطاق بيزنطه فى سوريا ومصر ، وفى الجنوب بين السلاف فى آسيا (٢) والمحادثات التى أجراها الإمبراطور ١٣٦٩ اعتبرته كاجراء شخصى ولم تأتى بنتيجة تذكر (٣).

ولم يحدث اتحاد فعلى بين الكنيستين ولم يتلق الإمبراطور أى مساعدة من الصرب ولكن أثناء عودة الإمبراطور حدث له أمر يوضح مدى ما آل إليه أمر بيزنطة من انحدار ، فقد اتخذ حنا الخامس طريق البحر وكان على الإمبراطور دين لقومون البندقية فقبضوا على الإمبراطور بوصفه دائنة

---

(1) Baynes : op. cit p. 47

Camb - Hist, of Islam. Vol. I. p. 275

(2) Hearsey : op cit, p. 224.

(3) Ostrogorskg , op, cit, p. 479

مفلسا وللمرة الثانية فإن ابنه أندرونيكوس الذى كان ينوب عنه فى القسطنطينية رفض اتخاذ أى إجراء لإنقاذ والده ولكن الذى سارع لإنقاذه مانويل إبنه الأصغر الذى كان يحكم سالونيكا وأفرج عن والده بعد أن دفع المال وعاد الإمبراطور فى أكتوبر سنة ١٢٧١ بعد عامين من الأسر (١) .

ورغم أن حنا الخامس فشل فى الحصول على مساعدة من الغرب فإن بيزنطة استطاعت استعادة بعض أراضيها عفوا بسبب انتصار الأتراك على الصرب . فالصرب الذين كانوا القوة الرئيسية فى شبه جزيرة الأناضول انقسموا قسمين بعد موت دوسان فى ١٣٥٥ وكانت بلغاريا تخضع لهم بعد هزيمتها فى فلبيزاد فى ١٣٣٠ . وكان من الطبيعى أن يصطدموا بالعثمانيين فبعد أن أقام العثمانيون فى تراقيا أصبحت مقدونيا الصربية أهم ولاية معرضة لخطر الترك، فقام الملك Vukosin أقوى حكام الصرب وأخيه حنا أوجلوز الذى كان يحكم الجنوب الشرقى من مقدونيا بالتصدى للعثمانيين بجيش قوى ، ولكن لقوا هزيمة على يد العثمانيين فى معركة فاصلة فى Gernomon ١٣٧٣ م وهذا النصر جعل أكبر جزء فى بلغاريا وهى مقدونيا الصربية يخضع للعثمانيين، واعترف حكام الصرب بسلطان الأتراك وكان هذا بداية اجتياح الأراضى الجنوبية التى يسيطر عليها السلاف واستغل مانويل إبن الإمبراطور الوضع واستطاع الاستيلاء على بعض أراضى أوجليز ودخل سيواس فى نوفمبر ١٣٧٢. ولقد اضطر مانويل وحكام بيزنطة المتأخرين لحاجتهم إلى دعم مادى لتجريد الأديرة من نصف ممتلكاتها إلى أن تتحسن الظروف، ولكن الأراضى رجعت فيما بعد إلى أيدى الأديرة فى مقابل ضرائب باهظة.

---

(١) Ostrogorsky : op. cit, p. 481
Camb. Med. Hist. Vol 4 p. 691
Halecki, un Empereur p62

وبعد عشرون عاما من أول وجود الترك فى أوربا اعترفت كل من بيزنطة والبلغار بالسيادة لهم ، وفى ربيع سنة ١٢٧٣ اعترف حنا الخامس بسيطرة الترك ودفع جزية سنوية وضريبة وبدأ يمارس واجباته كتابع فصاحب السلطان فى حملته على آسيا الصغرى وأرسل إبنه مانويل لتقديم فروض الولاء فى بلاد مراد . ولقد استغل ابنه أندرونيكوس هذه الفرصة فى غياب أبيه وأخيه وقام بالثورة ضده واتصل بقوات الأمير العثمانى Saudrie الذى كان قد ثار على أبيه مراد أيضاً . فقام مراد بإخماد الثورة وسمل عينى إبنه وأمر حنا بتنفيذ نفس العقوبة على إبنه ، ولكن موت الأمير العثمانى أنقذ أندرونيكوس من نفس المصير فخفضت العقوبة ولكن حرم من حق وراثة العرش ونقل إلى أخاه مانويل(١) .

وفى تلك الفترة نشب صراع بين جنوه والبندقية على Tendes التى تعتبر مدخل الدردنيل وكانت كلا الجمهورتين تسعى للحصول عليها ووعد حنا البندقية بها ، وقررت جنوه التدخل لتغيير حكام القسطنطينية لتمنع أى فائدة أو امتياز تحصل عليه البندقية فسعت لتهريب أندرونيكوس من سجنه وتداتجه بعد هروبه إلى غلطة وأمدته جنوه بجيش لمحاربة حنا الخامس والبندقية . وفى ١٢ أغسطس شق أندرونيكوس طريقه إلى القسطنطينية بعد حصار دام اثنان وثلاثون يوما وقبض على أخيه وأبيه وسجنهما وقرر أن يمنح جنوه Tenedes ولكن سارع البنادقة بالاستيلاء عليها وكان أهلها يؤيدون حنا ، وسعى أندرونيكوس إلى استمالة الأتراك باعطائهم جاليبولى التى كان أمير سافوى قد استولى عليها من قبل ، ولكن بمعاونة

---

(١) Ostrog orsky : op. cit, p. 473
Baynes : op. cit, p. 47
Camb. Hist. of Islam Vol. I, p. 275
Gillard. op cit p 25

للبندقية استطاع حنا الخامس وابنه مانويل استعادة العرش بعد أن ظل أندرونيكوس من ١٣٧٦ — ١٣٧٩ مسيطراً على الأمور .

تلك الصراعات الداخلية كانت لها دلالات خاصة أهمها أن حكام بيزنطة أصبحوا مجرد أداة فى أيدى مدن إيطاليا البحرية وفى أيدى الأتراك فقد زاد اعتماد حنا وابنه مانويل عليهم وبدءوا عهدهم فى سنة ١٣٧٩ بدفع الجزية للاتراك وتقديم الخدمة الحربية ومصاحبة الجيش التركى فى فتوحه كاتباع[1] . بل قد اضطر حنا للاعتراف بابنه أندرونيكوس الرابع الذى ثار عليه وابنه حنا السابع كورثة شرعيين بناء على رغبة السلطان وأن يمنحهم ردستوس وسلبيريا وهراقليا وبانديوس . وأصبحت الإمبرطورية مقسمة كما يلى الأمبرطور حنا الخامس فى القسطنطينية وأندرونيكوس الرابع فى سلبيريا معتمداً على تأييد العثمانيين وكان فى حوزته أيضاً حكم المدن على بحر مرمرة ومانويل يحكم سالونيكا وثيودور الأول الإبن الثالث للامبراطور يحكم مستريا ، وكان ثيودور الوحيد فى آل باليولوجس الذى سعى لاستعادة أملاك بيزنطة فى البليونيز من آل كنتاكوزيين. فثيودور الأول ١٣٨٢ — ١٤٠٦ بعد اعترافه بسلطان الأتراك كان من حقه التمتع بالدعم ضد أعدائه فى الداخل والخارج ضد الأستقراطية المحلية فى الداخل واللاتين فى الخارج . وبذلك استطاع تثبيت نفوذ بيزنطه فى المورة[2] ، ووطن فى تلك المناطق الألبان وأصبحت المورة أهم مركز بيزنطى، بل فى وضع أفضل من العاصمة .

وحاول أندرونيكوس القيام بثورة جديدة ، ولكن أنقذت وفاته سنة

---

(١) Baynes , op. cit, p. 47

(٢) Ostrogorsky , op. c t, p. 486

Camb. Hist of Islam Vol: I. p. 275.

١٣٨٥ البلاد من الاضطراب وعاد مانويل الوريث الشرعى ثانياً . ولكن لم تستقر الأمور فى بيزنطة فقد استولى العثمانيون على فلادلفيا آخر إمارة بيزنطية فى آسيا ، وهى جزء من إمارة طرابيزون وقد أثار هذا الحدث الغرب وتعالت أصوات بحملة صليبية ، ولكن لم تخرج إلى حيز التنفيذ القوة الوحيدة التى واجهت العثمانيين هم الاسبتار فى رودس ولكن كان عدوهم الأساسى أمير Aydien العثمانى .

معركة كوسفو :

انتقل بعد ذلك مراد إلى ميدان البلقان ثانية وكان الصرب قد تم الإطاحة بهم وهزيمتهم وأصبح أكبر جزء من بلغاريا ومقدونيا الصربية فى أيدى مراد وكذلك اعترف ملك البلغار شيشمن بمراد كسيد أعلى له ، وأرسل ابنته سمارة كزوجة فى حريم السلطان ، ولكن طرأ على الموقف تغير بسبب تغيير القيادة فى الصرب والحاكم الذى خلف داسان فى مملكة الصرب الشمالية لاذار استطاع توحيد المملكة عن طريق الزواج والتحالف ضد الترك (١) . ولقد عادت علاقتهم طيبة ببيزنطة بعد رفع قرار الحظر ضد كنيستها ، ولقد تحالف لذار مع Tvrtko حاكم البوسنا ، ونتيجة لذلك قدم الأتراك فاستولوا على سيرا سنة ١٣٨٣ وصوفيا سنة ١٣٨٥ ونيس سنة ١٣٨٦ وسالونيكا فى سنة ١٣٨٧ بعد حصار طويل ، ولكن القوة التركية التى اجتاحت بوسنيا فى سنة ١٣٨٨ هزمت . فى حين قرر مراد أن يتجه لمناطق السلاف الجنوبية (٢) ، وأول ما واجههم

---

(١) Hussey, op. cit p. 81.
Runicman , op. cit. p. 84,

(٢) الغزو التركى أخذ ثلاثة طرق رئيسية فى البلقان فى الوسط اتخذوا طريق وادى Maritza ووصلوا لأسفل تلال البلقان ومنها إلى صوفيا ونيس ، وفى الجانب الأيمن الطريق إلى وادى Tundya وفى اليسار طريق سيراس .
Camb. Hist. Islam Vol. 1 p. 277

امير البلغار الذى كان يعينه لاذار ويحرضه ضد الأتراك وقد رفض تقديم الخدمة الحربية واندفع العثمانيون فى بلغاريا الشرقية فى سنة ١٣٨٨ . فأخذوا أولا ترنوفو وعدة قلاع على الدانوب ، وأجبر البلغار على الخضوع وحاصروا سلستريا ، وبعد ذلك تحولوا إلى الصرب وتقابل لاذار والصربيون والبوسنيون مع مراد فى سهل كوسفو فى المعركة التى قررت مصير البلقان فى يونيو ١٣٨٩ وكان الحظ فى البداية مع الصرب فقد استطاع أحد الصرب الدخول إلى خيمة السلطان بدعوى أنه يعرض عليه بعض الطلبات الخاصة بالمسيحيين ثم طعنه بمدية ، ولم يغير قتله من الموقف كثيراً فولداه كانا مع الجيش وابنه الأكبر بيازيد تولى القيادة فوراً وأخفى خبر وفاة أبيه إلى نهاية المعركة ، ولكن تسربت أنباء وفاته للجيش فسارع الجناح الشمالى للأتراك بالفرار ووصلت أنباء تلك الانتصارات للملك Tvrtko ملك بوسنا . ولكن تحت قيادة السلطان الجديد بايزيد انتصر العثمانيون وأخذ لاذار أسيراً وقتل مع نبلائه فى نفس الخيمة التى قتل فيها مراد ،وخضع حلفاؤه للفاتحين ووعدوا بدفع جزية وتقديم الخدمة الحربية وبذلك انتشر الترك فى البلقان(١) .

حصار القسطنطينيـــة الأول

بايزيد وحصار القسطنطينية الأول :

تولى بايزيد عرش الدولة العثمانية خلفاً لمراد . وأم بايزيد جارية أغريقية ، ولقد اشتهر بحدة الطبع والقسوة واتسمت تصرفاته بالاندفاع وكان يطلق عليه بالدريم أى « صاعقة الرعد » وبدأ عهده بداية لامعة

(١) Ostrogorsky, op. cit. p. 486—487

فنصر كوسفو جعله سيد البلقان وتبع ذلك اجتياحه لمساحات أخرى . أما الصرب فقد نجح ابن لذار فى أن يلى عرش الصرب ولكن حمل لقب Despot فقط وكتابع للسلطان الذى تزوج أخت زوجته ماريا ، ولم يكن أمر مملكة البلغار فى ترنوفو أفضل حالا ففى سنة ١٣٩٣ قضى عليها بايزيد ، وتقدم جيشه فى المورة سنة ١٣٩٤ م وأجبر أمراء المنطقة على الخضوع له .

أما بالنسبة للقسطنطينية فقد زاد نفوذ السلطان وتدخل فى أمورها الداخلية وأعان بايزيد حنا السابع بن أندرونيكوس على أن يغتصب العرش فى ١٢ أبريل سنة ١٣٩٠ ووجد المغتصب حليفاً فى جنوة ، ولكن جنوة والبندقية لم يعودا فى وضع يسمح لهما بلعب نفس الدور القيادى الذى كان لهما أيام ثورة أندرونيكوس الرابع فالصراع على تينيدوس أضعفها وأصبح تأثيرها غير ذى موضوع . ولذلك أصبح السلطان التركى هو القوة الحقيقية القادرة على التدخل [1] .

ولكن حنا السابع لم يستمر طويلا كحاكم فقد استطاع مانويل الهرب إلى لمونز ، وبعد محاولتين غير ناجحتين ، استطاع فى سبتمبر سنة ١٣٩٠ طرد عدوه واستعادة عرش أبيه وعاد حنا إلى عرشه ولكن بلا سلطات فعلية ، فالسلطة الحقيقية فى يد الأتراك وأصبحت سيطرة الأتراك أمراً معترفاً به . وأجبر مانويل على أن يصحب الإمبراطور فى جميع غزواته لا تلك التى تهاجم أراضى سلجوقية فقط [2] . بل أجبر على الاشتراك

---

(١) Baynes : op cit. p 81

Charanis, Palaeologi and Ottoman p364

(٢) أخضع بايزيد جميع إمارات الغزاة فى غرب الأناضول كايدن وصاروخان ومنتشا وبقايا بيت حميد وأجبر أمير كرمان ٧٩٣ — ١٣٩١ على طلب الصلح ، والإمارة الوحيدة التى صمدت هى التى تتبع برهان الدين حاكم سيواس .

Camb, Hist of Islam, Vol. 1, p. 27.

فى محاصرة فلادلفيا آخر معقل بيزنطى فى آسيا .

ولكن بايزيد تمادى فى استخفافه بالبيزنطيين فأمر الإمبراطور حنا بهدم التحصينات التى أقامها حول القسطنطينية للدفاع عنها ضد أى خطر ولكن حنا رفض الاستجابة لهذا الأمر وأنقذه الموت من هذا الموقف الحرج إذ توفى فى ١٦ فبراير سنة ١٣٩١ بعد حياة من المهانة (١) . وكان ابنه مانويل فى بروسيا فسارع إلى القسطنطينية لتأمين عرشه خوفا من قريبه الطموح حنا السابع .

ومانويل يعتبر أحد معالم التاريخ البيزنطى الإنسانية الأخيرة ورغم أنه حكم بيزنطة فى فترة من أسوأ فترات تاريخها ورغم وضعه كتابع للأتراك فإنه حظى باحترام الجميع حتى الأتراك فقال عنه السلطان بايزيد أن أى شخص لا يعلم حقيقة أنه إمبراطور فإنه يستطيع استنتاج هذا من مظهره (٢) ، وكان واضحاً أن أيام الإمبراطورية معدومة فلم يعد لبيزنطة فى المورة إلا عاصمتها ولم يكن بايزيد بالحاكم الذى يقنع بالسيطرة الإسمية بل سعى إلى الاستيلاء على العاصمة الإمبراطورية ذاتها وضمها إلى الأراضى العثمانية ، وأعلن ذلك صراحة فى مقابلة مع أتباعه السلاف والبيزنطيين فى بروسيا ١٣٩٣ — ١٣٩٤ واعتبر بايزيد القسطنطينية مدينة محاصرة .
ولكن قبل القيام بالحصار الفعلى قام بايزيد بإخضاع كل القرى الموجودة فى البلقان حتى لا تمد إحداها يد المساعدة الفعلية للقسطنطينية . وكانت أحوال الإمبراطورية قد ساءت نتيجة نقص الإمدادات فيها وخاصة بعد اجتياح الترك للمورة .

(١) Ostrogorsky, op cit, p. 87

Dogler, johannes vII p28

(٢) Ostrogorsky, op cit, p. 487

Grousset L'empire des steppes p 486

Camb Med Hist, Vol 4, p. 692

Charanis op. cit 304

وفى عام ١٣٩٤ استولى القائد التركى أفرينوزبك على تساليا ثم اتجه العثمانيين إلى بعض بلاد الإغريق التى كانت تسيطر عليها نفارا فى ١٣٧٩ فغزوها ثم اتجهوا إلى أتيكا وكان يسيطر عليها دوق أثينا نيرو (١٣٨٨ — ١٣٩٤) وهو أصلا من عائلة تشتغل بالتجارة فى فلورنسا ، وكانت هناك صداقة وصلة مصاهرة بينه وبين ثيودور باليولوجس وكان كلاهما على خلاف مع البندقية ولكن ما لبث أن توفى نيرو وخلفه كاولوتوكو الذى استنجد بالعثمانيين فساندة جيش افرينوزبك وانضمت إليهم نافارا التى كانت على عداء مع حاكم ميسترا البيزنطى وهزموا ثيودور عند أسوار كورنثة واستولى العثمانيون على AkoveLeontarion وانتشرت الفتوح العثمانية فى شمال البلقان ، وكانت بلغاريا قد خضعت فى ١٣٩٣ للعثمانيين واستمروا فى سيطرتهم عليها خمسمائة عام . وكذلك استولوا على Dobrudgia ، والانتصار العثمانى الأخير له نتائج هامة فعنى احتلال بلغاريا أن المجر وإمارات الاتين فى بلاد الإغريق أصبحت مهددة فاستنجد سيجموند ملك المجر بالغرب ولقيت دعوته استجابة وانضم إلى حاكم المجر عدد من الفرسان من الدول الأوربية خاصة من فرنسا وبعد تردد اشتركت البندقية وأعدت أسطولا صغيراً فى الدردنيل لتفتيش المضيق ولجعل خط الإمدادات متصلا مع القوات الموجودة فى المجر ، ولكن تلك الجيوش هزمت فى معركة نيقوبوليس فى ٢٥ سبتمبر ١٣٩٤ بسبب الجفاء بين الفرنسيين والمجر ، وهرب سيجسموند . وبهزيمته أصبح الوضع فى البلقان أكثر سوءاً وأصبح الطريق ممهداً أمام الترك (٢). وكانت إمارات فيدن البلغارية قد استطاعت النجاة من أيدى العثمانيين سنة ١٣٩٣ فاستولوا عليها هذه المرة سنة ١٣٩٧

(١) Camb, Hist, of, Islam Vol 1 p, 285

Setton, Catalan Domination of Athens p125

(٢) Rosetti, The Battle of Nicopolis p69

ثم احتلوا أثينا وعبروا أخيوس واجتاحوا أرجوس وانتصروا على قوات بيزنطة هناك . ثم اجتاحوا الشاطىء الجنوبى وكان ذلك إيذاناً بأن القسطنطينية قد جاء دورها بعد القضاء على كل العناصر المناوئة أو التى باستطاعتها أن تمد يد المساعدة للقسطنطينية وكانت المدينة تمر بفترة ضعف فى السنوات العشر الأخيرة .

إلى جانب أن بيزنطة فقدت كثيراً من تأثيرها وهيبتها بعد معركة نيقوبوليس ولقد طلب مانويل الثانى المساعدة من روسيا ومن دوق البندقية وملك فرنسا وانجلترا ، فى نفس الوقت الذى كان حنا السابع منافسه يتفاوض فى فرنسا لبيع حقه فى العرش لملك فرنسا مقابل قصر هناك ودخل مائتان وخمسين ألف فلورين ولكن شارل ملك فرنسا لم ينظر لهذا العرض باعتبارها محاولة جدية ، ولكنه استجاب لطلب مانويل وأرسل فرقة من ألف ومائتان رجل تحت قيادة المارشال Boucicaut الذى سعى لشق طريقه إلى القسطنطينية ولكن كان واضحاً أن القوة صغيرة ولن تستطيع انقاذ القسطنطينية(١). وقرر الإمبراطور الذهاب إلى الغرب لطلب المساعدة وتدخل بوكيكو للصلح بين الإمبراطورين البيزنطيين المتنازعين حنا السابع ومانويل ، وتقرر أن يحكم حنا السابع كإمبراطور فى القسطنطينية فى غياب مانويل ومع ذلك فإن مانويل لم يكن يأمن له فأرسل أسرته عند أخيه فى المورة ، وذهب فى رحلة لطلب المساعدة من الغرب فزار البندقية وعدداً من المدن الإيطالية ثم ذهب إلى باريس ومنها إلى لندن وكان ظهوره فى ذلك الوضع له تأثير كبير فى نفوس عدد من مفكرى الغرب الذى عبر أحدهم عنه بقوله . إنها كانت أميرة على الأمم وملكة على العالم ثم استعبدت ،(٢) ولم تحقق الرحلة نتائج إيجابية إلا بعض الوعود

---

(١) Ostrogorsky ; oP cit. p. 493

(٢) يقصد ما آل اليه حال بيزنطة وما كانت عليه سابقا

Schlumberger: un empereur de Byzance a paris et londres p361

التي لم تتحقق، فرحل الإمبراطور إلى باريس ثانية وأقام بها حتى وصلته أنباء هزيمة السلطان على يد المغول .

فى ربيع ١٤٠٢ أرسل بايزيد رسالة إلى الإمبراطور يطلب منه تسليم المدينة واتبعها بالاستيلاء على الشاطىء الآسيوى وعلى شريط ضيق من البسفور (١) ولقد رد الإمبراطور حنا السابع على رسالة السلطان برسالة يقول فيها « قل لسيدك أننا ضعفاء ولكن نؤمن بالله الذى سيجعلنا أقوياء ومن الممكن أن يسقطهم من عروشهم واجعل سيدك يفعل ما يريد » (٢) .

العثمانيون والمغول « معركة أنقرة » :

ولكن أنقذ بيزنطة ظهور قوة جديدة على مسرح الأحداث وتتمثل فى التتار وقائدهم تيمورلنك وهو تركى الأصل من فرع جنكيزخان ويعتبر أهم حاكم مغولى منذ عهد جنكيزخان (٣) ، ولقد ولد فى تركستان ١٣٣٦ وكون إمبراطورية تمتد حدودها من الصين والبنغال إلى شواطىء البحر المتوسط ولكنه كان يفتقد المهارة والمقدرة لتنظيم الفتوح ورغم أنه فاق جنكيزخان فى المقدرة الحربية والوحشية . وكان يكره أن تكون هناك قوة تركية أقوى منه أو منافسة له ولخوفه على إماراته الغربية اتجه إلى العثمانيين .

وفى سنة ١٣٦٨ تقدم فى شرق أناتوليا وهزم جيشا لأمراء الأناتوليك فى أرزنجان ولكنه تراجع وإن كان قد هدد بالعودة ثانية ، وفى سنة ١٣٩٣

---

(1) Hearsey, op. cit, 282

(٢) Ostrogorsky ; op' cit, p. 498   Grousset ; op. cit p486

(٣) ابن حجر : أنباء الغمر ج ١ ص ٣٨٥ .

ظهر تيمور مرة ثانية فى سيواس[١] وأجرى مذبحة هناك وقتل ابن بايزيد الذى كان يحكم الولاية ولكن أنقذ العثمانيين اتجاه التتار إلى حلب ودمشق وظن السلطان أن المشكلة انتهت ولكن الحقيقة أن تيمور كان ينوى العوده ثانية[٢]. فأثناء حصار بايزيد للقسطنطينية وصلت رسالة من تيمور يأمره بإعادة جميع أراضى بيزنطة التى سبق له الاستيلاء عليها ورفع الحصار ونقل جيشه إلى أناتوليا ، ثم وصل تيمور فجأة إلى سيواس وحدثت المعركة الفاصلة فى أنقرة ٢٥ يوليو ١٤٠٢ وتسبب جهل بايزيد فى وضع نفسه فى مركز سيء من الناحية التكتيكية ، وكان جنوده لا يميلون إليه بسبب شحه وبخله وسقط بايزيد وابنه فى الأسر وهرب معظم الجيش التركى وترك لمصيره ، وكان الجيش الوحيد الذى ثبت فى المعركة هو جيش الصرب الذى قاده ستيفن لاذار وأمكنه إنقاذ ابن بايزيد الأكبر سليمان. أما أخوه مصطفى فاختفى فى المعركة ولم يعرف مصيره . وفلول الجيش التركى الذين بقوا على قيد الحياة ذهبوا إلى أندلوهيسار ، وتقدم تيمور خلال غرب أناتوليا مجتاحا مدنها وخاصة بروسا العاصمة القديمة للعثمانيين .

ولقد عامل تيمور بايزيد بوحشية وقسوة إذ وضعه فى قفص من الذهب وحمله معه ، ولقد انتحر بايزيد فى الأسر فى مارس ١٤٠٣ . وترك تيمور أناتوليا ورجع إلى عاصمته سمرقند حيث مات عام ١٤٠٥ فى الوقت الذى كان يعد العدة لفتح الصين[٣]، ورغم أن تدخله فى آسيا كان لفترة قصيرة فإن نتائجه

---

(١) يذكر ابن إياس ج ١ ص ٣٢٦ أن جاليش تمرلنك قد وصل إلى سيواس وأن ابن تيمورلنك فى الجاليش ومعه عسكر عظيمة وأن ابن عثمان والقان أحمد بن أويس وقرا يوسف توجهوا إلى مدينة برصا وتركوا بلادهم من خوفهم من تمرلنك .

(٢) Runicman. op. cit, p.55

(٣) كان هدف بايزيد إقامة إمبراطورية قوية لها إدارة منظمة فأقاما أسطول فى جاليبولى وسيطر على Hellespont وتحدى البندقية فى البحر ، وكان يريد الاستيلاء على القسطنطينية جعلها عاصمة لمملكته .

كانت هامة فقد حطم قوة العثمانيون وأكد وجود بيزنطة وحماها من الانهيار لمدة نصف قرن (١). ورغم وجود ارتباك حقيقى فى شئون العثمانيين فلم تستغله بيزنطة إذ أمست فى حالة من الضعف لا تجعلها قادرة حتى على استغلال فترة السلام فى إعادة بناء نفسها إلى جانب أن هناك مئات آلاف من الأتراك ما زالوا فى أوربا ، وكان من الصعب طردهم ، وأغرب ما فى الأمر أن الفتح التيمورى أضاف لقوتهم فى أوربا لأن العائلات التركية هربت قبل وصول جيوش تيمور إلى المناطق الأوربية وقد استفادت جنوه من تقديم الخدمات لهم وجنت ربحا وفيراً ، ولقد ذكر المؤرخ دوكاس أنه كان فى أوربا أتراك أكثر مما كان فى الأناضول (٢).

بيزنطة عقب معركة أنقرة :

تغير مقياس القوى فى الشرق جعل بيزنطة تنعم بفترة راحة وخاصة لنشوب الصراع بين أبناء بايزيد فأكبر أبناء بايزيد سليمان الذى كان يلى الجزء الأوربى دخل فى صراع مع أخيه حاكم آسيا الصغرى ، ولقد انضم مانويل إلى جانب سليمان فى صراعه وقد وعده سليمان بمنحه سالونيكا وعدة مدن فى آسيا بعضها لم يكن يسيطر عليها سيطرة فعلية وأرسل أخاه الأصغر قاسم كرهينة إلى القسطنطينية وفى المقابل أعطيت له كزوجة قريبة الإمبراطور ابنة تيودور حاكم المورة . ولقد تحررت بيزنطة من دفع الجزية للترك . كذلك عقد سليمان اتفاقية فى ١٤٠٣ مع حاكم الصرب

---

(1) Camb, Hist, of, Islam Vol. I. p, 279

(2) Hussey ; op. cit. p. 82

Runicman, op. cit. p. 45

(٣) كانت المملكة العثمانية مقسمة كالى: سليمان فى أدرنة ، محمد فى أماسيا ، وعيسى فى بروسيا ، ولقد تقلصت أملاك العثمانيون إلى ما كانت عليه أيام مراد الإبن ، وأصبحت أدرنة عاصمة الدولة الأكثر أهمية

ستيفان lazarevi والمدن البحرية البندقية وجنوه ورودس . ولكن في ١٤١٩ هزم سليمان على يد أخيه موسى وقتل أثناء محاولته الهرب للقسطنطينية ، وبدأ موسى الانتقام من حلفاء سليمان وحاصر القسطنطينية وهاجم الصرب التي دعمت أخاه واستعاد سالونيكا التي كان يتولى حمايتها أورخان الذي قبض عليه وسملت عيناه

ولكن الأخ الأصغر محمد الذى كان يسيطر على الأمور فى الأناضول ثار على أخيه وانضم إليه مانويل وقائد الصرب ستيفان lazarevi والحكام الأتراك الذين كرهوا وحشية موسى . فهزم محمد الأول أخاه وذبحه فى ١٤١٣ ، وتوج سلطانا ولقبه Chelbi أى (السيدالمهذب) ، وكان جندياً ممتازاً وفى نفس الوقت كان رجل سلام وكرس وقته وجهده لتثبيت حكمه ومد نفوذه فى آسيا الصغرى ، وأبدى تفهما لموقف بيزنطة وظلت العلاقة طيبة بين الطرفين ، وأعاد السلطان المدن التى استولى عليها موسى لمانويل وأهمها سالونيكا [1]. ولثقة مانويل من صداقة السلطان أصبح من الممكن له أن يقضى ربيع سنة ١٤١٥ فى البلبونيز ولقد أقام الإمبراطور سوراً طويلا قوياً عبر Isthmus فى كورنثه أطلق عليه Hexmilion وزيارة مانويل للبلبونيز كان لها تأثير كبير فى شئون القطر الداخلية فظهوره كبح جماح الأمراء المحليين وأكد سلطة الدولة ، واستطاع حنا بن الإمبراطور مانويل وأخوه ثيودور الثانى قيادة حملة ناجحة ضد اللاتين فى آخيا وفقد سنتوريون زكريا معظم أراضيه وتدخل البندقية فقط هو الذى منع سقوطها فى أيدى البيزنطيين . واضطر الدوق إلى الدخول فى حرب مع جنوه سنة ١٤١٦ ومع المجر فى سنة ١٤١٩ . أما محمد فأخضع الثورة التى قام بها أخوه مصطفى ، ولكنه توفى فى ١٤٢١ . وخلفه ابنه مراد

---

(1) Ostrogorsky, op. cit . p. 496

Blanchet. Les dernieres monnaies d'or empereurs byzantins p14

(١٤٢١ — ١٤٥١) وبتوليه انتهت فترة السلم التى نعمت بها بيزنطة مع العثمانيين (١) .

حصار القسطنطينية الثانى :

اتبع السلطان الجديد السياسة التوسعية لبايزيد والوضع كان أشبه بالوضع قبل معركة أنقرة وإن كانت بيزنطة قد تسببت فى اتجاه هذا الموقف منها .

فى البداية سعى مراد الثانى لأن يستمد الدعم من القسطنطينية فأرسل لمانويل يذكره بصداقته لوالده ويطالب تأييده . ولقد رحب مانويل بذلك ؛ ولكنه كان قد تقدم فى العمر وكان يتحكم فيه ابنه حنا الثامن الذى توج كإمبراطور مشارك ١٤٢١ .(٢) وبدعم من سناتوا البندقية رأى البيزنطيون أنه من الممكن أن يستفيدوا من الخلافات فى الدولة العثمانية (٣) فطلبوا من السلطان اثنين من إخوته كرهينة فوافق ولكن البيزنطيين نكثوا عهدهم وانضموا إلى جانب المدعى مصطفى مقابل وعود فى حالة نجاحه ، ولكن محاولته انتهت بالفشل . ونتيجة لذلك حاصر السلطان القسطنطينية فى ٨ يونيو ١٤٢٢ (٤) ولم ينقذ القسطنطينية إلا دفاعها الحصين ولم يكن لدى مراد آلات حصار كافية ، وفى نفس الوقت الذى ثار عليه أخ آخر له فترك أمر حصار القسطنطينية بلا حسم إلى الوقت المناسب ورغم أن

---

(1) Ostrogorsky : op. cit. p. 499

(2) Runicman : oP. cit. p. 4 - 5

(٣) كان محمد الأول قد انصرف إلى الاهتمام بالأمور الداخلية فنبذ تقاليد الغزاة وأقام دولة على أساس النظام الإسلامى فى الحكم واعتمد على غلمانه الأرقاء الذين بلغ تعدادهم سبع آلاف فى إدارة فى الولايات .

Camb. Hist. of Islam vol . I . p. 280

(٤) جيبون : اضمحلال الإمبراطورية الرومانية جـ ٣ ص ٢٧٢ .

سقوط بيزنطة الفعلى حدث بعد ثلاثين عاما فإن هذا يعتبر بداية النهاية .

وفى ربيع ١٤٢٣ اندفع الأتراك فى جنوب بلاد الإغريق ، وحطموا السور الذى بناه الإمبراطور فى كورنثه ونجح الحكام الإمبراطوريون فى عقد معاهدة مع مراد الثانى فى ١٤٢٤ وافقت فيها بيزنطة على دفع جزية وتسليم عدة مدن للعثمانيين من التى حصلت عليها بعد معركة أنقرة . واتجه مراد بعد ذلك إلى سالونيكا وكانت الأوضاع الداخلية مضطربة حتى اضطر حاكمها أندرونيكوس ابن مانويل لتسليمها للبنادقة فى صيف ١٤٢٣ م فى مقابل احترام شعائر أهل المدينة والدفاع عنهم وإمدادها بالمؤن ، وأدى هذا إلى إثارة غضب السلطان العثمانى الذى كان يعتبر المدينة تابعة له وحاول البنادقة التفاهم معه وكانت عروضهم فى كل مرة تزداد سخاء نتيجة لازدياد الضغط التركى على أسوار المدينة وقلة المؤن فعرضوا مبلغ مائة ألف إسبار Aspar ، التى كان يدفعها الحاكم اليونانى ، ثم عرضوا مائة وخمسين ألف إلى أن وصلوا ثلاثمائة ألف ، ولكن رفض السلطان جميع العروض . وبعد هجوم خاطف استولى عليها مراد الثانى فى مارس سنة ١٤٣٠ ، وفى نفس العام صد هجوم لملك المجر وبولندا ودخل إبيروس .

وفى ١٤٢٥ مات مانويل بعد أن دخل الدير تحت اسم الراهب ماتيوز .

التحالف الأوربى والبابوية :

تولى حنا الثامن عرش القسطنطينية كابسيلوس أو أتيكراتور للرومان أما مقاطعات البحر الأسود والبلبونيز والتى تمثل جزء هام من

---

(١) وعد مصطفى بمنحه جاليبولى ولقد اشتهر مصطفى بلقب Dumeze

(٢) واجه مراد مشاكل من أمراء كرميان الذين دعموا أخاً أصغر له يسمى مصطفى أيضاً وحاولوا إقامته سلطانا .

Camb. Hist. of Islam. vol . 4 . p. 281

L' emerle, La dominiatio a TheSsalonqae p 219

الإمبراطورية البيزنطية فقد حكمها أخوته كحكام مستقلين .

أما شبه جزيرة الأناضول فإن جورج برنكوفيتش خلف عمه ستيفن لاذار فى حكم الصرب سنة ١٤٢٧ وأصبح تابعا للسلطان وأجبر على نقض تحالفه مع المجر وطلب منه السلطان مراد أن يزوجه ابنته Mara ولكنه تأخر فى الرد فاجتاحت الجيوش التركية أراضيه وحطمت قلعة سمندريا على الدانوب واتجه بعد ذلك لحصار بلجراد ولكن دفاعها كان قويا فأجبره على التراجع

وهذا النصر شجع عدداً من أمراء الغرب ، وفى مجمع فلورنسا بدأت البابوية فى تنظيم حملة صليبية ، ولقد رحب الملك لدسلاس ملك الصرب والقائد الألبانى المعروف باسم اسكندر بك [١] بالانضمام إليها وهذا التحالف كان تحت قيادة حنا كورفنيوس Hunaide حيث انضموا إلى الحملة الصليبية فى أكتوبر سنة ١٤٤٣ فى سميندريا عبر الدانوب وعبرت الحملة أراضى الصرب وكان هينادى يقود المقدمة واستطاع تحقيق نصر حاسم على قائد روميليا التركى فى المرتفعات المجاورة لينس ودخل الصليبيون بلا مقاومة فى بلغاريا وأخذوا صوفيا وعبروا إلى تراقيا واضطر الجيش الصليبي إلى التراجع بسبب البرد غير المحتمل ، وأثناء عودتهم قاتلوا العثمانيين فى جبال Kanavica وهزموهم ثانية فى بداية سنة ١٤٤٤ وبدا كأن المد تغير وأجبر الجيش العثمانى على اتخاذ موقف الدفاع أكثر من مرة . فى ألبانيا حدثت اضطرابات عنيفة وبدأت شعارات المطالبة بالحرية تتردد تحت قيادة اسكندر بك الذى دخل فى حرب مريرة ضد العثمانيين [٢] .

---

(١) اسمه الحقيق Castviate Goerge

Cegaj : l'Albaine et l'invasion Turque XI.

(2) Hussey op. cit p. 8?

وفى جنوب اليونان كان الأمير قسطنطين يسيطر على أهم أجزاء المورة ابتداء من سنة ١٤٤٣ وكان أول أعماله إعادة بناء هيكسميلون عبر اسميوس الذى سبق أن خربه الأتراك واندفع فى قلب بلاد الإغريق داخل أثينا وطيبة ، والدوق نيرو الثانى Acciajaoli الذى كان تابعاً لتركيا اعترف بسيطرة حاكم مستريا ووعد بدفع الجزية له .

هذه التغيرات دفعت مراد الثانى للتفاوض مع معارضيه ، وفى يونيو سنة ١٤٤٤ قابل السلطان سفراء الملك فلاد سلاف وجورج برنكوفتش وهينادى فى أدرنا نوبل وعقد صلحا لمدة عشر سنوات وكانت شروطه تنص على تسليم حكام الصرب أراضيهم وإنهاء سيطرة العثمانيين على والاشيا ، ولقد ارتبط السلطان بشروط الصلح ودخل إلى آسيا الصغرى . فى حين سافر سفراؤه إلى المجر لكى يحصلوا على تصديق فلاد سلاف ، ونص الاتفاق على الحد من قوة الترك فى البلقان وبذلك تمتع المسيحيون بفترة سلام لمدة عشر سنوات . وسعى مراد أثناءها إلى اعتزال العرش والتفرغ للحياة التى يتوق إليها (١) .

ولكن سرعان ما بلغته أنباء إعداد حملة جديدة فتراجع فى رأيه فالبابوية لم تكن تشعر بالارتياح لتلك النتيجة فالبندقية أوحت لها بأنه من الممكن هزيمة الأتراك والقضاء عليهم نهائيا . والكردينال جوليان قيصرانى حلل ملك المجر الشاب من قسمه الذى سبق أن أخذه عليه مراد وأعلن أن أى قسم للأعداء يحق التحلل منه ، ولكن القوات التى انضمت إليهم كانت محدودة العدد فقد رفض عدد كبير من الأمراء الاشتراك معهم ،

---

(1) Ostrogorsky : op cit p. 501
Camb Hist of Islam vol I p. 283
Camb. Med Hist vol 4. p 699
Halecki, The Crusade of Varna p67

مثل حنا الثامن وجورج برانكوفيتش الذى طرد قواتهم ومنع اسكندر بك من الاتصال بحلفائه وعلى أمل أن تصل قوات بحرية من البندقية قام الصليبيون بالإبحار فى اتجاه البحر الأسود ؛ وبعد رحلة شاقة خلال أراضى بلغاريا التقى الجيشان فى فرنا Verne وحدثت معركة دموية فى نوفمبر سنة ١٤٤٤ حطمت الجيش الصليبى وقتل الملك فلاد سلاف والكردينال قيصريانى ، فكانت هذه آخر محاولة للمسيحيين لوقف التوسع التركى .

ورغم أن إمبراطور القسطنطينية أرسل يهنىء السلطان المنتصر بأطيب تمنياته ، فإن قسطنطين حاكم جنوب اليونان أعد حملة لينتقم لهزيمة فارانا ومد نفوذه وسيطرته إلى باتوينا وفوكيس وبنوس وبدا كأن اليونان نهضت من جديد وبعثت الهلينية ، ولكن لم يستمر هذا طويلا ففى سنة ١٤٤٦ اجتاح مراد بلاد الإغريق وجعل حكام بيزنطة أول خطوطهم عند الهكسمليون . ولكن دمرها الأتراك وحطموا أسوارها ثم دمروا المدن والقرى اليونانية وأخذوا أكثر من ستين ألف أسير وتعهد الحكام البيزنطيين بدفع جزية كبيرة مقابل شروط الصلح (١) .

واعتزل مراد العرش وتركه لابنه محمد الذى كان فى الثانية عشرة آنذاك وعاد إلى Manisa يقضى أيامه فى عزلة، ولكن الجيش والوزراء لم يرضوا عن الحاكم الجديد فالاضطرابات ما زالت قائمـــة على الحدود الأوربية وكان الرأى العام يطالب بعودة مراد ثانية، وخاصة أن اسكندر بك فى ألبانيا قد هزم الجيوش التركية التى أرسلت إليه . فعاد مراد إلى عرشه .

وفى سنة ١٤٤٦ أرســـل مراد جيشا إلى الملبونيز بالمروة وفى

Hearsey op. cit. p. 230 (1)

Halecki, ob. cit p67

معركة kosove فى أكتوبر سنة ١٤٤٨ تقرر مصير الصرب فاضطرت للخضوع بعد معركة شرسة قويه وقبض على اسكندر بك فيما بعد فى ألبانيا التى كان متحصنا بها لسنوات ، وبذلك لم تعد هناك قوة قادرة على مساعدة القسطنطينية فى محنتها (١) .

وكذلك نجح مراد فى الأناضول مع القوى التركية فأخضع Aydin وكرميان واعترف أمير سنوب وأناتوليا بسلطان العثمانيين وكذلك حاكم طرابيزون الذى لم يكن له أى سلطة فعلية كزميله حاكم القسطنطينية .

كانت آخر أعمال مراد إصلاح النظام الحربى فبعد أن كانت الانكشارية من الأطفال الذين استرقوا أجبر عائلات السلاف والإغريق والأرمن والولاش على أن يسلموا للسلطان ولداً ذكراً من أولادهم يعتنق الإسلام ويدخلوه المدارس ، وكانوا ينقسمون قسمين البعض من ذوى النبوغ كانوا يستغلون كإداريين فى مؤسسات الدولة ، أما الغالبية فكانوا جنودا وفرسانا للسلطان وكانوا يمنعون من الزواج وتكرس حياتهم للجيش ، ومات مراد فى سنة ١٤٥١ فى أدريانوبل (٢) .

الاتحاد بين الكنيستين

حاول حنا الثامن تحت ضغط الترك فتح باب المفاوضات مع الغرب رغم أن أباه مانويل نصحه على فراش الموت بألا يعلق أملا على هذا التحالف المشكوك فيه ، فإن المحاولات السابقة لا تشجع على مناقشة هذا الموضوع ، وكل ما كانت تجلبه تلك المحاولات زيادة الشقاق فهى ضد

Ostrogorsky : op. cit , p 507 (1)
Baynes , op. cit, p, 48
Hearsey op, cit, p, 231 (2)
pall Autour Croisade de Varna p22

إرادة ورغبة الشعب البيزنطى لأن أول مطلب لروما الاعتراف بسيادتها كأول مركز دينى .

ومع ذلك فإن حنا الثامن تبنى هذا الاتحاد وسعى لفتح باب المفاوضات مع روما وعرض الاتحاد بين الكنيستين فى مقابل وعد صريح من روما بمساعدته ضد الترك . وفى سنة ١٤٣٧ ترك عاصمته بعد أن أناب أخاه قسطنطين عنه فى الحكم واتجـــه إلى الغرب ورافقه أخاه ديمتريوس والبطريرك يوسف ومجموعة من المطارنة . وفى سنة ١٤٣٨ وصلوا فيرارا (١) وأثناء انعقاد مؤتمر دينى هناك أعيد فتح باب المناقشة وأعلن الإمبراطور موافقة شعبه والكنيسة اليونانية على الاتحاد وأعلن فى ٦ يوليو الاتحاد باللغتين اليونانية واللاتينية (٢) فى فلورنسا رغم معارضة المطران مارك إيجونيكوس ، وتضمن الاعتراف بالسيادة البابوية فى عبارة مبهمة وسمح الإغريق بالاحتفاظ بطقوسهم الدينية الخاصة، ولكن كل ما يتعلق بأمور الكنيسة مرجعه إلى روما .

ومع ذلك فإن القرار لم يكن له أهمية تذكر إلا إثارة الشقاق ، فروما ليس لديها القوة الفعلية لوقف التقدم التركية إلى جانب أن بيزنطة فقدت هيبتها فى عالم السلاف المجاور لحدودها . واعتبر حكام روسيا ما قام به الامبراطور وبطريرك القسطنطينية نوعاً من الخيانة غير المجدية ، وقام الدوق باسيل الثانى بالقبض على المتروبوليتن إيذدور الذى اشترك فى وفد الاتحاد مع روما وبدأت روسيا منذ ذلك الحين تختار مطرانها وأدارت ظهرها لبيزنطة . ومع ذلك فإن الحزب المؤيد للتحالف ذهب خطوات أبعد، وكان قائد تلك المجموعة Bessarion والطران أزيدور الذى هرب من السجن (٤) .

Hussey : op cit' p' 83 (1)

(١) جيبون : اضمحلال الأمبراطورية الرومانية جـ ٣ ص ٢٨٩

Baynes : op. cit. p. 47 (٤)

Ostrogorsky ; op. cit, 504 (4)

الفصل التاسع

سقوط القسطنطينية

(محمد الفاتح وقسطنطين الحادى عشر والمرحلة الأخيرة من الصراع البيزنطى العثمانى) :

تولى قسطنطين عرش بيزنطة فى ١٦ يناير سنة ١٤٤٩ بعد وفاة أخيه حنا الثامن بدون أن يترك أولادا . ورغم أن لقسطنطين ست أخوة فإن الإمبراطورة الأم هيلين قد اختارت قسطنطين دونهم . ومع أن قسطنطين يعد من أفضل الحكام الذين تولوا عرش بيزنطة فإن بيزنطة كان محكوم عليها بالدمار ولم تكن لتجدى شجاعة الإمبراطور أو ذكاؤه شيئاً لإنقاذه وإنقاذها من المصير المحتوم ، فالقسطنطينية أصبحت الفاصل أو العائق الوحيد بين أملاك العثمانيين الأوربية والآسيوية وأصبح الاستيلا على القسطنطينية يمثل ضرورة حيوية بالنسبة لأى حاكم عثمانى (١) .

وكان سقوط القسطنطينية أمراً مسلما به حتى من الغرب الأور تتداوله المدن الإيطالية والاختلاف الوحيد كان على تحديد الزمن ، و نوعية القوة التى ستخضع لها غربية أم تركية وحسم تولى محمد الثانى السلطنة العثمانية الأمر (٢) .

كان السلطان الجديد مشهوراً بعدائه للقوى المسيحية وخاصة لبيزا

---

(١) Camb' Hist of Islam Vol, Ip, 245

Runicman, op. cit, p 45

(٢) لمزيد من التفاصيل فى محمد وحياته الأولى ارجع جيبون : اضمحلال الأمبراطورية الرومانية جـ ٣ ص ٣٤١ .

Pears, The Destruction of The Greek Empire.

Amantos La prise de Constantinople

وكان محمد عند توليه العرش لا يتجاوز التاسعة عشرة لقد ولد فى أدريانوبل سنة ١٤٢٣ ، وكانت أمه جارية تركية ، وكان السلطان مراد يفضل أبناؤه من زوجات نبيلات على غيرهم . ولكن أخاه أحمد مات فى آسيا سنة ١٤٣٧ وأخاه الثانى علاء الدين قتل بعد ست سنوات فى نفس المدينة وأصبح هو الوارث الوحيد . ولم تكن هذه المرة الأولى التى يلى فيها العرش فقد سبق له أن تولاه بناء على رغبة مراد حين رغب الأخير فى الاعتزال والاعتكاف بعيداً فتولى العرش تحت وصاية هلال باشا ولكن محمد كان قاسيا متهورا وربما يعود هذا لصغر سنه ، فقتل الدراويش فى فارس بإيعاذ من هلال باشا وقوبل حكمه بمعارضة من الجيش والشعب واضطر مراد للعودة لتولى مهام الدولة فى حين أرسل محمد إلى أماسيا حيث ظل أمره مهملا لا يظهر إلا نادراً بصحبة أبيه فى بعض الحملات [1] .

وعند وفاة مراد سنة ١٤٥١ أعلن سلطانا وكان فرح الغرب الأوربى بموت السلطان كبيراً لصغر العاهل الجديد ولشكهم فى مقدرته واستطاعته مواجهة مسئولياته . وأرسل مبعوثين من جهات عديدة إلى السلطان فى أدريانوبل فاستقبل السلطان مندوبى البنادقة وجدد معاهدة السلام التى سبق أن عقدها والده لمدة خمس سنوات ، ثم استقبل مبعوثين من لدى هونيادى وعقد معهم صلحا لمدة ثلاث سنوات ، وكذلك استقبل رسلا من لدى حكام الاسبتار فى رودس . وأرسل الإمبراطور قسطنطين رسلا إلى السلطان أحسن استقبالهم بل وأقسم لهم على القرآن بعدم الاعتداء على أراضيهم ووعد بدفع جزية أو مبلغ من المال يبلغ ثلاث آلاف قطعة ذهبية من دخل بعض المدن الإغريقية فى وادى strnma لهم وهى

---

(1) Ostrogorsky op cit p 507

جيبون اضمحلال الإمبراطورية الرومانية ج ٣ ص ٣٤٤

Amantos op cit p9

المدن التى كانت تخص الأمير أورخان الذى كان مقيم فى بيزنطة ، ربما كان محمد يهدف آنذاك إلى استتباب السلام على حدوده وإلى بث الطمأنينة فى نفوس حكام بيزنطة وهو يعد العدة للحملة ، وخاصة أن هناك إثنين من خاصته يؤيدان اللجوء إلى الحرب بل يحثانه على ذلك وهم زاجنوس باشا الوزير الثانى وشهاب الدين .

أما العالم الغربى الذى لم يكن على دراية بوسائل الدبلوماسية العثمانية فقد ابتهج بتلك المعاهدات . فلم تكن هناك دولة على استعداد لاتخاذ إجراء فعلى ، ففى أوروبا فردريك الثالث الهابسبورج كانت له مشاكله مع بوهيميا والمجر وكان يعد العدة للتتويج فى روما [١] ، وشارل السابع ملك فرنسا بعد حرب المائة عام وجد منافساً أخطر فى قريبه فيليب الطيب دوق برجنديا وانجلترا لم يكن لديها أى استعداد للحرب وكذلك اسكتلندا واسكندنافيا ، وملك البرتغال لديه أعداء على حدوده . والوحيد الذى أبدى اهتماما هو ألفونسو الخامس ملك أرغونة الذى تولى عرش نابولى فى ١٤٤٣ [٢] ولكنه كان يطمع فى عرش القسطنطينية فأى جهد منه كان يستقبل فى القسطنطينية بالريبة والشك وارتفعت بعض الأصوات تهيب بالبابا وبملك فرنسا أن يتخذا إجراءاً فعالا قبل أن يكتسب السلطان الجديد خبرات ويكون قادراً على الحرب ، ففكرة الغرب عن السلطان الجديد أنه شاب حدث بلاتجربة، وفى تلك الأثناء مات البابا يوجنيوس الرابع وخلفه نيكولاس الخامس سنة ١٤٤٧ الذى كان ميالا للسلم متجنباً ما يورطه فى مشاكل خارجية، ومع ذلك فقد أرسل قسطنطين سنة ١٤٥١ مبعوثا إلى البابا هو أندرونيكوس برنيوس ومعه رسالتان وديتان أحدهما من الإمبراطور

Runicman : op. cit p. 46 (1)

جيبون : اضمحلال الإمبراطورية الرومانية ج ٣ ص ٣٤٤

Baker (james) Tarkyin; Europe p 20 (2)

والأخرى من الجماعة المعارضة للاتحاد تعلن موافقتها، ولكن هذا لم يأت بنتيجة إلا زيادة المعارضة لروما فى القسطنطينية [1].

ولكن الإمبراطور يعد مسئولا شخصيا عن سوء العلاقة بينه وبين الأتراك، فقد كان أحد الأمراء الكرمانيين وهو إبراهيم بك لديه نفس الاعتقاد الغربى فى عدم خبرة ومقدرة السلطان فتحالف مع إمارتى إيدين ومنتشا التى سبق للعثمانيين إخضاعهم فى خريف ١٤٥١، وأرسل للأمراء الذين عزلهم العثمانيون يطلب إليهم العود لتولى عروشهم بل اعتدى على الأراضى العثمانية اعتماداً على ضعف عيسى بك الحاكم العثمانى. وسارع إسحق باشا حاكم الأناضول بإرسال مبعوثين إلى السلطان يرجوه الحضور لقمع الفتنة وحضر السلطان بنفسه [2]، فسارع إبراهيم بك لطلب العفو منه وأعاد إسحق أراضى منتشا ولكن أثناء عودة السطان إلى أوربا ثار الانكشارية وطالبوه بزيادة مرتباتهم فاضطر إلى الاستجابة لمطالبهم وعزل بعض قادتهم وألحق بهم فرقا من القناصة يضمن ولاءها.

شجع هذا قسطنطين على أن يرسل للسلطان سفارة يذكره بأنه لم يدفع المبلغ المتفق عليه للانفاق على الأمير أورخان وليذكره أيضا بأن لديه مطالب فى عرش السلطنة. ولقد فوجىء هلال باشا بتلك البعثة لأنه يعلم أنها ستقضى على السياسة السلمية التى أوجدها مع بيزنطة إلى جانب أنها ستثير ريبة السلطان فى هلال باشا، وأجاب السلطان عليها باقتضاب بأنه سينظر بنفسه فى الأمر عندما يعود لعاصمته. ولم ينس محمد هذا المطلب الوقح أبداً، وبذلك أوجد له البيزنطيون المبرر لنقض قسمه ولفتح

---

(1) Runicman : op c t. p 64
Camb. H st. of, Islam Vol I p 299
(2) Baynes : op c t. 48
Kolias, Constantin Le dernier defenseur de Constantinople p.14

القسطنطينية . وكان السلطان محمد قد عزم على العودة عن طريق الدردنيل ولكن علم أن فرقة إيطالية تقوم بجولة استكشافية هناك فاتجه إلى البسفور وأبحر بجيشه من قلعة بايزيد إلى أنادولوهيسار فإن الأرض التي على الشاطىء البيزنطي تخضع لسلطان القسطنطينية ، ورفض محمد أن يحصل على إذن من الإمبراطور بالنزول إلى البر ورأى السلطان كم يكون مفيداً له لو أنه بنى قلعة في هذا الموقع في المضيق المضاد لأندلوهسار وكان يعتقد أن التحصينات البيزنطية القوية ستمنع اتصاله بالشاطئين الآسيوى والإغريقى.

وأمر محمد بطرد الإغريق من منطقة struma وإحضار العمال البنائين وبدأ واضحاً أنها الخطوة الأولى نحو حصار القسطنطينية وأرسل الإمبراطور سفارة إلى السلطان تذكره بأن السلطان بايزيد قد حصل على موافقة بيزنطية قبل أن يسمح له ببناء قلعة أندلوهيسار فالمعاهدة السابق عقدها مع آبائه وأجداده تنص على ألا يقوم أى من الطرفين ببناء قلاع في هذا المكان. وأن ما فعله السلطان محمد يعتبر نقضا للمعاهدة وأنه على استعداد للسماح له بنقل جيوشه بين الشاطىء الآسيوى والأوربى (١) ولكن لم تلق السفارة أذنا صاغية بل طردهم السلطان ، ورد الإمبراطور على هذا بالقبض على الرعايا الأتراك لديه ثم أرسل بعثة أخرى بهدايا تطلب ألا تتعرض القوى الإغريقية لأى ضرر ولم يوليها السلطان اهتماما ، وذكر Kritovoulos (٢) أن السلطان قال لهم بأن لديه ممتلكات على كلا الضفتين من الشاطىء الآسيوى والأوربى منفصلين وأن لديه أعداء في كلا الجانبين وأن سفن البندقية كانت تعترض سفن والده وتمنعه من الاتجاه إلى المجر وطلب منهم عدم التدخل

---

(١) جيبون : اضمحلال الإمبراطورية الرومانية جـ ٣ ص ٣١٤ .

(٢) Kritovoulos Hist, of Mehmed the Conqueror p. 17
كان المؤرخ شاهد عيان الأحداث .

فى شئونه الخاصة ثم أرسل قسطنطين بعثة أخرى كان مصيرها أسوأ من سابقاتها إذ وضع الرسل فى السجن ثم قطعت رؤوسهم .

وعرفت تلك القلعة للأتراك باسم بوغاز كسين وهى معروفة الآن بروميلى هيسار، وبعد إتمام بنائها أمر السلطان بأن كل سفينة تمر بالبسفور يجب أن تقف للتفتيش ومن يرفض يتعرض للغرق وبالفعل أغرقت ثلاث سفن للبندقية وكان على البندقية أن تحدد موقفها ، فالبندقية لها الربع فى القسطنطينية إلى جانب امتيازات عديدة . وكان البنادقة يرون أن استيلاء السلطان على القسطنطينية سيوجه نظره بعد ذلك إلى ولايات البندقية فى اليونان والبحر الإيجبى ، وإن كان هناك فريق آخر صغير يرى أن الاستيلاء على القسطنطينية سيزيد من مكاسبهم وتجارتهم مع العثمانيين ، ولكن سناتو البندقية صوت لصالح التعاون مع بيزنطة .(١) وكذلك فعلت جنوه وإن كانت جنوه قد أعطت لمستعمراتها حق أن تفعل ما تريد وما تراه صالحاً . وصدم البابا بالوضع الذى رآه فأمر الإمبراطور فرديرك الثالث أن يرسل حملة ضد السلطان، ولكن الإمبراطور لم يكن لديه القوة الكافية . أما ملك نابولى فقد كانت له أطماع فى القسطنطينية والكتلان الذين كانوا يتاجرون مع بيزنطة كانوا أتباعه ، ولكنه شغل بالحرب مع البنادقة .

إعلان الاتحاد فى القسطنطينية :

أرسل البابا الكردينال إيذدور الذى أصبح مرة ثانية مطران روسيا إلى القسطنطينية كمندوب بابوى لإعلان الاتحاد . وحدثت مناقشات دينية وظهر تأييد الاتحاد تحت تأثير فاعلية مساعدة الغرب وإن كان الحزب

(١) Ostrogorsky : op cit. p. 507

جيبون : اضمحلال الإمبراطورية الرومانية ج ٣ ص ٣٤٤

المعارض أصر على رفضه وأعلن عدم استعداده لبيع عقيدته فى مقابل مساعدات مشكوك فى أمرها . ولكن فى النهاية فى ١٢ ديسمبر سنة ١٤٥٢ أعلن الاتحاد فى كنيسة أيا صوفيا وأقيم قداس رومانى . ولكن الاتحاد استقبل برفض شعبي شديد وثار الشعب البيزنطى واعتبره تحديا لمشاعره الدينية حتى قال أحد كبار القادة « إنى أفضل أن أرى العمامة الإسلامية فى وسط المدينة على أن أرى تاج الأسقف اللاتينى »[١] .

وكانت أموال البابوية قد استنزفها حاكم نابولى ، ولم يكن تدخل الغرب لإنقاذ الإمبراطورية خالصاً ، وأغلب الحكام لم يكن هدفهم إنقاذ القسطنطينية بقدر معرفة الإجابة على السؤال المطروح آنذاك هل بيزنطة ستسقط فى أيدى الترك أم فى أيديهم ، أما بيزنطة نفسها فكان لها دور صغير فى تقرير الأحداث فصيرها تقرر بسبب أحداث حاسمة خارج نطاق سيطرتها وبدون تدخلها فكانت مجرد رهينة للقوى السياسية المختلفة .

الاستيلاء على القسطنطينية

خطة الحرب :

فى الشهور الأخيرة من سنة ١٤٥٢ كان محمد قــــد أعد الخطة النهائية للاستيلاء على القسطنطينية ولم يطلع عليها أحداً ، فوزيره هلال باشا لا يؤيد الحملة ، فى رأيه أنها مغامرة لا تؤمن عواقبها حيث أن هيبة آل عثمان مرتهنة بنجاحها أو فشلها . ولكن كان هناك فريق كبير من القادة يؤيد الحرب[٢] . مثل زاجنوس وطرخان وشهاب الدين ولما طارح السلطان الأمر أمامهم

---

(١) Ostrogorsky : op, cit, p 507

(٢) Kritovoulos : op. cit, p, 33,

(٣) Camb Hist, of islam Vol, I.p, 288

صوت المجلس بجانب الحرب وبدأ السلطان فى اتخاذ الخطوات الإيجابية نحو حصار القسطنطينية عن طريق عزل المدينة وقطع اتصالها بالمناطق المجاورة فأمر ضياء باشا بمهاجمة المدن البيزنطية على شاطىء تراقيا والبحر الأسود وسلمت مسبريا وأنجليوس وبيروس والمدينة التى كانت تبدى مقاومة كانت تتعرض للتخريب ، وأمر طرخان باشا بالاستقرار فى كورنثة لكى يمنع أشقاء الإمبراطور من مساعدته .

أولا : الحصــار :

بالنسبة لتوزيع القوات فى كلا الجانبين نجد أن القوة المدافعة كانت متواضعة جداً بالنسبة للقوة المهاجمة وكانت تتكون من فرق إغريقية وبعض فرق من اللاتين . والفرق الرئيسية فى الجند تتكون من سبعمائة جندى وكانت قد وصلت قبل الحصار بفترة قصيرة وكانت نسبة المدافعين إلى المهاجمين واحداً إلى عشرين ، وإن كان الإمبراطور يعتمد على حصانة المدينة وأسوارها التى حرص على إصلاحها فالموقع الجغرافى لبيزنطة كان له الفضل دائماً فى إنقاذها من عديد من الهجمات طوال تاريخها . إلى جانب ما كانت تتمتع به من تفوق فى الفنون الحربية على الأقاليم المجاورة ، ولكن المتغيرات الدولية واختلاف موازين القوى فى هذا العصر غير الأوضاع فالعثمانيون حصلوا على معدات حديثة ومدعمة بمدافع قوية وكانت أوربا قد استخدمت المدافع قبل هذا التاريخ بمائة عام فقط . ولقد صنع مهندس مجرى لمحمد مدافع ضخمة كان لها دورها فى سير القتال[١] حتى قال الإغريق « أن المدافع حسمت الأمر »[٢] فلم يكن لدى بيزنطة من المال والمعدات ما يجعلها نداً للعثمانيين .

---

(1) Heatsey : op. cit. p 239. kritovoulos : op. cit. p 42-43
(2) Runicman : op cit. p. 75

أما بالنسبة للجانب العثمانى فقد وضع محمد أعداداً ضخمة فى أبريل سنة ١٤٥٣ تحت أسوار القسطنطينية . ولما وجد السلطان أن سيطرته غير كاملة على البحر خاصة بعد أن بلغته أنباء تسلم بيزنطة لإمدادات بحرية . فلم تكن لديه قوة بحرية كافية للتصدى لهم إلى جانب اضطراره للاستعانة بسفن مسيحية للربط بين طرفى دولته الآسيوى والأوربى قرر أن ينشأ أسطولا . والمصادرة البيزنطية تبالغ فى عدده ، ولكن وفقا للمصادر الإيطالية فإنه كان يتكون من عشرة pirems وخمس سفن كبرى وسبعة وعشرين سفينة صغرى وعشرين ناقلة pucreb وعدد من القوارب لنقل الرسائل ، وعين حاكم جاليبولى سليمان بالطغولو قائد للأسطول (١) .

ولما تحقق قسطنطين من ضخامة القوات المحاصرة للمدينة فعل كل ما يستطيع لتشجيع أهل مدينة ، وأرسل سفراء للغرب فأرسل سفراء للبندقية التى أعلنت استعدادها للاشتراك لو انضمت لها قوى غربية أخرى ، وجنوة وعدت بإرسال سفن ، كذلك وعد الفونسو ملك نابلى بإرسال مؤن ولكنه كان مشغولا بأموره الداخلية ، وأخيراً قررت البندقية إرسال شاحنتين فى كل منهما أربعمائة رجل وخمسة عشرة سفينة وأصدرت تشريعاً بأن على التجار دفع نفقاتهم ولما وصل ذلك الإمداد كانت القسطنطينية قد مر على حصارها أربعة أيام .

أما البابا فقد طلب من البندقية إعداد خمس سفن ولكن طولب بما عليه من ديون فأعد ثلاث سفن ووعد بدفع نفقاتهم فوراً . لكن حكام الغرب لم يبد أى منهم اهتماما ما أما فرسان القديس يوحنا فى رودس ، وإمارة روسيا فقد كانوا مشغولين بمشاكلهم الخاصة .

---

(١) جيبون : اضمحلال الامبراطورية الرومانية ج ٣ ص ٣٤٩

وملك جورجيا وإمبراطور طرابزون كانا فى وضع يحتم عليهما الدفاع عن حدودهما وأمراء الأناضول المسيحيون لم يكونوا على استعداد للثورة وخوض غمار حرب . أما حاكم الصرب فانضم لمحمد وأرسل فرقا لمساعدته ولقد اشترك بعض البنادقة فى الحرب لوجودهم فى القسطنطينية أثناء نشوب القتال وكذلك شعر بعض الجنوية بالحرج من مسلك حكومتهم فسارعوا بالذهاب إلى القسطنطينية (١) .

وفى ٢٩ يناير ١٤٥٣ وصل القائد الجنوى المشهور جيستنيانى لويجى ومعه سبعمائة رجل وكان هو ورجاله أول المدافعين عن أسوار المدينة . وسعى الامبراطور للتوفيق بين الجنوية والبنادقة الذين كان بينهم خلاف واضح ، وانضم للمدافعين فرق من الكتلان . وفى ٢٦ فبراير وصلت سبع سفن من كريت والبندقية تحت قيادة بترو أفنزو وهو — أسطول صغير بمقارنته بأسطول السلطان ، وعرض الأمير أورخان العثمانى الاشتراك مع البيزنطيين فى القتال ، ولقد أمر الامبراطور وزيره بإحصاء عدد الصالحين للقتال فى القسطنطينية فوجدهم أربعة آلاف وتسعمائة وثمانية وثلاثين فقط من البيزنطيين وألفين من الأجانب .

وأمر الامبراطور أن تكسر الجسور وأن تغلق أبواب المدينة وأقام سد طويل عند مدخل ميناء القرن الذهبى مكون من حلقات تنتهى عند قلعة إيجونيوس عند الأكروبوليس . (٢) وكانت الأسوار تمتد من بلانشريه على القرن الذهبى إلى بحر مرمرة حيث هناك ميناءان حصينان

Runicman , op. cit. p. 63 (1)

Camb, Med. Hist. Vol 4, p.696

Kritovoulos , op. cit p. 42

(٢) ذكر Kritovoulos توزيع قوات السلطان وأماكن وجودهم حول القسطنطينية

Kritovoulos p 91

وستة عشرة بوابة إلى جانب أن أسوار المدينة فى حالة جيدة . وكان الامبراطور نفسه على رأس المدافعين فوقف على رأس قواته من الإغريق فى Mesoteichion حيث تمتد الأسوار إلى وادى Tyrus وقــد وزع الامبراطور جنوده فجعل كل فرقة مكونة من بنادقة مع الإغريق مع جنويين حتى لا تحدث خلافات داخلية .

أما فى الجانب المواجه فكان جيش محمد فى القرن الذهبى تحت أسوار المدينة ووضعت الفرق الرئيسية تحت قيادة كراجا باشا وقام بتسليحه ببنادق ثقيلة ، وإسحق باشا كان فى الأناضول ، والسلطان كان يسيطر على وادى لوكس ، أما الأسطول فتولى قيادته بالطغولو وكان هدفه الأساسى ألا يصل المدينة أى إمداد من جهة البحر وأن يجد له خلال القرن الذهبى طريقا ، وجعل مركز قيادته فى البسفور . وبدأ السلطان فى ضرب المدينة بالمدافع فى ٧ إبريل وكان الهجوم التركى على أسوار المدينة مركزا ضد بوابة penepton خاصة والتى اعتقد الأتراك أنها أضعف جانب فى أسوار القسطنطينية ودمروا جزء من سور شيرزين (١) .

ورغم ذلك أرسل السلطان إلى المدينة رسالة يطالب فيها أهلها بالتسليم مقابل تأمينهم على أنفسهم وممتلكاتهم ولكن الامبراطور وأهل القسطنطينية لم يثقوا بوعود محمد ولا تأكيداته وهاجم السلطان قلعتين خارج الأسوار ومثل بسكانها الذين أبوا الاستسلام (٢) .

أما الموقف بالنسبة للقطاع البحرى فقد كان المسيحيون فى وضع أفضل ففى ١٢ أبريل وبمجرد وصول أدوات الحصار اتجه بالطغولو إلى السلاسل التى تغلق الميناء وأطلق العثمانيون سهامهم على السفن المسيحية التى تحرسه

---

(١) جيبون : اضمحلال الامبراطورية الرومانية جـ ٣ ص ٣٥٠ / ٣٥١

(٢) Phrabtzes; Chronicon Maius , Vol I p210

وقام ماجادوكس لوكاس بمساعدة القوات المدافعة بالفعل واستطاعت القوات الإمبراطورية صد الهجوم واضطر بالطغولو إلى التراجع ، وهذا النصر رفع الروح المعنوية للمدافعين . ودفع محمد الثانى لمعالجة النقص والبحث عن سبب الهزيمة فنقل مدافعه إلى غلطة وبدأ فى الضرب على السفن فى Boom وفشل الهجوم الأول[١]، والثانى أغرق بعض السفن . وفى خلال الأسبوعين الأولين من أبريل وصلت إلى خيوس الثلاث سفن الجنوية التى كان البابا قد أعدها بالمؤن والسلاح ، وفى نفس الوقت دفعت الريح بسفينة أمبراطورية تحمل مؤن كان الأمبراطور قد طلبها من صقلية تجاه العثمانيين . واستطاعت ثلاث سفن أخرى الوصول إلى المدينة رغم اشتباكها فى قتال عنيف مع قوات بالطغولو ولقد أمر السلطان بتجريد قائد الأسطول من وظائفه وأملاكه نتيجة لفشل تلك العملية[٢] .

وفكر السلطان فى البداية فى الاستيلاء على القرن الذهبى ثم قرر نقل قواته وسفنه عبر الأرض إلى القرن الذهبى بناء على إشارة بعض من فى خدمته من الإيطاليين عن طريق نقل السفن من البسفور إلى القرن الذهبى عبر ربوة ترتفع عن البحر مائة قـــدم ، ولكن بفضل مالديه من رجال ومعدات شق طريق Topnaneis إلى الوادى المسمى بالوادى السعيد فى القرن الذهبى ولم يعرف أهل بيريه ولا البحارة الذين رأوا الأتراك يعملون فيه الهدف منه ، وفى ٢١ إبريل أمر جنوده بالضرب على الميناء حتى أخفى دخان المدافع ما يقوم به[٣] . وفى ٢٢ إبريل رفعت السفن من البحر إلى الشاطىء بواسطة أوتاد جرتها الثيران إلى الجانب الآخر من البحر وكان فى كل قارب بحارته ، ومقاتلوه وفوجىء البحارة المسيحيون فى القرن الذهبى

---

(1) Hearsey . op. cit. op 238-240

(2) Kritovoulos . op. cit. p 53

(3) Runicman' op. cit p 105

بتحركات العثمانيين على التلال فأبلغوا الامبراطور . فقرر بعد عقد مجلس حرب أن يقوم الجيش الإمبراطورى بإحراق السفن عند وصولها إلى وادى الربيع ولم يعلموا جنوه بهذا التدبير ، ولكن تسرب الخبر إلى عدد من بحارتها فخافوا أن يكون نجاح خطة الامبراطور تدعيما لمركز البندقية .

ووصلت الأخبار إلى السلطان عن طريق بعض الجنوية الذين فى خدمته ولم يعلم الامبراطور بتسرب أنباء خططه. نتيجة لذلك حدثت معركة بحرية هزم فيها المسيحيون وقتل قائد العملية coco وفقدوا سفينة وتسعين من أفضل رجالهم ، وتحطمت سفينة تركية وسيطر الأتراك على مركز جديد فى بريه وأحاطوا بها ، ولم يعد فى إمكان التجار نقل البضائع من الميناء إلى القسطنطينية . وقام محمد بحركة التفاف وتطويق عن طريق اتصاله بجيش زاجنوس خلف بيريه ورئاسة البحرية فى البسفور واستطاع بناء قنطرة من الميناء إلى أسوار المدينة ، وأقام جسرا عائما من الممكن أن يسير عليه إثنان من رجاله جنباً إلى جنب وأصبح من السهل أن تسير الفرق من بيريه إلى أسوار المدينة تحت حماية السلاح [١] . ورغم وجود عدد من السفن المسيحية فى poom إلا أن السلطان هو الذى كانت له السيطرة فى القرن الذهبى ولم يتبع السلطان انتصاره بمحاولة اقتحام المدينة : وأرسل الامبراطور أحد الرجال لطلب المساعدة من البندقية التى أرسلت أسطولا كان هدفه الأساسى التفاوض ومحاولة التوفيق بين الامبراطور والسلطان [٢] .

ونشب الخلاف بين الجنوية والبنادقة فكل فريق حمل الآخر سبب هزيمته وفى ٢٨ إبريل حاول الامبراطور التوفيق بينهما وأرسل رسلا

---

(١) جيبون : اضمحلال الامبراطورية الرومانية ج ٣ ص ٣٥٢ .

(٢) بلغت السلطان أن مجموعة من السفن وصلت من جنوه مما دفعه للإسراع باتخاذ الخطوات النهائية للاستيلاء على المدينة .

Kritovoulos . op. cit. p. 61 — Phrantzes , op. cit. I,p240

إلى السلطان للتفاوض ولكن السلطان أصر على تسليم المدينة فى مقابل تأمين أهلها والسماح للأمبراطور البيزنطى بالتراجع إلى المورة ، ولكن الأمبراطور رفض وقرر الاستمرار فى المقاومة .

وفى ٦ يناير ١٤٥٣ بدأ العثمانيون يعدون للهجوم الكبير على القسطنطينية فهاجموها من جانب البحر ثم تلوا ذلك بالحفر تحت الأسوار ، ولكن تلك المحاولات باءت بالفشل ، ولكنهم فى ١٢ إبريل عادوا إلى الحفر فى الجزء القريب من بوابة Calyarian . وفى ١٨ مايو فوجىء المدافعون بأبراج خارج الأسوار تحمل مدافع ضخمة ، ولكن المدافعين استطاعوا تدميرها وهذا النجاح المبدئى رفع الروح المعنوية للجنود . وجدد العثمانيون عملية الحفر تحت أسوار بلاشرينه ولكنهم فشلوا فأوقفوا الحفر . وفى تلك الأثناء عادت السفن التى أرسلها الأمبراطور إلى الغرب وأخبرته أن لا أمل فى المساعدة وأن المدينة ترك أمر حمايتها للمسيح والعذراء ، ومع ذلك فقد استمرت المدينة فى المقاومة سبعة أسابيع .

وأرسل السلطان مبعوثا إلى القسطنطينية يطالب بجزية سنوية مقدارها مائة ألف بيزنت إذا أراد أهلها الخروج سالمين ، وفى مجلس الامبراطور أبدى البعض قبولهم لدفع الجزية لكسب الوقت ، ولكن الجميع كانوا يعلمون بوضوح أنه مبلغ كبير يعجزون عن دفعه فضلا على أن السلطان لن يقنع بالانتظار الوقت الكافى لجمعه بل سيستمر فى حصار المدينة . وقيل إن السلطان خيرهم بين أمرين : اعتناق الإسلام أو الاستيلاء على المدينة بالسيف .

ثانيا : الهجوم :

حدثت تلك المفاوضات يوم ٢٠ مايو وفى نفس اليوم عقد السلطان

مجلسا لمناقشة الهجوم الكبير ولم يعارض إلا هـــلال باشا الذى اتهمه معارضوه بأنه يتسلم هدايا من البيزنطيين . وفى ٢٧ مايو ركب السلطان مع جيشه وكان هذا إيذانا بالهجوم الكبير وأعلن أن المدينة ستستباح خلال ثلاث أيام بعد الاستيلاء عليها وأن ثروة المدينة ستوزع بين جنوده (١) . واستدعى حمزة بك وأسطوله وأمره بالإحاطة بالمدينة عبر بحر مرمرة . ودعا السلطان وزراءه وقادته إلى خيمته وذكرهم بحالة المدينة وما تحويه من ثروات وأنباهم بأن تحصينات المدينة قوية وأن العدو عدده قليل وأن لديه نقص فى السلاح وذكر أن الإيطاليين ليسوا على استعداد للتضحية بأرواحهم من أجل أرض لا تخصهم وأنهم منقسمون على أنفسهم وأنه سيرسل رجاله موجة إثر موجة للقضاء عليهم وأمر رجاله بالشجاعة والمحافظة على النظام وأن يذهبوا لخيامهم ويستعدوا لتلبية النداء ، وبقى القادة معه ليتسلموا الأوامر .

وفى نفس الوقت فى الجانب المقابل جمع الامبراطور رجاله وقال لهم « أن على الإنسان أن يكون مستعداً للحرب من أجل عقيدته وذكرهم بأنهم ينحدرون من نسل الإغريق والرومان القدماء وأنه شخصيا لم ييأس وسيقاتل من أجل عقيدته وطلب منهم التعاون مع بعضهم البعض وأن يسامحه من أساء إليه وعانق جنوده بعضهم البعض دلالة على التماسك والأخوة »(٢) .

وفى ٢٩ مايو قرر محمد القيام بهجوم شامل ، وبدأ الهجوم فى الساعات الأولى من الصباح من ثلاث جهات ووضع السلطان الباش بازوك فى المقدمة وكانت مكونة من أتراك وعناصر من أقاليم مختلفة وكان هناك

---

(١) زاد عدد كبير من الدراويش الحيام لفرس الرغبة فى الاستشهاد ووعد بحياة شباب دائم فى الجنة . جيبون : اضمحلال الأمبراطورية الرومانية جـ ٣ ص ٣٥٦

(٢) Kritovoulos op cit p 66

عدة آلاف منهم من أقطار مسيحية سلاف مجر وجرمان وألمان وإيطاليين. مستعدين لقتال أهلهم فى مقابل أجر يدفعه السلطان وكان محمد يخشى من تراجعهم فجعل وراءهم قوة عسكرية بوليسية مزودة بسيور الجلد والهراوات لحثهم على القتال ، ووراء تلك القوة كان الانكشارية وكان لديهم أوامر أن أى جندى يبغى التراجع يقتل واندفعوا على طول الخطوط ولكن ضغطهم المركز كان على وادلوكوس لأن الأسوار ما زالت قوية . وسقطت على الباش بازوك الأحجار وتلقوا الصدمة الأولى وقتل الإغريق منهم أعداداً كبيرة وقدم الإمبراطور بنفسه فشجع رجاله واضطر الأتراك للتراجع

وكان البيزنطيون يأملون بأن ينعموا بفترة راحة إلى المساء ولكن عاود الأتراك الهجوم بقيادة جيش الأناضول الذى يقوده إسحق باشا وكان رجاله مدربين خير تدريب ومجهزين بأحدث الأسلحة ، ومع الفجر أطلقت قذائف المدفعية فأوجدت ثغرة نفذ منها ثلاث مائة رجل ولكن استطاع الامبراطور ورجاله القضاء عليهم ، ولم يحقق الأتراك نجاحا فى القطاعات الأخرى على طول الأسوار الجنوبية وكل ما فعله اسحق باشا ممارسة نوع من الضغط لمنع المسيحيين من تحريك قواتهم إلى وادى لوكوس . ووجد حمزة بك على طول بحر مرمرة صعوبة فى الاقتراب بسفنه من الشاطىء وتولى الدفاع الرهبان وجنود الأمير أورخان العثمانى الذى كان منضما للبيزنطيين وحول قطاع البلانشيرنه كان القتال بضراوة بين جيوش زاجنوس والبنادقة .

ولقد غضب السلطان أشد الغضب لفشل جنوده الأناضوليين فى اقتحام المدينة فوعد بجائزة كبرى لمن يخترق الحصار [١]، وكان يرجو أن

(١) جيبون : اضمحلال الأمبراطورية الرومانية وسقوطها ص ٣٥٦ .

يقوم بذلك جنوده المفضلون وهم الانكشارية وقبل أن يقوم جنود الأمبراطور بإصلاح أسوارهم انهالت عليهم السهام والقنابل ، ومع ذلك لم يستطع الترك الدخول مما أعطى أملا للمدافعين . وكان البيزنطيون يقاتلون قتالا يائسا لأن انتصار الترك يعنى نهاية وجودهم [١] وكان فى جانب أسوار بلانشيريه عند التقائها بأسوار ثيودسيوس المزدوجة برج فى بوابة هجوم معروفة باسم كركبورتا وكانت فرق من البيزنطيين تتولى الدفاع عن هذا المكان . وفى البداية أرادوا اقتحام صفوف الأعداء ولكن الآن اكتفوا بصد الهجوم على بوابتهم ولقد نسى أحدهم إغلاق البوابة خلفه عند تراجعه ورأى بعض الأتراك هذه الفتحة فنفذوا منها إلى الداخل وسارع المدافعون بسد الثغرة ومنع بقية الأتراك من الدخول بعد أن كان قد دخل حوالى خمسون تركيا ، وقبل شروق الشمس كان جيستنيانى قد جرح ورجا رجاله أن يحملوه للداخل ولاحظت إحدى الفرق خروجه فظن البعض أن الأتراك نجحوا فى اقتحام الأسوار وأنه تراجع إلى داخل المدينة ، والغالبية اعتقدت أن المعركة انتهت وأنهم قد هزموا وقبل أن تغلق البوابة خلف جيستنيانى سارع الجنوية بالهروب وتركوا الأمبراطور وجنوده وحدهم [٢] .

ولاحظ السلطان من موقعه ما حدث فصاح فى جنوده أن المدينة أصبحت لنا نحن وأمر الانكشارية بتسلق الأسوار بقيادة أحد ضباطهم ويسمى حسن لكنه قتل وعدد من جنوده ولكن مع ازدياد ضغط الانكشارية تراجع الإغريق إلى السور الداخلى وتسلق الانكشارية بعض الأسوار الداخلية بدون معارضة ورفعت أعلام الترك على قلعة

---

(١) Kritovoulos . op. cit. p. 76

(٢) جيبون : اضمحلال الأمبراطورية الرومانية وسقوطها جـ ٣ ص ٣٦٠

Kerkoporta . وكان الإمبراطور مع جستنيانى حين بلغه أنباء دخول الترك Kerkoporta فسارع إلى رجاله فوصل متأخراً وأصبح من الصعب إغلاق البوابة فقد كان الهجوم شديداً وظل الأمبراطور يقاتل وبجانبه دون فرانشيسكو وحنا دلماتا ولم يسمع بأمره بعد ذلك أحد ، ومن المؤكد أنه قتل أثناء دفاعه عن المدينة (١) .

وأصبحت المدينة فى أيدى الأتراك وارتفعت الأعلام التركية على أسوار القسطنطينية وكانت هناك بعض قوات من الجنوية تدافع بالقرب من كيركبورتا، فلما تحقق من الهزيمة سارعت بشق طريقها خلال صفوف الأتراك إلى القرن الذهبى ، وآخر ثلاث قلاع كانت بأيدى الكريتين قرب مدخل القرن الذهبى سلمت للسلطان مقابل تأمينهم على أرواحهم وأولادهم ودخل السلطان المدينة المفتوحة وأباحها لجنوده لمدة ثلاث أيام وانتشر جنوده فى المدينة يسلبون وينهبون ويقتلون من يصادفهم ؛ ودمروا كثيراً من الأبنية . بل وجد السلطان أحدهم يحاول نزع لوحات من كنيسة أيا صوفيا فأمر بعدم تعرض جنوده للمبانى البيزنطية أو تدميرها (٢) وإن كان قد حول الكنيسة إلى مسجد إسلامى .

أما بالنسبة لمن أسر من القادة والزعماء البيزنطيين فإنه قد عفى عن وزراء الأمبراطور لوكاس وماجدكوس ، أما العسكريين فقد ظلوا فى الأسر . وابتهاجا بانتصاره أرسل السلطان ألف وأربعمائة من الإغريق هدايا لحكام المسلمين آنذاك فى مصر وتونس وغرناطة (٣) .

---

(١) Runicman. op. cit p 106

Kritovoulos. op cit p 70

Camb Med. Hist. Vol. Ip. 697

Hussey , op. cit. p83

(٢) جيبون : اضمحلال الامبراطورية ج ٣ ص ٣٦٨

(٣) ابن إياس : بدائع الزهور فى وقائع الدهور ج ٢ ص ١٤٤

وجعل السلطان من مدينة قسطنطين العظيم عاصمة له لأنها تربط بين أراضيه الأوربية والآسيوية وتبع ذلك استيلاء العثمانيين على بقايا الممتلكات اللاتينية والسلافية فى البلقان فسيطروا على الصرب ١٤٥٩ واستولوا على المورة ١٤٦١ وعلى بوسنا فى ١٤٦٣ وقبل نهاية القرن احتلوا بقايا مقاطعات السلاف والألبان فى الأدرياتيك . وبذلك اختفت بيزنطة إلى الأبد وقامت على أنقاضها إمبراطورية جديدة ولكن إسلامية فى الأراضى التى تمتد من نهر العاصى إلى الأدرياتيك [١] .

ورغم سقوط بيزنطة فى ١٤٥٣ فإن روحها ظلت حية فى عقيدتها وفى فنونها وفى أدبائها وظل تأثيرها لا على الأراضى التى كانت خاضعة لها فقط بل كان لها تأثيرها القوى على الغرب الأوربى بأجمعه فعصر النهضات الأوربية استمد حضارته من المنابع القديمة وأهمها المنبع اليونانى، فالقانون والآداب والفلسفة تدين بالكثير لبيزنطة ، وأصبحت الكنيسة الأرثوذكسية المحافظ الوحيد على الحضارة والعقيدة لشعوب السلاف والإغريق فبيزنطة كانت قاعدة الهلينية والأرثوذكسية .

(انتهى)

---

(1) Ostrogorsky , op. cit. p. 508
Camb, Hist. of Islam Vol. I. p. 291
Baker ; op. cit. p. 28
Camb Med. Hist. Vol. 4. p. 698

الجداول ـ الملاحق ـ الفهارس

١ – جداول الحكام

٢ – نصوص اسلامية

٣ – نصوص غربية وبيزنطية

٤ – الفهارس

أباطرة بيزنطة

الإمبراطور	المدة
قسطنطين الاول	٣٢٤ — ٣٣٧
قسطنطيوس	٣٣٧ — ٣٦١
جوليان	٣٦١ — ٣٦٣
جوفيان	٣٦٣ — ٣٦٤
فالنز	٣٦٤ — ٣٧٨
ثيودسيوس الاول	٣٧٩ — ٣٩٥
أركاديوس	٣٩٥ — ٤٠٨
ثيودسيوس الثانى	٤٠٨ — ٤٥٠
مارقيان	٤٥٠ — ٤٥٧
ليو الاول	٤٥٧ — ٤٧٤
ليو الثانى	٤٧٤
زينون	٤٧٤ — ٤٧٥
باسليوكس	٤٧٥ — ٤٧٦
زينون ثانية	٤٧٦ — ٤٩١
أنستاسيوس الاول	٤٩١ — ٥١٨
جستين الاول	٥١٨ — ٥٢٧
جستنيان الاول	٥٢٧ — ٥٦٥
جستين الثانى	٥٦٥ — ٥٧٨
تيبريوس الاول	٥٧٨ — ٥٨٢
موريس	٥٨٢ — ٦٠٢
فوكاس	٦٠٢ — ٦١٠
هرقل	٦١٠ — ٦٤١
قسطنطين الثالث	٦٤١
وهرقليانوس	

الإمبراطور	المدة
هرقليانوس	٦٤١
قنسطانز الثانى	٦٤١ — ٦٦٨
قسطنطين الرابع	٦٦٨ — ٦٨٥
جستنيان الثانى	٦٨٥ — ٦٩٥
لينتيوس	٦٩٥ — ٦٩٨
تيبريوس الثانى	٦٩٨ — ٧٠٥
جستنيان الثانى ثانية	٧٠٥ — ٧١١
فليبكوس	٧١١ — ٧١٣
انستاسيوس الثانى	٧١٣ — ٧١٥
ثيودسيوس الثالث	٧١٥ — ٧١٧
ليو الثالث	٧١٧ — ٧٤١
قسطنطين الخامس	٧٤١ — ٧٧٥
ليو الرابع	٧٧٥ — ٧٨٠
قسطنطين السادس	٧٨٠ — ٧٩٧
ايرين	٧٩٧ — ٨٠٢
نقفور الاول	٨٠٢ — ٨١١
ستاوريكوس	٨١١
ميخائيل الاول	٨١١ — ٨١٣
ليو الخامس	٨١٣ — ٨٢٠
ميخائيل الثانى	٨٢٠ — ٨٢٩
ثيوفيل	٨٢٩ — ٨٤٢
ميخائيل الثالث	٨٤٢ — ٨٦٧
باسيل الاول	٨٦٧ — ٨٨٦
ليو الرابع	٨٨٦ — ٩٢١

الكسندر ٩١٢—٩١٣
قسطنطين السابع ٩١٣—٩٥٩
رومانوس الأول ٩٢٠—٩٤٤
رومانوس الثاني ٩٥٩—٩٦٣
نقفور الثاني ٩٦٣—٩٦٩
حنا زمكيس ٩٦٩—٩٧٦
باسيل الثاني ٩٧٦—١٠٢٥
قسطنطين الثامن ١٠٢٥ — ١٠٢٨
رومانوس الثالث ١٠٢٧—١٩٣٤
ميخائيل الرابع ١٠٣٤—١٠٤١
ميخائيل الخامس ١٠٤١ — ١٠٤٢
زوى ثيودورا ١٠٤٢
قسطنطين التاسع ١٠٤٢—١٠٥٥
ثيودورا ثانية ١٠٥٥—١٠٥٦
ميخائيل السادس ١٠٥٦—١٠٥٧
اسحاق الأول
كومنين ١٠٥٧—١٠٥٩
قسطنطين العاشر
دوكاس ١٠٥٩ — ١٠٦٧
رومانوس الرابع
ديوجنس ١٠٦٧ — ١٠٧١
ميخائيل السابع
دوكاس ١٠٧١ ١٠٧٨
نقفور الثالث
بوتنياتوس ١٠٧٨—١٠٨١
الكسيوس الأول
كومنين ١٠٨١—١١١٨

حنا الثاني كومنين ١١١٨—١١٤٣
مانويل الأول
كومنين ١١٤٣—١١٨٠
الكسيوس الثاني ١١٨٠—١١٨٢
اندرونيكوس
الأول ١١٧٣ — ١١٨٥
اسحاق الأول
انجليوس ١١٨٥—١١٩٥
الكسيوس الثالث ١١٩٥—١٢٠٣
اسحاق الثاني ثانية مع
الكسيوس الرابع ١٢٠٣ — ١٢٠٤
الكسيوس الخامس ١٢٠٤
ثيودور الأول
لاسكاريس ١٢٠٤—١٢٢١
حنا الثالث دوكاس ١٢٢٢ — ١٢٥٤
ثيودور الثاني
لاسكاريس ١٢٥٤—١٢٥٧
حنا الرابع ١٢٥٨ — ١٢٦١
ميخائيل الثامن
باليولوجس ١٢٥٩—١٢٨٢
اندرونيكوس
الثاني ١٢٨٢ — ١٣٢٨
اندرونيكوس
الثالث ١٣٢٨—١٣٤١
حنا الخامس ١٣٤١ — ١٣٩١
حنا السادس
كنتاكوزينوس ١٣٤٧ — ١٣٥٤

أندرونيكوس الرابع	١٢٧٦ - ١٣٧٩	حنا الثامن	١٤٢٥ — ١٤٤٨
حنا السابع	١٢٧٩ - ١٣٩٠	قسطنطين	١٤٤٩ — ١٤٥٣
مانويل الثانى	١٢٩١ - ١٤٢٥	الحادى عشر	

السلاجقة

سلاطين السلاجقة الأوائل

طغرل بك	١٠٣٧ — ١٠٦٣	بركيارورق بن	
ألب أرسلان	١٠٦٣ — ١٠٧٢	ملكشاه	١٠٩٤ — ١١٠٤
ملكشاه بن		محمد بن ملكشاه	١١٠٤ — ١١١٨
ألب أرسلان	١٠٧٢ — ١٠٩١	أحمد سنجر	
محمود بن ملكشاه	١٠٩٢ — ١٠٩٤	ابن ملكشاه	١٠٩٦ — ١١٥٧

سلاجقة العراق

محمود بن محمد		محمد بن محمود	١١٥٣ — ١١٥٩
ابن ملكشاه	١١١٨ - ١١٣١	سليمان شاه بن محمد	١١٥٩ — ١١٦١
داود بن محمود	١١٣١	أرسلان شاه	١١٦١ — ١١٧٧
طغرل الأول ابن محمد	١١٣٢ — ١١٣٣	ابن طغرل	
مسعود بن محمد	١١٣٣ — ١١٥٢	طغرل الثانى	١١٧٧ — ١١٩٤
ملكشاه بن محمود	١١٥٢	ابن أرسلان شاه	

سلاجقة الشام

تتش بن ألب أرسلان	١٠٩٤	ألب أرسلان	
رضوان بن تتش		ابن رضوان حلب	١١١٣ — ١١١٤
بحلب	١٠٩٥ — ١١١٣	سلطان شاه	
دقاق بن تتش		ابن رضوان بحلب	١١١٤ — ١١١٧
(بدمشق)	١٠٩٥ — ١١١٣		

سلطنة سلاجقة الروم

سليمان الاول	١٠٧٧ - ١٠٨٦
قلج أرسلان الاول	١٠٩٢ — ١١٠٧
ملك شاه	١١٠٧ — ١١١٦
مسعود الاول	١١١٦ — ١١٥٦
قلج أرسلان الثانى	١١٥٦ — ١١٩٢
كيخسرو الاول	١١٩٢ — ١١٩٦
سليمان الثانى	١١٩٦ — ١٢٠٤
قلج أرسلان الثالث	١٢٠٤
كيخسرو الاول ثانية	١٢٠٤ — ١٢١٠
كيكاوس الاول	١٢١٠ — ١٢٢٠
كيقباذ الاول	١٢٢٠ — ١٠٣٧
كيخسرو الثانى	١٢٣٧ — ١٢٤٥
كيكاوس الثانى	١٢٤٥ — ١٢٥٧
قلج أرسلان الرابع	١٢٤٨ — ١٢٦٥
كيقباذ الثانى	١٢٤٩ — ١٢٥٧
كيخسرو الثالث	١٢٦٥ — ١٢٨٢
مسعود الثانى	١٢٨٢ — ١٣٠٤
كيقباذ الثالث	١٢٨٤ — ١٣٠٧
مسعود الثالث	١٣٠٧ — ١٣٠٨

سلاطين آل عثمان لسقوط القسطنطينية

عثمان	١٢٨٨ — ١٣٢٦
أورخان	١٣٢٦ — ١٣٦٢
مراد الاول	١٣٦٢ — ١٣٨٩
بايزيد الاول	١٣٨٩ — ١٤٠٢
محمد الاول	١٤٠٢ — ١٤٢١
(من ١٤١٢ حاكما منفردا)	
سليمان	١٤٠٢ — ١٤١٠
موسى	١٤١٢ — ١٤١٣
مراد الثانى	١٤٢١ - ١٤٥١
محمد الثانى الفاتح	١٤٥١ — ١٤٨١

أباطرة اللاتين فى القسطنطينية

بلدوين الأول		بولاند	١٢١٧ — ١٢١٩
فلاندرز	١٢٠٤ — ١٢٠٥	روبرت كورتناى	١٢٢١ — ١٢٢٨
هنرى فلاندرز	١٢٠٦ — ١٢١٦	بلدوين الثانى	١٢٢٧ — ١٢٦١
بيتر كورتناى	١٢١٧	حنا برين	١٢٣١ — ١٢٣٧

إمارة إبيروس

ميخائيل الأول	١٢٠٤ — ١٢١٥
ثيودرر	١٢١٥ — ١٢٢٤
دخل سالونيكا وأقام امبراطورية فى سالونيكا	١٢٢٤
ثيودور	١٢٢٤ — ١٢٣٠
مانويل	١٢٣٠ — ١٢٤٠
حنا	١٢٤٠ — ١٢٤٤
ديمتريوس	١٢٤٤ — ١٢٤٦

(هزمه سنة ١٢٤٦ حنا حاكم نيقية)

قادة ابيروس :

ميخائيل الثانى	١٢٣٧ — ١٢٧١
نقفور الأول	١٢٧١ — ١٢٩٦
توماس	١٢٩٦ — ١٣١٨

(أنا باليولوجس كنتا كوزينوس حكما ١٣٢٣)

نيقولاى أورسينى	١٣١٨ — ١٣٢٣
حنا أورسينى	١٣١٣ — ١٣٥٥
نقفور الثانى	١٣٣٥ — ١٣٤٠

(١٣٤٠ هزمته بيزنطة و١٣٤٨ ستيفن داسان

حكام البلغار

الامبراطورية البلغارية الأولى

أسباروخ	٦٨٠ — ٧٠١	تليتز	٧٦٢ — ٧٦٤
تريفيل	٧٠١ — ٧١٨	سابين	٧٦٤ — ٧٦٦
غير معروف	٧١٨ — ٧٢٤	أومير ، توكتو	٧٦٦
سيفار	٧٢٤ — ٧٣٩	باجان	٧٧٦ — ٧٧٠
كورميوث	٧٣٩ — ٧٥٦	تليرج	٧٧٠ — ٧٧٧
فينش	٧٥٦ — ٧٦٢	كاردام	٧٧٧ — ٨٠٣

كروم	٨٠٢—٨١٤
دوكوم	٨١٤
أومورتاج	٨١٤—٨٣١
ملومير	٨٣١—٨٣٦
برسام	٨٣٨—٨٥٢
بوريس الاول	٨٥٢—٨٨٩
فلاديمير	٨٨٩—٨٩٣
سيمون	٨٩٣—٩٢٧
بيتر	٩٢٧—٩٦٩
بوريس الثانى	٩٦٩—٩٧٢

الامبراطورية المقدونية

صامويل	٩٧٦—١٠١٤
جابريل دادومير	١٠١٥—١٠١٥
حنا فلادسلاف	١٠١٥—١٠١٨

مملكة البلغار الثانية

آسن الاول	١١٨٧—١١٩٦
بيتر	١١٩٦—١١٩٧
كالوجان	١١٩٧—١٢٠٧
يوربل	١٢٠٧—١٢١٨
إيفان أسن الثانى	١٢١٨—١٢٤١
كولومان أسن	١٢٤١—١٢٤٦
ميخائيل أسن	١٢٤٦—١٢٥٧
قسطنطين	١٢٥٧—١٢٧٧
إيفاجلو	١٢٧٨—١٢٧٩
إيفان أسن الثالث	١٢٧٩—١٢٨٠
جورج الاول	١٢٨٠—١٢٩٢
سيملتز	١٢٩٢—١٢٩٨
جكا	١٣٠٠
ثيودورسفوتسلاف	١٣٠٠—١٣٢٢
جورج الثانى	١٣٢٢—١٣٢٣
ميخائيل ششمن	١٣٢٣—١٣٣٠
إيفان ستيفن	١٣٣٠—١٣٣١
إيفان الكسندر	١٣٣١—١٣٧١
إيفان ششمن	١٣٧١—١٣٩٣

الصرب

منتصف القرن التاسع حنا فلاستيمير	
موتيمير	٨٩١
بروفلاف	٨٩١—٨٩٢
بيتر جوشنكوفيك	٨٩٢—٩١٧

بول بروتفيشي	٩١٧ — ٩٢٠	ستيفان اروس الأول	١٢٤٢ — ١٢٧٦
زاخرياس		ستيفان دارجنون	١٢٧٦ — ١٢٨٢
بروفلاجفتش	٩٢٧ — ٩٥٠	ستيفان اروس	
بـــلاف		الثانى	١٢٨٢ — ١٣٢١
كلونيميروفيتش	٩٢٧ — ٩٥٠	ستيفان اروس	
حنا فلاديمير	١٠١٦	الثالث	١٣٢١ — ١٣٣١
من نهاية القرن العاشر		ستيفان دوسان	١٣٣١ — ١٣٥٥
ستيفان فوسلاف	١٠٤٠ — ١٠٥٢	(كاذار من ١٣٤٥)	
ميخائيل	١٠٥٢ — ١٠٧١	كاذار	١٣٥٥ — ١٣٦٦
قسطنطين بودين	١٠٨١ — ١١٠١	الملك فوكسين	١٣٦٦ — ١٣٧١
فوكان	١٠٧٣ — ١١١٤	ستيفان لاذار	١٣٨٩ — ١٤٢٧
ستيفان نيمنجا	١١٦٧ — ١١٩٦	جورج برانكوفيتش	١٤٢٧ — ١٤٥٦
ستيفان	١١٩٦ — ١٢٢٨	لاذار برانكوفيتش	١٤٥٦ — ١٤٥٨
ستيفان رودسلاف	١٢٢٨ — ١٢٣٣		

أمراء ارمينية

روبان الأول	١٠٩٠	هيثوم الثانى	١٢٨٩ — ١٢٩٢
قسطنطين الأول	١١٠٠	ثوروس الثالث	١٢٩٣ — ١٢٩٤
ثوروس الأول	١١٠٠ — ١١٢٩	هيثوم الثانى ثانية	١٢٩٤ — ١٢٩٦
ليون الأول	١١٢٩ — ١١٣٦	سمباد	١٢٩٧ — ١٢٩٨
ثوروس الثانى	١١٤٤ — ١١٦٧	قسطنطين الأول	١٢٩٩ — ١٣٠٥
روبان الثانى	١١٧٠	هيثوم الثانى	
مليح	١١٧٠ — ١١٧٥	للمرة الثالثة	١٢٩٩ - ١٣٠٥
ليون الثانى	١١٨٧ — ١٢١٩	ليون الرابع	١٣٠٥ — ١٣٠٨
هيثوم الأول	١٢٢٦ — ١٢٦٩	أوشين	١٣٠٨ — ١٣٢٠
ليون الثالث	١٢٧٠ — ١٢٨٩		

ملحق ١

قلج أرسلان الثانى والحملة الصليبية الثالثة

وصل من الكايغكوس وهو مقدم الأرمن وهو صاحب قلعة الروم (١) رسالة إلى صلاح الدين ينبئه بما تم بين السلاجقة وفردريك بربروسبا والامبراطور البيزنطى أنجليوس (٢).

« كتاب الداعى المخلص الكايغكوس ، ما اطلع به علم مولانا ومالكنا السلطانى الناصر ، جامع كلمة الإيمان ، رافع علم العدل والاحسان ، صلاح الدنيا والدين ، سلطان الإسلام والمسلمين ، أدام الله إقباله ، وضاعف جلاله ، وصان مهجته وكمل نهاية آماله بعظمته وجلاله ».

أمر ملك الألمان وما جرى له عند ظهوره ، وذلك أنه أول ما خرج من دياره ودخل بلاد الهنكر غصبا ، وغصب ملك الهنكر (٣) بالإذعان والدخول تحت طاعته وأخذ من ماله ورجاله ما اختار ، ثم أنه دخل أرض مقدم الروم ، وفتح البلاد ونهبها وأقام بها وأخرج ملك الروم إلا أن أطاعه ، وأخذ رهائنه ، وولده وأخاه وأربعين نفراً من خلصائه ، وأخذ منه خمسين قنطاراً ذهبا ، وخمسين قنطارا فضة وثيابا اطلس بمبلغ عظيم .

واغتصب المراكب وعاد بها إلى هذا الجانب ، وصحبته الرهائن إلى أن وصلوا حدود بلاد الملك قلج أرسلان ، ورد الرهائن . وبقى سائر ثلاثة أيام وتركمان الأوج يلقونه بالأغنام والبقر والخيل والبضائع . فدأصلهم

---

(١) الخطاب وارد فى ابن شداد النوادر السلطانية ص ١٠٧

(٢) قلعة الروم : هى قلعة حصينة فى غربى الفرات مقابل البيرة بينها وبين سميساط معجم البلدان ج ٣ ص ٣٩٠ ، ٣٩١ .

(٣) الهنكر : المجر حاليا

الطمع وجمعوا جموعا من جميع البلاد ، ووقع القتال بين التركمان وبينه ، وضايقوه ثلاثة وثلاثين يوما وهو سائر ولما قرب من قونية جمع قطب الدين ولد قلج أرسلان العساكر ، وقصده وضرب معه مضادا عظيما ، فظفر به ملك الألمان ، وكسره كسرة عظمية ، وسار حتى أشرف على قونية ، فخرج إليه جموع عظيمة من المسلمين ، فردهم مكسورين وهجم على قونية بالسيف . وقتل منهم عالما عظيما من المسلمين والفرس ، وأقام بها خمسة أيام وطلب قلج أرسلان منه الأمان فأمنه الملك ، واستقر بينهم قاعدة أكيدة ، وأخذ الملك منه رهائن عشرين من أكابر دولته ، وأشار على الملك أن يجعل طريقه على طرسوس والمصيصة ففعل وقبل منه .

وقبل وصوله إلى هذه الديار اختيارا أو كرها ، اقتضى الحال انفاذ المملوك حاتم وصحبته ما سأل ، ومعه من الخواص جماعة للقاء الملك وجواب كتابه وكانت الوصية معهم أن يمروا به على بلاد قلج أرسلان إن أمكن ، فلما اجتمعوا بالملك الكبير أعادوا عليه الجواب ، وعرفوا الأحوال بالانحراف ، ثم كثرت عليه العساكر والجموع ونزل على شط بعض الأنهار ، وأكل خبزا ونام ، وانتبه فتاقت نفسه إلى الاستحمام فى الماء البارد ففعل ذلك وخرج ، وكان من أمر الله أن تحرك عليه مرض عظيم من الماء البارد ، فمكث أياما قلائل ومات .

وأما ابن لاون فإنه كان سائراً يلتى الملك ، فلما جرى هذا المجرى هرب الرسل من المعسكر وتقدموا إليه وأخبروه بالحال ، فدخل فى بعض حصونه واحتمى هناك وأما ابن الملك ، فكان أبوه منذ توجهه إلى قصد هذه الديار ، نصب ولده الذى معه عوضه ، واستقرت القاعدة ، وبلغه

---

(١) أحد القبائل التركمانية التى كانت تقيم فى آسيا الوسطى وراء سيحون معجم البلدان ج ٣ ص ٧٦

هرب رسل ابن لاون فانفذ واستعطفهم وأحضرهم وقال : إن أبي كان شيخا كبيراً ، وما قصد هذه الديار إلا لأجل حج بيت المقدس ، وأنا الذى دبرت الملك وعانيت المشاق فى هذه الطريق فمن أطاعنى وإلا قصد دياره واستعطف ابن لاون واقتضى الحال الاجتماع به ضرورة .

وبالجملة فهو فى عدد كثير ، ولقد عرض عسكره فكان اثنين وأربعين بجفجفا (1) وأما الرجالة فما يحصى عددهم ، وهم أناس متفاوتة على قصد عظيم ، وجد فى أمرهم سياسة هائلة حتى أن من جنى منهم جناية فليس له جزاء إلا أن يذبح مثل الشاه ولقد بلغهم أن بعض أكابرهم أنه جنى على غلام له وجاوز الحد فى ضربه فاجتمعت القسوس للحكم ، فاقتضى الحال والحكم العام ذبحه ، وشفع إلى الملك منهم خلق عظيم فلم يلتفت إلى ذلك وذبحه ، وقد حرموا الملاذ على أنفسهم حتى أن من بلغهم عنه بلوغ لذه هجروه وعزروه .

كل ذلك كان حزنا على بيت المقدس ولقد صح عن جمع منهم أنهم هجروا الثياب مدة طويلة وحرموها على أنفسهم ، وحرموا ما حل ولم يلبسوا إلا الحديد ، حتى أنكر عليهم الأكابر ذلك ، وهم من الصبر على الشقاء والذل والتعب فى حال عظيم .

طالع المملوك الحال ، وما يتجدد بعد ذلك يطالع به إن شاء الله تعالى.

---

(1) بجفجفا : أى يلبسون التجفاف وهى آلة يلبسها الإنسان أو الفرس تصنع من الحديد أو غيره للوقاية أثناء الحرب وهى كلمة ليست من أصل عربى القاموس المحيط .

ملحق ٢

ذكر ما اشتملت عليه المملكة الرومية
من البلاد الإسلامية أثناء سيطرة المغول

كما ورد فى بيبرس الدوادار فى زبده الفكر فى تاريخ الهجرة

بلد خلاط وأعمالها وتسمى أرمينية الكبرى وكل من تملكها يسمى شاه أرمن ، ومن مدنها خلاط [١] ، وآن [٢] ، وسطان [٣] وارجيش ومامعها .

أرزن الروم وأعمالها [٤] :

ومن مدائنها : سبهر وبابرت وقجاز ، وتسمى دار الجلال .

مدينة التى وأعمالها [٥] :

وهى متصلة ببلاد الكرج [٦] وتخومها وهى ذات قلعة حصينة منيعة .

أرزنجان وأعمالها :

ومن مدائنها أقشهر [٧] ودرجان وكماخ وقلعة كغونية وما مع ذلك .

---

(١) قصبة أرمينية الوسطى ياقوت معجم البلدان جا ص ٤٥٧

(٢) آن فى وادى بالقرن من الساحل بين الصلا ومدين وبها عين يقال لها آنى — ياقوت معجم البلدان ج ٢ ص ٣٩٧ .

(٣) من البلاد أرمينية على حافة بحيرة أرجيش — أبو الفدا تقويم البلدان ص ١٩٧

(٤) أرزن الروم آخر بلاد الروم من جهة الشرق — أبو الفدا تقويم البلدان ص ٢٨٤

(٥) قلعة حصينة ومدينة قرب تفليس بينها وبين أرزن الروم — ياقوت : معجم البلدان ج ١ ص ٣٥٧

(٦) الكرج : جورجيا حاليا .

(٧) اق شهر : وأحيانا يقال نفشار وهى شمال قونية — القلقشندى : صبح الأعشى ج ٤ ص ٣٢٢

ديار بكر وأعمالها :

ومدنها المشهورة خرتبرت [١] ومنطية وشميصات [٢] ومشار وغيرها .

سيواس وبلاد دانشمند :

ويسمى دار العلاء ومن أعمالها نكيسار وأماسية وتوقات وقمنات وبلاد انكوريه [٣] ومدينة سامسون وقلعة سنوب [٤] وكستمونية [٥] وطرخلو وبرلو ، وهذه متصله بسواحل البحر المحيط .

قيسارية وأعمالها :

ونكدة وعراقلية وبلاد أرمناك وبها ابن منتشى .

مدينة قونية وأعمالها :

وطنغزلوا [٦] وأعمالها وقراحصار [٧] ودمرلو وأنصرا [٨] وانطاليا والعلايا [٩] .

---

(١) خرتبرت : تعرف حصن زياد وهى بلدة بارمينية الصغرى بالقرب من خلاط القلقشندى : صبح الأعشى ج ٤ ص ٣٢٢

(٢) شميصات أو سميساط : هى بلدة من ديار مضر وقيل من ديار بكر فى الجزيرة : القلقشندى صبح الاعشى ج ٤ ص ٣١٩ .

(٣) أنكورية : أنقرة حاليا .

(٤) من سواحل الروم على بحر القرم — القلقشندى صبح الأعشى ج ٥ ص ٣٤٨ .

(٥) كستمونية: جنوب سنوب شرق انكورية — القلقشندى: صبح الأعشى ج٥ ص٣٤٨

(٦) قيسارية : كان بها مقر سلطنة السلاجقة وهى مدينة كبيرة من بلاد الروم ياقوت معجم البلدان ج ٤ ص ٢١٤ .

(٧) طنغزلوا : مدينة متوسطة فى أواسط هذه البلاد : القلقشندى : صبح الأعشى ج ٥ ص ٣٤١

(٨) قراحصار : اسم لأماكن كثيرة ومدن جليلة عالبيتها ببلاد الروم منها قراحصار على يوم من أنطاكية ومنها قراحصار قرب قيسارية وهى المقصودة .
ياقوت : معجم البلدان ج ٤ ص ٤٣

(٩) العلايا : بلدة صغيرة فى انطاليا على دجلة بحر الروم وهى على تلك البلاد فى جنوب انطاليا تنسب إلى علاء الدين على من ملوك بنى سلجوق
القلقشندى : صبح الاعشى ج ٥ ص ٣٤٧ .

ملحق ٣

معركة ابلستين كما وردت فى
جامع التواريخ : رشيد الدين فضل الله الهمذانى
المجلد الثانى الجزء الأول

فى سنة ٦٧٤/١٢٧٥ م سار ضياء الدين وابن خطير وابن بروانه مع مائة رجل من ولاية الروم نحو ركن الدين البندقدار بناحية الشام وحرضوه على السير إلى بلاد الروم فتوجه إلى تلك البلاد مع جنود مجهزين فى سنة ٦٧٥ / ١٢٧٦ . وخرجوا عن طريق جبال ابلستان مما يلى جبال ابلستان .

وكان قد عسكر فى تلك الحدود من أمراء المغول توقو بن ايلكاى نويان وأخوه أورقتو وتوادون بن سودون من قوم سلدوس وأخو سونجاق نويان، ومع كل منهم عشرة آلاف جندى ، فتلاقى الجيشان فى يوم الجمعة العاشر من ذى القعدة من السنة المذكورة الموافق الثانى عشر من شهر « أونج » من سنة « هوكار » وكان البرد قارسا ، فترجل توقو وتودوان ونزل مع الجند ، وحاربوا حربا طاحنة ، ولكن جيوش المغول انهزمت بعد الظهيرة ، ولم ينج إلا قليل منهم .

ثم قدم البندقدار إلى قيصرية ، وأقام هناك أسبوعا وضرب السكة وجعل الخطبة باسمه ولقد ضاق أمر العلف على الجنود ، وكان معين الدين بروانه قائماً على قلعة توقات فارسل إليه البندقدار رسولا لاستدعائه لم يلب نداءه ، فقتل البندقدار بعض النصارى والأرمن ثم رجع . وقد وضعت العوائق فى طريق الفرسان المصريين فترجل كثير منهم .

بعد ذلك قدم المدعو بوكداى من خدم توداون ، وشرح لاباقان خان ما حدث فغضب آباقان خان غضب شديد ، وسار فى نفس اليوم من

دار الملك بتبريز متجها نحو بلاد الروم فى شهر صفر سنة ٦٧٦/١٢٧٧م وكان الفصل ربيعاً ، فلما بلغ أبلستان وآقجة حظى بالمثول لدى السلطان غياث الدين مع الصاحب فخر الدين الأصفهانى . وعندما رأى القتلى مكدسة أجسادهم فى آبلستان بكى عليهم ، وحزن على توقو وتودان حزنا شديداً . وبدافع الغضب قتل طائفة من التركمان الذين كانوا قد أثاروا الفتن ، كما قتل طائفة من أعيان الروم وأمر جنوده بأن يباشروا القتل والنهب فى بعض بلاد الروم . وقد اشترى الصاحب شمس الدين الجوينى بعض الأراضى فى المدن . وكان من جملة ما نهبوا نصف مدينة سيواس : وتشفع الصاحب شمس الدين حتى لا يأخذ الملك العادل العامة بجرائم الخاصة ، فوقعت شفاعته موقع القبول وتجاوز آباقان خان عن ذنبهم . وقد استشهد نور الدين حرنكى وظهر الدين أبى هود . ثم عزم ابقاخان على السير نحو الشام . وكان ذلك فى أشد أيام الصيف فقال الأمراء : « أن أواخر الخريف والشتاء أنسب لتلك الحملة ، فتريث لذلك السبب . وأرسل رسولا إلى البندقدار على سبيل التهديد والتخويف فقال « إنكم تنقضون فجأة كاللصوص وتطاردون فرساننا وطلائعنا وتقتلون بعضهم ، فإذا ما بلغتنا الأخبار تحركنا لصدكم تفرون كاللصوص ، فإذا كنتم تريدون لقاءنا وقتالنا فادخلوا الميدان كالرجال وثبتوا الأقدام .

تعالى لكى ترى سنانى ... وتنظر إلى التواء عنانى

فإن كنت جبلا فتنهار من أساسك ... وإن كنت حجراً فلن تستقر فى مكانك

وإنى شاهدت المقاتلين ... يامن لم يسمع عواء الثعالب

وإن لم تأتى فإن جيوشنا مستعدة لقتالك فى طليعة الشتاء ، وإذ امتدت نار غضبنا إلى بلاد الشام ، فإنها بلا ريب سوف تأتى على كل ما لكم من اخضر ويابس ، لأن الله الأزلى قد وهب جنكيزخان وذريته بلاد العالم .

وأدخل السراة المتمردين فى ربقة طاعتنا وكل من يخالف أهل الإقبال تكون مخالفته دليلا على الأدبار » .

وعندما وصل البندقدار إلى دمشق ، وكان قد رأى من قبل الرسول عليه السلام وقد قلده سيفا ، جلس فى ذلك الأسبوع على عرش السلطنة وحينئذ رأى الرسول مرة أخرى فى المنام يقول له « رد إلينا وديعتنا واسترد منه السيف ومنحه الملك المنصور السلطان سيف الدين قلاوون المعروف بالألفى ، فاستدعاه وقال له أحسن لأبنائى عندما تسير ملكا . ثم توفى بمدينة دمشق فى شهر ذى الحجة سنة ٦٧٦ — ١٢٧٨ ودفن فى المدينة التى أقامها هناك » .

ولقد عهد آباقان خان ببلاد الروم إلى الأمير « قونكقورتاى » ومعه جيش كامل حتى يحافظ عليها من الأعداء : وأمره بأن يهدم قلعة « توقات وحصن كوغانية الذى كان دار معين الدين بروانه ، ثم عاد إلى الاتاغ فى سنة هوكار الموافق سنة ١٢٧٨/٦٧٦ م . وقد قدم بروانة إلى المعسكر خائفا هلعا ، فقال الأمراء أنه متهم بارتكابه ثلاثة جرائم : الأولى أنه هرب من الأعداء ، والثانية أنه لم يخبر قواد المغول على الفور بمجىء البندقدار والثالثة أنه لم يحضر سريعاً إلى الحضرة .

وصفوة القول أن الأمر قد صدر بأن يبقى بروانة تحت الحراسة ولما عاد الرسل من لدن البندقدار ذكروا أن البندقدار يقول « لقد اقبلت بناء على استدعاء بروانه ، لأنه كان قد وعدنى بأن يسلمنى بلاد الروم حينما أحضر . ولكنه لاذ بالفرار بعد أن حضرت هناك .

فلما بلغ آبا قاخان ذلك الكلام أمر بقتله ، فاستشهد فى غرة ربيع الأول سنة ١٢٧٧/٦٧٦ م فى مصيف الآتاغ على يد كوجك توغجى .

الحملة الصليبية الثالثة

(١١٨٩ — ١١٩٠)

كما وردت فى تاريخ أوتو البلاسينى [١]

كان الوضع بالنسبة للحملة الصليبية الثالثة يختلف عمّا عهدناه مع الحملات الصليبية السابقة فالعلاقات بين الأطراف فى المنطقة قد تغيرت تغيرا جذريا بعد وفاة نور الدين حيث استقل صلاح الدين بمصر وتزعم حركة الجهاد، وفى معركة حطين (يوليو ١١٩٧) هزم الصليبيين واستولى على بيت المقدس . وكان من الطبيعي أن يثير سقوط بيت المقدس فى أيدى المسلمين العالم الغربى بأجمعه والبابوية خاصة التى طالبت ملوك الغرب بالإسراع إلى نجدة المسيحيين فى الشرق . فاستجاب لهذه الصرخة رتشارد قلب الأسد ملك انجلترا وفيليب أغسطس ملك فرنسا وفريدرك باربروسا امبراطور المانيا.

وكان موقف بيزنطة قد تغير تجاه الحملات لما حدث بينها وبين الصليبيين من خلافات . فعقد إسحق انجليوس اتفاقا مع صلاح الدين ضد سلطان قونية ، العدو المشترك ، الذى تحالف بدوره مع فريدرك امبراطور المانيا ولكن قبل قدوم الحملة تمّ تقسيم المملكة بين أبنائه وتزوج ابنه قطب الدين ابنة صلاح الدين وبذلك لم توضع المعاهدة موضع التنفيذ .

عبور فريدرك إلى آسيا الصغرى

والآن لما كان الامبراطور الإغريقى غير قادر على مواجهة قوة فريدرك فقد استدرك ما كان قد فعله ودخل فى معاهدة معه . كما قام بتهدئة الجيش بامداده بالمؤن . وبذلك وبعد أن تصالح مع فريدرك نقله مع جيشه عبر البر[٢] بونتس (٢٢—٢٨ مارس ١٩١٠) من جاليبولس . وهنا دخل فردريك بجيشه إلى آسيا . وسار لبعض الوقت ولاقى النجاح فى كل

(١) Otto of st. Blasien trans Tatcher (Asource Book for Mediaeval History)

(٢) بحر مرمرة

مكان وخضع له كل شعب رومانيا (غرب آسيا الصغرى) . وعندما اقترب الأمبراطور من قونية نقض السلطان معاهدته وأمر بأن تحمل كل المؤن إلى القلعة ومثل البرابرة والسكتيين رفض أن يبيع المؤن للجيش . وقاسى الجيش من الجوع واضطروا لأن يأكلوا لحوم البغال والحمير أو الخيول . بالإضافة إلى ذلك فقد هاجم الوثنيون المؤخرة وأولئك الذين خرجوا لرعى دوابهم قتلوا بعضهم . وبهذه الطريقة عطلوا الجيش وأرادت قواتنا أن تواجه البدو فى معركة مفتوحة بل خرجوا أحيانا للمعركة ولكن البدو كانوا ينسحبون دائما ويرفضون الاشتباك فى معركة شاملة . والآن رغم أن الجيش كان مستاء من هذه الطريقة وكان يقاسى من الجوع والحاجة إلا أن الأمبراطور حفاظا على المعاهدة مع السلطان ، منع جيشه من تدمير ونهب البلد وذلك لأنه اعتقد أن الناس كانوا يهاجمونه بدون إذن السلطان . ولكنه حين علم من الرسل أن السلطان قد غدر به وأمر الناس بمهاجمته غضب وأعلن أن السلطان عدو وسمح للجيش بالإنتقام .

فدمر قليقيه وبامفيليا وفيرجيا بالتذبيح والنهب والنار والسيف بينما كان الجيش الوثنى ينسحب باستمرار من أمامهم . واتجه الجيش الآن نحو قونية ، التى كانت عاصمة لقلقية والمقر الرئيسى للسلطان ، وأخذها بسرعة (١٨ مايو ١١٩٠) .

وكانت مدينة مزدحمة بالسكان ومحصنة جيدا بأسوار قوية وأبراج عالية وفى وسطها قلعة حصينة . كما كانت مزودة جيدا بالمؤن ضد أى حصار بينما جرد الريف من حولها من المؤن وذلك حتى إذا جاء الأمبراطور فإنه سوف لا يستمر كثيرا فى حفظ جيش هناك .

ولكن الله محا جهودهم حتى أن النتيجة كانت عكس ما ابتغوه . حيث أن الأمبراطور هاجم المدينة فجأة بعنف شديد قبل الساعة الثالثة من اليوم (الساعة الثالثة بعد الظهر) . ووضع السيف فى كثيرين من الجنسين وكل الأعمار . ولجأ السلطان مع كثيرين من نبلائه إلى داخل القلعة التى بدأ الأمبراطور

فى حصارها فى نفس اليوم . والآن ، راى السلطان أنه لايوجد شىء يمكن أن يصد قوة الألمان وأن أولئك ، مؤيدين بقوة إلهيه فقد احتقروا الموت وبدون تردد هاجموا كل شىء وقف فى طريقهم . ولذلك بعد أن تعلم من التجربة الخطيرة وظن أنه من الضرورى أن يطلب السلم من الأمبراطور وأعطى رهائن . وبعد عقد السلام أعيدت مدينة قونية ومملكته إليه .

سقوط القسطنطينية كما ورد فى كتاب كريتفولوس «تاريخ محمد الفاتح»

كريتفولس مواطن إغريقى من جزيرة أمبروز شمال البحر الايجيى دخل فى خدمة محمد الفاتح بعد سقوط القسطنطينيه وتولى ولاية ذلك الإقليم وكتب تاريخا لمحمد الفاتح شمل السنوات السبع العشر الأولى من حكمه ولقد لقى كريتفولس هجوما من مواطنيه الإغريق المعاصرين له والمحدثين لأنه جعل من الرجل الذى احتل بلاده بطلا ولكن المؤرخون الغربيون أنصفوه Robert College ; Van Milingen فعدوا مؤلفاته أفضل من مؤلفات يونانية أخرى كفرانتيز وخالكنديولنز ودوكاس ، والمخطوطة الأصلية للكتاب اكتشفت فى ١٨٦٥ وموجودة بمكتبة متحف سريجا ليو بتركيا (١).

الخطة والقرار

رأى السلطان محمد أن يعد العدة لحركته التالية وهى الاستيلاء على الميناء وفتح القرن (٢) بسلاحه لاستخدام سفنه ، ولكى جميع جهوده

(١) Kritovouls : History of Mehmed the Conguerer trans- Charles Riggs « princeton 1954 »

تكتب محمد وفق النطق التركى.

(٢) القرن الذهبى . فى الشهور الأخيرة فى سنه ١٤٥٢ كان محمد قد أعد الخطة النهائية للاستيلاء على القسطنطينية وأرسل السلطان رسالة إلى المدينة يطلب فيها الاستسلام مقابل تأمينهم على أنفسهم ، ولكن الامبراطور وأهل القسطنطينية لم يثقوا بوعود محمد ...

لاقتحامه باءت بالفشل ، واتخذ قراراً حكيم خليق بذكائه وقوته ونجح في تحقيق غرضه ووضع نهاية لهذه الأمور .

أمر رؤساء المراكب باقامة طريق منحدر من خارج البحر من ساحل الميناء إلى مكان يسمى ديبلكيون وإن يغطى بكتل الخشب . وهذا الطريق مغطى بالماء ويمتد إلى المنطقة الداخلية ، وانتهى من الإعداد بسبب العدد الكبير من العمال الذين أحضرهم وأحضر عدداً كبيراً من السفن ووضع تحتها أوتاد تحمل السفن ووضع دعامات على كل جانب من الجوانب وربطوها بالحبال . وربط دعامات سلكية في الجوانب وشد بها السفن عن طريق الجند او بواسطة آلات .

وسحبوا السفن ببطء وتبعها الفرسان . وظهرت السفن بالجنود على الأرض كما كانت في البحر وبعضها رفع أشرعته كما لوكان سيبحر وبعض الجند جلس على المقاعد وحمل سلاحه وسهامه كما لوكانت ستطلق والرؤساء يصدرون أوامرهم للرماة ، وحملت السفن في الأرض كما تحمل في الماء .

بعضها جذب إلى قمة التل في حين الباقي أنزلوا إلى الميـــاه وبدؤا إبحارهم بالضوضاء .

الاستيلاء على المدينـة

وكما يقال قادهم بنفسه ، وارتفع صياحهم في الممر ، بصراخ مخيف وذهبوا رأساً إلى السلطان عند السياج وبعد قتال عنيف طردوا الرومان من هناك وتسلقوا السياج بالقوة ، وأسقطوا بعضاً من أعدائهم من السور الكبير والسياج في الفجوة العميقة والتي من الصعب الخروج منها . وقتلوهم هناك والباقي طردوهم إلى البوابة

= بالهجوم البحري ولكنه فشل وذلك ثم فكر في الاستيلاء على القرن الذهبي وقرر نقل قوته وسفنه عبر الأرض التي بها القرن الذهبي عبر ربوة ترتفع عن البحر مائة قدم ، ويفضل ما لديه من قوات ومعدات شق طريقه إلى ... وزحفت سفن من البحر إلى الشاطئ بواسطة أوتاد جرتها ثيران إلى الجانب الآخر .

وفاة الامبراطور قسطنطين

وفتحوا البوابة فى السور الكبير وذهبوا رأساً إلى السياج وكانت معركة كبرى قتل فيها من تمركز هناك ، فقد هاجمهم المشاة من المسلمين ولم يتعرض الآخرين فى التكوينات المنتظمة والذين خرجوا من أماكنهم بسبب الصياح لنفس المصير ، وسقط الإمبراطور قسطنطين وكل من كان معه بعد صراع عظيم .

واندفع المشاة خلال البوابة إلى داخل المدينة وبعضهم إندفع خلال الثغرة إلى السور الكبير وإندفع الباقون خلال الثغرة وأثاروا ضجيجاً خلال المدينة ، ووقف السلطان على الأسوار وكانت الشعارات والأعلام مرفوعة وراقب السلطان مايحدث .

الهروب وقتل الكثير

وحدثت مذبحة كبرى لأولئك الذين كانوا هناك بعضهم كان فى الطريق حيث تركوا منازلهم واندفعوا إلى مكان الضوضاء فسقطوا تحت سيوف الجنود ، والبعض الآخر كان فى منازلهم وسقطوا ضحايا لوحشية الانكشارية والجنود الآخرين بلا سبب ولا جريرة .

والبعض الآخر قاوم إعتمادا على شجاعتهم والبعض الآخر هرب ولجأ إلى الكنائس واحتمى بها رجال ونساء وأطفال ولم يعطوا مأوى ، وهجم عليهم الجند بلا رحمة دافعهم لذلك صعوبة وطول الحصار ، وكان بعض الأغنياء من الشعب قد سبهم ولعنهم أثناء الحصار . وعامة قتل الكثير لاثارة الفزع فى المدينة والرعب واستبعدوهم بالمذابح ولما اكتفوا من القتل واخضعوا المدينة للعبودية عاد بعضهم إلى مستقرهم لتقسيم الغنائم والأفراد، والبعض الآخر ذهب لسرقة الكنائس ، والبعض إنتشر فى المنازل العادية للأهالى يسرق ويقتحم ويمضى ، ويسبوا الرجال والنساء والأطفال كباراً وصغاراً رهباناً وقسساً باختصار أفراد من كل الأعمار وكل الطبقات .

المراجع العربية

ابن تغرى بردى : (جمال الدين أبو المحاسن يوسف) النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة (مطبعة دار الكتب ١٩٣٩)

ابن العبرى : (غريغريوس الملطى) تاريخ مختصر الدول (بيروت ١٩٥٨)

ابن حوقل : المسالك والممالك (ليدن ١٨٧٠)

ابن حجر العسقلانى : (شهاب الدين بن على)
أنباء الغمر بأنباء العمر جزءان (مخطوط دار الكتب المصرية)

ابن شداد : (القاضى بها الدين) النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية

إبن العديم : (كمال الدين عمر بن أحمد) زبدة الحلب فى تاريخ حلب ٢ جزء (دمشق ١٩٤٥ — ١٩٥١) نشرها سامى الدهان

ابن القلانسى : ذيل تاريخ دمشق (بيروت ١٩٠٨)

ابن واصل . (جمال الدين محمد بن سالم) مفرج الكروب فى أخبار بن أيوب القاهرة ١٩٦٠ نشره وحققه جمال الدين الشيال حتى نهاية سنة ٦١٥ هـ فى ثلاث أجزاء

ابن الأثير : (عزالدين أبو الحسن على الجزرى)
الكامل فى التاريخ ١٢ جزءا (القاهرة ١٣٥٧)

ابن أياس : (محمد بن أحمد) بدائع الزهور فى وقائع الدهور (بولاق القاهرة ١٣١١هـ)

أبو شامة : (شهاب الدين أبو محمد عبد الرحمن المقدسى) الروضتين فى أخبار الدولتين (القاهرة ١٢٨٧ هـ)
ذيل الروضتين (القاهرة ١٩٤٧)

أبو الفدا : (الملك المؤيد عماد الدين اسماعيل) المختصر فى أخبار البشر المعروف بتاريخ أبى الفدا (القاهره ١٢٢٥ هـ)

الأصفهانى : (عماد الدين محمد)
تاريخ دولة آل سلجوق ٢ جزء (القاهرة ١٣١٨هـ)
الأنطاكى : (يحيى بن سعيد)
التاريخ المجموع على التحقيق والتصديق (بيروت ١٩٠٩)
أسد رستم : الروم (بيروت)
بارتولد : (تاريخ الترك فى آسيا الوسطى) ترجمة الدكتور أحمد السعيد (القاهرة ١٩٥٨)
إلباز العرينى : (الدولة البيزنطية (القاهرة ١٩٦٠)
البنداري : (الفتح بن على) تاريخ دولة آل سلجوق (القاهرة ١٩٠٠)
البلاذرى : فتوح البلدان (القاهرة ١٩٥٥)
البلخى : كتاب البدء والتاريخ (باريس ١٩٥٧)
بيبرس الدوادار : (زبدة الفكرة فى تاريخ الهجرة)
الجزء التاسع تحقيق زبيدة عطا مخطوط محقق لم ينشر
البيهقى : (تاريخ البيهقى) ترجمة الدكتور يحيى الخشاب (القاهرة ١٩٥٦)
جيبون : (ادوارد) اضمحلال الإمبراطورية الرومانية وسقوطها ٣ أجزاء (دار الكتاب العربى ١٩٦٩) ترجمة محمد على أبو درة
حسن أحمد محمود ، وأحمد إبراهيم الشريف :
العالم الإسلامى فى العصر العباسى (دار الفكر العربى ١٩٧٢)
الحسينى (ناصر بن على) : أخبار الدولة السلجوقية (لاهور ١٩٣٣م)
الراوندى : (محمد بن على بن سليمان) راحة الصدور وآية السرور فى تاريخ الدولة السلجوقية (القاهرة ١٩٦٠)
زامباور (ادوارد) : معجم الأنساب والأسرات الحاكمة ترجمة زكى حسن وحسن محمود (القاهرة ١٩٥١)
سعيد عبد الفتاح عاشور : الحركة الصليبية ٢ جزء (القاهرة ١٩٦٢)
مصر فى عصر دولة المماليك البحرية (القاهرة ١٩٥٩)

عبد النعيم حسنين : سلاجقة إيران والعراق (القاهرة ١٩٥٩)

الطبرى : (محمد بن جرير) تاريخ الأمم والملوك (القاهرة ١٧٢٦ ﻫ)

فامبرى : (تاريخ بخارى) ترجمة الساداتى (القاهرة ١٩٦٥)

فؤاد عبد المعطى الصياد : (المغول فى التاريخ) (القاهرة ١٩٦٠)

القرمانى (أبو العباس أحمد) أخبار الدول وآثار الأول (بغداد ١٢٨٢ ﻫ)

القلقشندى : (أبو العباس أحمد) صبح الأعشى فى صناعة الإنشا ٢٤ جزء
القاهرة ١٩١٣

كلارى : (روبرت) فتح القسطنطينية على يد الصليبين ترجمة حسن حبشى
(القاهرة ١٩٦٤)

المسعودى : (على بن الحسين بن على المسعودى) مروج الذهب ومعادن
الجوهر ٤ أجزاء (القاهرة ١٢٨٢ ﻫ)

المقريزى : (تقى الدين أحمد بن على)
السلوك لمعرفة دول الملوك تحقيق محمد مصطفى زيادة القاهرة ١٩٣٦

النرشخى :(أبو بكر محمد بن جعفر) تاريخ بخارى (القاهرة ١٩٦٢)

الهمذانى : (رشيد الدين فضل الله) جامع التواريخ (تاريخ المغول) نقله من
الفارسية إلى العربية محمد صادق نشأت وفؤاد الصياد القاهرة ١٩٦٠

ياقوت : (شهاب الدين أبو عبد الله الحموى) معجم البلدان ٥ مجلدات
(القاهرة ١٣٥٩ ﻫ)

اليعقوبى : تاريخ اليعقوبى (بيروت ١٩٦٠)

المقدسى : (شمس الدين أبو عبد الله) أحسن التقاسيم فى معرفة الاقاليم
(ليدن ١٩٧٦)

المراجع الأوروبية

Anna Comenena : The Alexiad trans. E.A.S. Dawes (London 1967)

Baker James : Turkey in Europe (London 1950)

Baynes, Moss : Byzantium (Oxford 1962)

Bernard, Lewis : Foreword and Acknowledgements outline of Islamic History;. Thames and Hudson (London 1976)

Braurd : Charles. Saladin and Byzantium "speclum 1945 Vol XX"

Brooks, E.W. : The Arab in Asia Minor Arabic Lists of the Byzantine themes. Journal of Hellenic Studies Vol XXI

Bury : History of the later Roman Empire 2 Vols (New York 1958)

Cahen (c) : La Syrie du Nord a Pepoque des croisades (Paris 1940)

La Campagne de Manizikert d'apres les source musulmans (Byzantion IX 1934)

Cambridge Medieval History (Camb 1957)

The Cambridge History of Islam 2 Vols (Camb. 1970)

Chalandon : Histoire de le premiere croisade (Paris 1925)

Les Comnenes 2 Vol (Paris 1900—1912)

Essai sur la Regne d'Alexis Comnene (Paris 1900)

Constantine VII De aclministrando imperio trans Hyenkins (Buctapest 1949)

Constance Head Un paleologue inconnu (Byzantion XLI 1971)

Diehl Charles History of the Byzantine Empire (NY 1945)

Dunlop : The History of the Jewish Khazar (Princeton 1954)

Encyclopedia of Islam (London 1913)

Gillard Caston : The Turks and Europe (London)

Grousset : Histoire de l Armenie (Paris 1947)

Histoire des Croissades 3 Vols (Paris 1936)

Hearsey : "John" City of Constantine (Great Britan 1963)

Howorth Henry : History of the Mongols (London 1880)

Hussey, J. : The Byzantine World (N.Y 1957)

E.M. Janssens : Le pays de Trebizonde (Byzantion XXXVI 1966)

John Frana : The Crisis of the First Crusade to the departure from Arga (Byzantion XXXVI 1966)

Kritovoulos : History of the Mehmed the Conqueror trans Charle Triggs (Princeton 1954)

A Laiou' : The provisioning of Constantinople During the winter of 1306—1307 (Byzantion Tome XXXVII 1967)

L'aurent J. : Byzance et les Turcs seljonoides dans l'Asie (Paris 1919)

Lemerle P. : Invasions et emigrations dans les Balkans depuis le fin de Popoquc Romanie

Michael Psellus : Chronographia 2 Vols trans Sewter. (London 1931)

Miller William : Trebizond the Last Greck Empire (London 1920)

Essays of the Latin Orient

Nicetas Choniates : History "Bonn 1835" (Camb 1921—1925)

Norman Itzkowitz : The Ottoman Empire in the World of Islam (Thames and Hudson) (London 1976)

Ostrogorsky : Hist. of the Byzantine State Trans by Joan Hussey (Oxford 1954)

D'Ohsson : **Hist. des Mongols 4 Vols. Amsterdam (1852)**

A. Papa Dakis : Gennadius II and Mehmet the Conqueror (Byzantion XXXVI 1966)

Phrantzes : Chronicon Maius trans Loenertz. (1940)

Rambaud A : L'Empire Grec audixime siecle. (Paris 1870)

Etudes sur l'histore byzantine 1912

Ramsay W. M : Historical Geography of Asia Minor (London 1890)

Runicman S. : A History of the Crusades 3 Vols. (Camb. 1954)

The Fall of Constantinople. (Camb)

Recueil des Historiens des Croisades Publ. Academie des Inscriptions et Bells Letters. (Paris, 1841–1905)

Setton : A Hist. of the Crusades. 2 Vols. (Philadelphia)

Stevenson : The Crusader in the East (Camb 1907)

Vasiliev (A). The Byzantine Empire. (Madison 1952)

Viilehardouin : La Conquete de constantinople trans. P Charlot (Paris 1939)

The Foundation of Empire of Trebizond speclum Journal of Medieval Studies Vol. XI.

William of Tyre : A History of Deeds Done Beyond the Sea (Trans. Babcock krey 2 Vols. (Columbia 1943)

Wittek. P. : Deux chapitres de l'histoire des Turcs de Roum. " Byzantion XI 1936)

تطلب جميع منشوراتنا من

مؤسسة

دار الكتاب الحديث

للطبع والنشر والتوزيع
الكويت شارع فهد السالم عمارة السوق الكبير
بجوار المخازن الكبرى محل رقم ٢٥٠ أرضى
ت : ٤٣٦٧٦٥ ص ٠ ب ٢٢٧٥٤